القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • يناير - فبراير 2012

ملف العدد

حين يحكي الحجر ملاحم

الحرب بين العقل والجسم..

سقوط النظرية النسبية..



العدد 1
المجلد 61

قافلة الأبحاث

تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بإجراء أبحاث ميدانية متعمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدِّمون أنفسهم. وتهدف هذه الخطوة إلى كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي، وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحافي.

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع، وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث، حسب سلَّم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكُتَّابها.

صورة الغلاف

الحجارة في شبه الجزيرة العربية تروي الكثير، حين تتحدث. فهذه البقعة من الكرة الأرضية، كانت ولا تزال موقع نشاط بشري أثَّر في تاريخ البشرية، منذ قرون طويلة. وهذا هو موضوع ملف هذا العدد.

القافلة



الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد بن إبراهيم أبوبشيت

مدير عام الشؤون العامة
ناصر بن عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد الدميني

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

تصميم
المحترف
al mohtaraf
www.mohtaraf.com

طباعة
شركة مطابع التريكي
e-mail: traiki@sahara.com.sa

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

يناير - فبراير 2012
صفر - ربيع الأول 1433

توزع مجاناً للمشتركين

- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

- **الهواتف:** فريق التحرير 5342 874 / 7890 874 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

في باب «قضايا» في هذه المحطة يقف القارئ مع مقالة للكاتب فاضل التركي بعنوان: النظرية النسبية، هل يتقدَّم العلم أم يتأخر؟ وفيها يستعرض آراء مجموعة من العلماء توصلت في نتائج تجاربها التي استمرت سنوات ثلاث، إلى أن هناك جسيمات فاقت سرعتها سرعة الضوء. في المقالة سنتعرف إلى تفاصيل هذه الحكاية؛ بما فيها علاقتها بسرعة الضوء والنسبية والتبعات والعواقب. ولكي نعي تماماً أهمية هذا الأمر، يجول بنا في عوالم ممتعة نتعرف فيها إلى كيفية عمل العلم، والمنهج العلمي والتفكير النقدي.





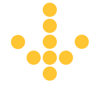
في باب «قول في مقال» يستعرض رئيس تحرير الموسوعة العربية العالمية الدكتور أحمد مهدي الشويخات أهمية عملية الانتخاب بشكل عام ويركِّز طرحه على الأندية الأدبية حيث يناقش أهمية هذه المسألة من عدة زوايا وجوانب مختلفة. ويؤكد الشويخات أن طبيعة التعامل مع المبدع تختلف عن التعامل مع السياسي أو التربوي أو الاقتصادي، فالمبدع يشغله الفعل الإبداعي ومن هنا ينبغي تفهم طبيعة المبدع في الحقول الثقافية من خلال الأندية الأدبية.



2 طاقة واقتصاد

باب «طاقة واقتصاد»: في هذه المحطة يقف المهندس أمجد قاسم ليتناول في دراسة تحليلية الأسس والمقاييس لتصنيف النفط الخام، ويشرح أن النفط الخام عبارة عن مزيج معقَّد يتفاوت تركيبه الكيميائي، إلا أن السمة المشتركة التي تربط بين معظم المركبات الداخلة في تركيبة وجود ذرات الكربون والهيدروجين، وما اختلاف خواص النفط إلا في القدرة المتميزة لعنصر الكربون على الاتحاد مع العناصر الأخرى، ليشكل تكوينات جزيئية بسيطة أو معقَّدة.

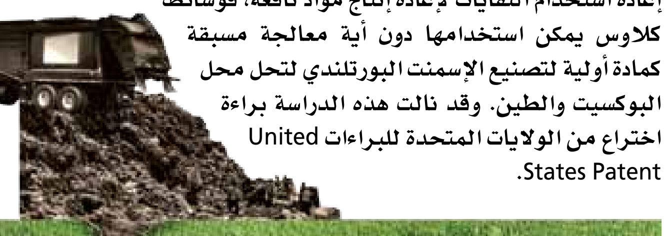
وفي ظلّ الأزمة الاقتصادية العالمية التي ضربت العالم، مؤخراً، يتناول أمين نجيب، المسؤوليات الكبرى التي ألقيت على عاتق الإدارات المختلفة في أنحاء العالم، ويمهد لذلك بعرض لتاريخ نشوء الإدارة، ومراحل تشكُّلها وتطورها عبر العصور، وتطور مفاهيم الإدارة الحديثة، ووظائفها، متوقعاً أن يعبر العالم في المستقبل القريب إلى عصر الإدارة الفعالة والمتجددة.



3 بيئة وعلوم

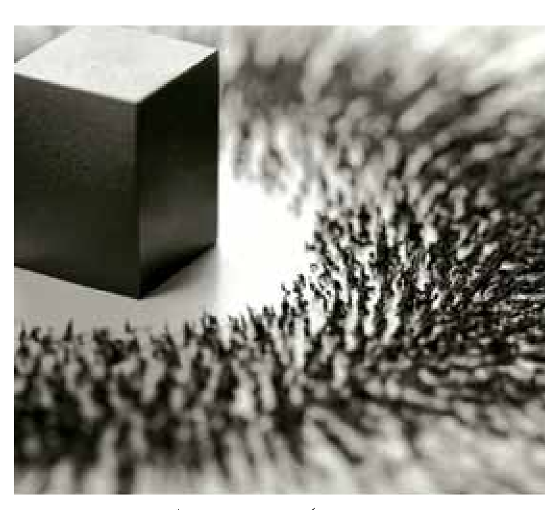
باب «بيئة وعلوم»: ما العلاقة بين «الرز الهندي» و«رطوبة الدمام» و«تمر القصيم» ربما نعتقد ألاَّ تكون هناك علاقة ولكن د. يوسف العوهلي يرى أن بينها قاسماً مشتركاً يتمثل في المانسون الهندي، أو الرياح والأمطار الموسمية الهندية فهي من ظواهر الطقس الأكثر إثارة على الكرة الأرضية، نشوء الرياح الموسمية الهندية السنوية بسبب ارتفاع حرارة الهواء الربيعي صورة سريعة في شبه القارة الهندية، وبصورة أبطأ في المحيط الهندي. ونتيجة لذلك، تتجه الرياح الجنوبية - الغربية المشبعة بالرطوبة، نحو اليابسة.

كما يشد القارئ رحاله في هذا الباب إلى الدراسة التي أعدّها الباحث منصور الشافعي من مركز البحوث والتطوير في أرامكو السعودية عن إعادة استخدام النفايات لإعادة إنتاج مواد نافعة، فوسائط كلاوس يمكن استخدامها دون أية معالجة مسبقة كمادة أولية لتصنيع الإسمنت البورتلندي لتحل محل البوكسيت والطين. وقد نالت هذه الدراسة براءة اختراع من الولايات المتحدة للبراءات United States Patent.

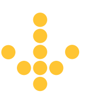




الفاصل المصوّر



يستضيف الفاصل المصوَّر أعمال مصوِّر رائد هو أحمد ماطر الذي عرف كيف يعبِّر بأعماله الفوتوغرافية إلى المناخ التشكيلي، وأصبح محل متابعة حثيثة من المهتمين بالفنون داخل المملكة وخارجها. والعمل الرئيس في مجموعته هنا ذاع صيتها وأصبحت الكعبة المغناطيس علامة فارقة في الفنين معاً.



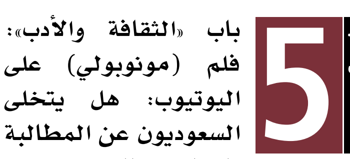
4 الحياة اليومية

باب «الحياة اليومية»: لطالما نهش التوتر النفسي المتواصل أجسامنا بطرق كثيرة، ويكاد يظهر أثره المدمر في صحة معظم أجهزة الجسم، التي تتجرّع تبعات ذاك التوتر. وثبت أنّ لهذا التوتر دوراً في إطالة مدة النوبة الحادة للمرض العضوي، حقائق أثبتتْها تقارير العلم الحديث، وتؤكد وجود رابط وثيق، يعكس تفاعلات خفية ذات أبعاد صحية خطرة، تدور رحاها بين أغوار العقل الباطن ومسار النفْس من جهة، وأجهزة الجسم الحيوية من جهة أخرى. د.حذيفة أحمد الخراط يضع أمامنا هذه الحقائق.

الإتيكيت من الصروح الى البيوت: في هذه المحطة تحط القافلة مع «الإتيكيت» تلك المفردة التي تتكرر كثيراً ويفهم منها أو تُدرج تحتها، مبادئ تهذيب النفس، والإتيكيت الذي تُجمع كل العادات والتقاليد عليه رغم اختلافها من ثقافة إلى أخرى؟ وما هي قواعده ومصادره؟ وهل يمكن أن يستخدمه الناس العاديون في حياتهم اليومية بين المنازل والمدرسة والمجتمع؟ مقالة أعدتها أريج المحفوظ تقدِّم من خلالها عرضاً موسعاً لهذا المفهوم وتجلياته في حياتنا.



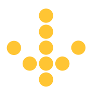
5 الثقافة والأدب



باب «الثقافة والأدب»: فلم (مونوبولي) على اليوتيوب: هل يتخلى السعوديون عن المطالبة بإنشاء صالات العرض السينمائي. فلم» مونوبولي «هو إحدى مفاجآت الإعلام الجديد الباعثة على الدهشة، فقد اكتسح منصة العرض الإلكترونية «يوتيوب»، بعرض مدته 23 دقيقة، من إخراج الشاب بدر الحمود وسيناريو عبدالمجيد الكناني ونخبة من الشباب الناهض غير المكرس في الإعلام العام. خالد ربيع السيد، يستعرض أهم الرسائل التي يوجهها الفلم إلى جمهور لا يعرف هذا الفن إلا خارج الحدود.

فيكتور هيجو.. حياته وآراؤه الغريبة

وهنا وقفة وقراءة في سيرة حياة فيكتور هيجو وكيف كان متفوقاً بإمكاناته العقلية الفذة وقدرته على الإحساس بالأشياء من حوله، مما جعل الناس يلقِّبونه بالرجل الخارق أو السوبرمان. حيث امتلك هيجو ذاكرة صورية طويلة الأمد، ظلت قوية حتى بعد أن تقدَّم في السن. العديد من الجوانب الشخصية والإبداعية توثقها الكاتبة فيان الخفاجي.



6 ملف العدد

أما ملف العدد فهو هذه المرة عن معرض «الطرق القديمة في الجزيرة العربية» الذي أقيم في متحف اللوفر بباريس في الفترة من يوليو حتى سبتمبر من العام الماضي، ويشتمل على كنوز الآثار في الجزيرة وما يحتويه متحف اللوفر منها.



الرحلة معاً

على هامش ملتقى المثقفين الثاني:

هل تتقدَّم الثقافة دون خطة استراتيجية؟

لم يكن يسيراً على وزارة الثقافة والإعلام أن تنظِّم ملتقاها الثقافي الثاني، الذي حضره قرابة ألف مثقَّف ومثقَّفة ينتمون إلى مختلف الشؤون الفكرية والأدبية. فالشريحة المثقَّفة عندنا كما في كل المجتمعات، هي إحدى الفئات الاجتماعية الأقل رضىً والأشد نقداً والأكثر ثقة بأنها الأقدر على فهم حاجات المجتمع وإصلاحه.

وأقول منذ البداية إن التقاء المثقفين سنوياً، أو كل بضع سنوات هو عمل إيجابي وخلَّاق ينبغي أن يتواصل، فكل أصحاب المهن والتخصصات في العالم لهم مؤتمراتهم السنوية محلياً أو إقليمياً أو دولياً، ومن خلالها تُطرح كل قضايا المهنة ومستجداتها وسبل الارتقاء بالمنتسبين إليها، ومعالجة مشكلاتها وطرق تمويلها ونشر وتفعيل رسالتها، واستقطاب أعضاء جدد لها وفحص آفاق مستقبلها. لكن ما نتفق عليه هو أن الآليات والضوابط والمناخات التي تعمل فيها تلك المؤتمرات مختلفة عما يحدث هنا.

أول المعضلات، التي واجهها منظمو المؤتمر، تمثلت في الوصول إلى تعريف جامع مانع للمثقف المطلوب حضوره إلى الرياض. فالمملكة تعجُّ بكل أصناف الثقافة والأدب والنقد والفنون، ثم إن الوزارة تكتشف أن عليها أن تخاطب كل الأعمار بدءاً بمن هم في خريف العمر، وانتهاءً بالشباب الذين يتمترس عملهم وراء وسائل التواصل الاجتماعي الجديدة. والمشكلة التي تلحق بذلك هي أن محاور النقاش عامة لا تنحصر في علم أو فن يمكن أن يخفِّف عدد المشاركين، أو يقلص سيل المحاور وموضوعات الندوات.

أما ثاني المعضلات: فتكمن في غياب استراتيجية محددة الملامح، تختصر الهدف من جمع هذا الحشد الكبير على صعيد واحد. لقد تملك الكثيرون شعور بأنهم يعيشون أجواء مهرجان الجنادرية للثقافة. الضيوف يتوزعون على الحافلات الذاهبة والعائدة من مركز الملك فهد الثقافي، لكي يقضوا الساعات تلو الساعات مستمعين إلى سلسلة من المحاضرات والندوات دون أن يكونوا طرفاً فاعلاً فيها، سوى ما يسمح به مديرو تلك اللقاءات من فسحات قصيرة للمشاركة، وكما تجري العادة فهناك نفر يهيمن على كل الندوات بأسئلته أو بمداخلاته دون أن تطرف له عين.

وملاحظتي هنا: أن الوزارة كانت تستطيع استثمار هذا الحشد لفتح نقاش حر وحقيقي حول البرامج والمشاريع والخطط الثقافية التي تنوي الوزارة تفعيلها إن على مستوى الداخل، أو على مستوى فعلها الثقافي الخارجي. وكان في مقدور المنظمين أن يفتحوا حديثاً حول المعوقات التي تعترض الحراك الثقافي، خاصة وأن معالي الوزير عبد العزيز خوجة طلب في كلمته عون المثقفين ومقترحاتهم لتطوير الأداء الثقافي. وكان من



الضروري أن تكون تلك المشاريع والخطط بين أيدي المثقفين قبل حضورهم إلى المؤتمر لدراستها أو اقتراح بدائل أكثر فاعلية وجدوى، وأجزم أن في جعبة بعض من حضروا عشرات الأفكار والمبادرات الابتكارية لرفع مستوى العمل الثقافي وفتح آفاق لتجديده.

لم يكن هذا الملتقى بحاجة إلى محاضرين وخطباء، بقدر حاجته إلى أن يكون حاضناً لسلسلة من ورش العمل المخصصة لمناقشة باقة من المشكلات التي تواجهها جهود التنمية الثقافية ولنضع بعض الأمثلة:

كيف نصنع ثقافة حديثة ومواكبة في مناهجنا ومدارسنا؟ وما الدور المفترض للمثقفين في نشر ثقافة حقوق الإنسان ومؤسسات المجتمع المدني؟ وكيف نتخلص من معوقات تنقل الكتاب وقنوات المعرفة إلى بلادنا؟ لماذا تغيب الثقافة والفنون من خارطة وزارة الاقتصاد والتخطيط؟ أين المسرح والسينما وأين صالات الفنون؟ كيف نبني متاحف جاذبة للمواطنين والزوار؟ وما عناصر ثقافتنا التي نعرضها للعالم؟ وما دور الرأسمال الوطني في صناعتنا الثقافية (قدَّمت الشيخة مي آل خليفة، وزيرة الثقافة البحرينية عرضاً مهماً لقائمة طويلة من المتاحف والمواقع الآثارية، والبيوت التقليدية التي أسهم فيها رجال أعمال وتجار وبنوك ومؤسسات تجارية وصناعية بحرينية).

الأسئلة تطول، لكن حالتنا الثقافية تحتاج إلى حوارات جادة، وإلى تفعيل حقيقي لنتائج تلك الحوارات، وأن يوضع الفعل الثقافي في سياق شفاف يتيح للمجتمع والنخب أن تكون شاهدة ومندمجة مع ما يجري تنفيذه على الأرض.

أما ثالث تلك المعضلات التي خاض الملتقى فيها فكان موقع المرأة في حياتنا الثقافية، وفرص تمكينها من المشاركة الفاعلة ثقافياً واجتماعياً بدلاً من تحجيمها لتكون عنصراً منفذاً لقرارات الرجل.

في هذا السياق فقد اكتسبت ورقة سمو الأميرة عادلة بنت عبد الله بن عبد العزيز أهمية بارزة، فقد اعتبرت أن المثقفة هي أداة الحراك الاجتماعي وأن عليها أن تتعرف إلى احتياجات المجتمع وأن تنفتح على العالم الخارجي مع الحفاظ على الهوية الثقافية. واستعرضت الأميرة عادلة قائمة التحديات الإدارية والاجتماعية والتنظيمية التي تحيط بتمكين المرأة السعودية ثقافياً، واستشهدت بأن تقارير التنمية البشرية لعام 2010م تظهر أن عدم توازن الفرص بين الجنسين قد أنتج ما نسبته 76% من الخسائر في التنمية البشرية، وهي من أعلى النسب في العالم العربي..!.

لكن الورقة المهمة الأخرى التي لاقت صدىً لافتاً هي ورقة د. لمياء باعشن، فقد درست بشكل منهجي عقدة الشرخ الثقافي بين الرجل والمرأة والتي أدت إلى حجب دور المرأة الثقافي عن صنع ثقافة الأجيال المتعاقبة في مجتمعنا. تقول الباحثة: «إن ما يسمى بملف المرأة هوعبارة كاشفة عن مضمر نسقي مضلل، فاهتمامها يجب أن يحصر في بحثها كقضية وليس لها أن تتدخل في قضايا الرأي العام، كما أنها غير معنية بتنمية المجتمع الذي تعيش فيه، ولا ينبغي أن تهتم بشيء خارج بيتها وأسرتها، وهكذا فإن وجودها يُطرح كإشكالية اجتماعية مستعصية لا ذات مستقلة» وتذهب باعشن إلى أن التمثيل النسائي في المجال الثقافي لا يزيد على كونه ممثلاً لدور الرجل ومنفذاً لقراراته، وهذا الوضع التهميشي لموقع المرأة قد أعاق فرص إسهاماتها وحدّ من تعميق خبرتها وتجاربها الحياتية والثقافية معاً»، فيما ترى د. ثريا العريض أن إدخال المرأة كعضو فاعل في المؤسسات الرسمية لا يتحرك إلا بقرار حاسم من صانع القرار، رغم أن الشواهد تدل على أن النخبة النسائية أثبتن تميزهن عبر إنجازاتهن في الميادين المهنية والتخصصية رغم العقبات.

هناك ملاحظة ذكرها بعض المعلّقين، وأعيدها هنا، لماذا تم تجاهل الفئة الشبابية بين الرجل والمرأة.الشرخ الثقافي بين الرجل والمرأة. نسب في العالم العربي. 2010م تظهر أن نسبة عدم توازن الفرص بين الجنسين تشكِّل قرابة 70% من مجتمعنا؟ هل يخفى أن النصيب الأكبر من الحراك الثقافي لدينا يصنعه الشباب، وأن أبسط حقوقهم علينا هو دعوتهم لكي نقترب منهم لنعرف ما إذا كانوا ينتمون إلى لغتنا وخطابنا وهواجسنا أم أنهم يصنعون فضاءً ثقافياً آخر، لا تؤثر فيه مؤتمراتنا ولا تسيطر عليه حِكَمُنا ولا أحكامنا..!

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

إنجاز موضوعات للمجلة

تعرفت إلى مجلتكم المحترمة خلال مشاركتي الأخيرة في «مؤتمر فكر العاشر» الذي أقامته مؤسسة الفكر العربي في دبي خلال شهر ديسمبر الماضي، ويسعدني أن أنضم إلى كتَّاب المجلة من خلال الإسهام معكم في إعداد موضوعاتها المختلفة، كما يسعدني أن أتلقى اقتراحاتكم حول الموضوعات التي يمكنني المباشرة في إنجازها، وأحيطكم علماً بأنني شاعرة وكاتبة جزائرية الجنسية أعمل في حقل الثقافة والإعلام ومتعاونة ثقافياً مع مؤسسة الفكر العربي، وكذلك أدرس العلوم القانونية والإدارية بجامعة قسنطينة منذ سنوات أربع وحائزة شهادات عليا من جامعة الجزائر والجامعة العربية بلبنان، وكذلك لي مؤلفات منجزة في حقل القانون ومؤلف ثقافي قيد الإنجاز.

وفاء مرزوق

الجزائر

القافلة: يسعدنا تلقي مشاركاتك بحسب المناخات التي تتناولها المجلة بالتنسيق مع إدارة التحرير.

بينالي البندقية

أول ما شدني هو موضوع الغلاف «بينالي البندقية 54»، وقد أحسن القائمون على المجلة إذ أسندوا التغطية أو كتابة الموضوع إلى الأستاذ والزميل عبدالله المغلوث والذي صاغ كعادته لوحات فنية في وصف هذا الحدث، وتميز في تفاصيل الأعمال الكبيرة التي حفل بها المعرض، وقد كان وصفه للمشاركة الألمانية يتوازى مع المستوى الذي أوصلها للجائزة الأولى. ثم عرج على بعض المشاركات الأخرى ومدحها وأثنى عليها وكان لكل مشاركة صورة في هذا المقال.

وقد كنت أتشوق أن أعرف أشياءً أكثر عن المشاركة السعودية، والتي لم يبخل بها علينا، حيث علمنا منه عن جهود الوفد السعودي في هذا الشأن، لكنني لم أعلم السبب وراء عدم ذكر ردود فعل من حضر البينالي على المشاركة السعودية أو حتى وضع صورة للمشاركة السعودية في المقال، وأنتم حتماً تشاركونني الرأي أن الصورة كانت ضرورية.

أخيراً شدني ملف الخيانة وخباياه وطريقة عرضه، بالإضافة إلى أنواعها، ولا أنسى تميز ديوان الأستاذ جاسم الصحيح لتميّز صاحبه.

فلاح بن عبدالعزيز العتيبي

الظهران

مطبوعة متنوعة ومواكبة

أود أن أعرب لكم عن عميق تقديري لكل ما تبذلونه من جهود متتالية ومستمرة في مجالات نشر موضوعات المجلة على الجانبين الثقافي والعلمي. وأرى أن مختلف الاتجاهات المتنوعة للمجلة تضيف المزيد من الفائدة والمنفعة العامة للقرَّاء ومتصفحيها في كافة العلوم الحياتية واليومية المعاصرة في جميع مناحي الحياة. وقد وجدت أنها تجتهد شكلاً ومضموناً لتطبيق الأساليب الصحافية المتطورة الحديثة لتواكب التقدم المستمر حالياً في عالم الصحافة والطباعة وعالم النشر والإعلام، مع تطور تكنولوجيا المعلومات وأجهزتها المتجددة وعلى اختلاف استعمالاتها ومنافعها المتعددة في كافة مجالات الأعمال اليومية.

محمد حسن التاجر

المنامة – البحرين

تغيير عنوان

أتقدَّم لسعادتكم بهذا الخطاب وأفيدكم بأنني أحد مشتركي مجلتكم العامرة تحت عنوان إدارة المتابعة بإدارة التربية والتعليم بالطائف، ونظراً لرغبتي في مواصلة اشتراكي في هذه المجلة أرغب إرسالها على عنواني الجديد ... شاكراً لكم قبول طلبي هذا متمنياً لكم وللمجلة كل التوفيق، والله يرعاكم.

جمعان سعيد علي الغامدي

الطائف

قرأتها عند الأصدقاء

قرأت وتصفحت مجلة القافلة عند أحد الأصدقاء، وتنقلت بين موضوعاتها القيمة، وأعجبت كثيراً بمناخاتها المختلفة والمتميزة وبأسلوب كتَّابها. وأحببت كثيراً أن أقتني هذه المجلة المتميزة، وأستفيد من موضوعاتها الرائعة في مجال عملي أيضاً، حيث إنني موظف إداري تابع لمستشفى الملك فهد للقوات المسلحة بجدة.

وليد بن هداية الله بن محمد الصمداني

جدة

شكر

أود قبل كل شيء أن أشكركم على قبولي مشتركاً في مجلتكم الموقرة، وأفيدكم ببدء وصول أعدادها لي، والشكر موصول إلى الجميع من أول موظف استلم طلبي للاشتراك إلى من قام بتغليف العدد المرسل. ويطربني أن أردد قول الشاعر:

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

وليس أصلح من مجلة تحوي ما أجمل وأفاد من العلوم كمجلتكم الموقرة وسط كم هائل من ما تقذفه المطابع. تحية إعجاب وتقدير.

عاطف الجوهري

جدة

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول



أبناؤنا بين التعليم والتعلم

إن الاهتمام بالطفل منذ نعومة أظفاره، وتربيته على الإبداع والتفكير الابتكاري أمر مهم جداً. ورغم أن كثيراً من الصفات الوراثية يرثها الطفل وتؤثر في سلوكه وتفكيره ونفسيته، إلا أن دراسات وأبحاث علماء الطب والنفس أثبتت أن هناك صفات عديدة يكتسبها الإنسان من البيئة التي يتواجد فيها.

وإن الأسلوب الذي يتربى عليه غالبية الأطفال في وطننا العربي هو أسلوب تلقيني عقيم، يقتل الإبداع ويحدّ من الخيال، وهذا الأسلوب يعيشه معظم الأطفال في بيوتهم مع آبائهم وفي مدارسهم مع مدرسيهم.

لقد آن الأوان لأن تتغيَّر أساليب التربية لتتواكب مع ما توصَّل إليه العلم الحديث من أساليب تربوية، تسمو بالخيال وتفجر القدرات العقلية والإبداعية عند صغار السن، حتى إذا ما كبروا أصبحوا قادة الإبداع وأساتذة التغيير والتطوير.

وأشارت دراسة عن الظروف التربوية المحيطة بالطفل والمؤثرة في تنمية الإبداع والتفكير الابتكاري لديه، والمقصود بالظروف هنا مدى مساهمة المعلِّم داخل الفصل في تشجيع التخيل عند الطفل، ومساعدة التلميذ على التفكير الحر، وإعطاء ما عند المعلم من آراء وأفكار.

وقد تبيَّن من تجربة طُبِّقت على فصول تحظى بمدرسين يتميزون بالتعليم الابتكاري، وأخرى بالتعليم التقليدي، أن الفصل المفتوح حقق درجات أكبر من الفصل ذي التعليم الجامد التقليدي.

واتضح من تلك الدراسة ضرورة تخصيص جزء من المنهج يناقش فيه الطالب المدرس، كما تبيَّن أن الجزء الذي يمارس فيه الطالب النقاش يبقى، خلاف الجزء المعتمد على حفظ المادة الدراسية.

وأشارت الدراسة إلى أهمية الدور أو النشاط الذاتي للمتعلم نفسه، وهي قائمة أساساً على مراعاة الفروق بين الأفراد. فمن خلال الفروق يمكن أن تتنوع الأنشطة المزاولة ويوفِّر المعلم بدوره الجو المناسب لتنمية هذا الجانب المهم من التربية الابتكارية بطرق عديدة منها:
طرح أسئلة تثير الاهتمام والتفكير.
انتهاج أسلوب الجلسات المفتوحة التي يتم من خلالها طرح مشكلة ما، ثم تترك فرصة لكل من له طرح من آراء وخبرات.
ويتعلم من ذلك أن هناك أشياءَ قابلة للتغيير وللمقارنة والمناقشة.

ونتج من تلك الدراسة حقيقة مفادها أن كل طفل مبدع وخلاَّق، والمجتمع هو الذي يسمح أو لا يسمح بتطوير التفكير الابتكاري لديه.

وفي كتابه «مقدِّمة في منهج الإبداع»، أورد الأستاذ زهير المنصور مثالاً شاهده في ولاية فلوريدا الأمريكية يدل على أهمية التربية الإبداعية للأطفال وأثرها في صناعة المبدعين.

ففي زيارة له هناك لنوع معيَّن من مدارس الأطفال يسمى مدارس «المونتوسوري» أي تلك المدارس التي تنتهج نظرية التعليم الخاضعة لشروط مخترعها، وهو شخص فرنسي يدعى مونتوسوري، أهاله ما رآه هناك من جو صحي مهيأ أيما تهيئة لتربية وتنمية القدرات الإبداعية لدى الأطفال، حيث إن هذا النظام التعليمي باختصار قد اعتمد أهدافاً للتنشئة الإبداعية وهي:
أولاً: الحرية في التعلم.
ثانياً: اختيار ما أريد أن أتعلَّم، ومتى أريد أن أتعلَّم.
ثالثاً: مرونة نظام التعليم والبدائل التعليمية.

والأطفال هناك ممن هم في سن الخامسة من العمر والسادسة، قد عرفوا كيفية كتابة وسرد التقارير وأسس السكرتارية وحل المسائل الرياضية والجبرية البسيطة التي تأخذ شكل المعادلات. وعند التحدث مع أي طفل منهم تلاحظ أنه قد تميز بشخصية متفردة عن باقي رفاقه وتشعر بثقته العالية بنفسه وبإنجازاته. وأما من هم في سن الثامنة فإنهم قد انتظموا في برامج البرمجة بالكمبيوتر وذلك ضمن برامج صيفية في بعض الكليات والجامعات المنتشرة في الولاية.

وفي فنزويلا تم تجنيد عدد كبير من المدرسين بعد أن درِّبوا على تدريس مهارات التفكير، ثم باشر هؤلاء المدرسون تدريب الطلبة على برنامج متكامل حول مهارات التفكير بمعدل ساعتين أسبوعياً، كما أن هذا البرنامج طبِّقه كثير من المدارس في أستراليا والولايات المتحدة الأمريكية.

هذا جزء بسيط من الجو الاجتماعي أو التعليم الذي يحاط به الأطفال هناك ناهيك عن البيئة الإعلامية الثقافية السياسية التي تحيط بهم ليل نهار من نعومة أظفارهم إلى سن الشيخوخة.

ولكي تكسب أساليب التنشئة الأولى أهميتها تلك، فلا بد لها من أن تسترشد بعدد من المبادئ، منها:

- تشجيع الاختلاف البنَّاء.
- تعويد الطفل على احترام قيمه ومواهبه.
- تقبل أوجه القصور.
- تنمية المهارات حتى ولو كانت محدودة.
- المساعدة في تكوين قدرات لاستغلال الفرص الملائمة واقتناصها.
- تنمية القيم والأهداف الملائمة.
- تجنب الربط بين الخروج عن المألوف وبين الشذوذ والتعقيد.
- تعليم العديد من الطرق لمواجهة الصعوبات والفشل.

أريج المحفوظ
القطيف

تعقيباً على موضوع «أبناؤنا بين التعليم والتعلم»، مجلة «القافلة» عدد مايو-يونيو 2011



كيف ولد اليورو كعملة أوروبية موحدة؟

تُعد تجربة الدول الأوروبية من أكثر تجارب التكامل الاقتصادي نجاحاً، إذ يمثل إنشاء منطقة التجارة الحرة الأوروبية، والمجموعة الاقتصادية الأوروبية، ثم توحيد العملة الأوروبية في اتحاد نقدي أكثر الجهود نجاحاً حتى الآن من قبل مجموعة من الدول المستقلة في زيادة اعتمادها الاقتصادي والسياسي المتبادل.

البداية الحقيقية للتجربة الأوروبية تعود إلى أعقاب الحرب العالمية الثانية، حينما أعيدت صياغة نظام النقد الدولي طبقاً لاتفاقية «بريتون وودز» عام 1945م، تلك الاتفاقية التي تجاهلت تماماً مصالح البلدان النامية التي كانت تتطلع لتحقيق تحررها الاقتصادي، وبناء تنميتها ورفع مستوى معيشة شعوبها.

ومن ثم اتجهت الدول الأوروبية إلى إقامة اتحاد بينها، ونجحت في ذلك يوم 9 مايو 1950م، وهو يوم إعلان ميلاد الاتحاد الأوروبي، ومنذ ذلك التاريخ اتجهت الدول الأوروبية إلى تكوين اتحاد اقتصادي يقوم لمواجهة آليات نظام المدفوعات الدولية الذي قام على قاعدة الدولار القابل للتحويل، بعد أن نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في جعله العملة الدولية، ومن ثم عملة الاحتياطي العالمي.

وفي روما اجتمعت عدة دول هي: فرنسا، وألمانيا الغربية، وإيطاليا، وبلجيكا، وهولندا، ولكسمبورج، ونجحت في توقيع معاهدة روما في مارس 1957م، التي أنشأت السوق الأوروبية بينها، والتي شهدت التوسع بانضمام عدد من الدول الأخرى حتى ضمت جميع الدول الأوروبية، ومنذ ذلك التاريخ تُعد السوق الأوروبية المشتركة أكبر تكتل اقتصادي في العصر الحديث.

وعلى مستوى تعمق التعامل الاقتصادي، فقد حققت المجموعة الأوروبية اتحاداً جمركياً هدف إلى إلغاء جميع أنواع التعريفات الجمركية، ونظم حصص الاستيراد التي كانت تعترض سبيل التبادل التجاري الحر، وقررت توحيد التعريفة الجمركية تجاه الدول غير الأعضاء، على أن يتم ذلك عن طريق الملاءمة المطردة بين التعريفات الجمركية لدى الدول الأعضاء، بحيث يبدأ تطبيق تلك التعريفة الموحَّدة حيال العالم الخارجي في ختام فترة الانتقال، فالهدف إذن من إقامة السوق الأوروبية المشتركة كان مجرد اتحاد جمركي.

وقد نجحت سبع دول أوروبية في 4 يناير 1960 في إقامة منطقة تجارة حرة؛ بهدف تخفيف التعريفات الجمركية فيما بينها، إلا أن منطقة التجارة الحرة بين هذه الدول لم تتفق على سياسة جمركية موحَّدة إزاء العالم الخارجي، ولم تحاول احتواء السلع الزراعية.

وإذ كان يوم 11 ديسمبر 1991م حين تم التوقيع في روما على معاهدة «ماسترخت» بشأن الوحدة الأوروبية الاقتصادية، والنقدية والسياسية أيضاً يُعد للمجتمع الدولي منعطفاً تاريخياً لعلاقات تعاون نمت تدريجياً على مدى العقود الأربعة، فمما لاشك فيه أن يوم 2 مايو 1998م يُعد يوماً تاريخياً مشهوداً في تاريخ أوروبا، حيث أصدرت القمة الأوروبية التاريخية التي انعقدت في بروكسيل إعلاناً بإصدار العملة الأوروبية الموحدة (اليورو) لتصبح عملة التداول الرسمية للدول الأعضاء في الاتحاد النقدي الأوروبي عام 2002م.



وهكذا اتجهت الأوضاع في الاتحاد الأوروبي نحو اليورو، الذي يُعد حدث القرن العشرين في القارة الأوروبية وعالمياً، ولم يكن ذلك وليد اللحظة، بل إنه مرَّ بتطورات تاريخية ابتداءً من عام 1950م، عام ميلاد الاتحاد الأوروبي، مروراً باتفاقية باريس في 8 أبريل 1951م، التي أسست الهيئة الأوروبية للفولاذ والفحم من جانب فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبورج، لتتوج بمعاهدة روما في 1957م، والتي تأسست بموجبها السوق الأوروبية المشتركة، ومنظمة الطاقة الأوروبية النووية، لتندمج هذه المنظمات الثلاث في الأول من يناير 1958م في المجموعة الاقتصادية الأوروبية.

وفي 13 مارس 1979م بدأ تطبيق (النظام النقدي الأوروبي) الذي اعتمد آلية تفضيلية للتدخل في سوق النقد، بهدف التحكم بأسعار الصرف لعملات الدول الأعضاء، وتقديم الدعم للعملات التي تتعرض للضعف والتذبذب، وتضمَّن النظام النقدي الأوروبي ثماني عملات هي (المارك الألماني، الفرنك الفرنسي، الفرانك البلجيكي، الجيلندر الهولندي، الكراون الدانمركي، الليرة الإيطالية، الجنيه الأيرلندي، فرنك لوكسمبورج).

وفي 12 ديسمبر 1991م كللت جهود الدول الأوروبية بالنجاح بمعاهدة «ماسترخت»، التي اتفق فيها على تحويل المجموعة الأوروبية من مجموعة اقتصادية إلى وحدة سياسية ذات عملة واحدة، وبذلك يكون قد تم التوصل إلى اتفاق بشأن الوحدة الأوروبية الاقتصادية والنقدية، وبشأن الاتحاد السياسي أيضاً.

وفي بداية عام 1993م بدأ تطبيق معاهدة «ماسترخت»، واتخذ الاتحاد الأوروبي عدة خطوات للدخول إلى مرحلة ما بعد هذه المعاهدة في ميادين الاقتصاد والنقد والسياسة الخارجية، والأمن والدفاع المشترك، والمواطنة الأوروبية الواحدة، ليقرر رؤساء حكومات الدول الأعضاء في القمة الطارئة في بروكسيل في 29 أكتوبر من نفس العام إعداد التحضيرات اللازمة لتأسيس المصرف المركزي الأوروبي. ويمكن القول إن معاهدة «ماسترخت» قد وضعت سيناريو قيام الاتحاد النقدي الأوروبي، والذي توج بميلاد وحدة النقد الأوروبية (اليورو).

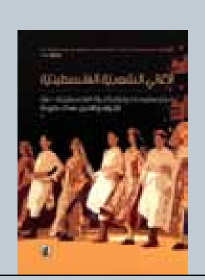
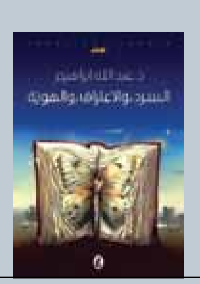
وهكذا تُعد التجربة الأوروبية أعظم المحاولات لتنظيم عدة مناطق ذات عملات مختلفة وطنية في منطقة عملة كبيرة واحدة، والتي تكللت بإنشاء النظام النقدي الأوروبي الموحد، والذي يُعد الخطوة الأولى للدخول في اتحاد سياسي قد يكون فيدرالياً أو كونفدرالياً.

علي عفيفي غازي

قطر

قافلة النشر

إصدارات جديدة





الأغاني الشعبية الفلسطينية
هدى حمّودة
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

السرد والاعتراف والهوية
د. عبدالله إبراهيم
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

في أدب الصداقة
عبدالرحمن منيف ومروان قصاب باشي
المؤسسة العربية ودار التنوير

الإيجاز في الموروث البلاغي في القرآن الكريم
إبراهيم طه
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

مكابدات الأمل
قاسم حداد
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

إضاءات على الأدب الإسرائيلي الحديث
صلاح حزيّن
المؤسسة العربية للدراسات والنشر








مجنون ساحة الحرية
حسن بلاسم
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

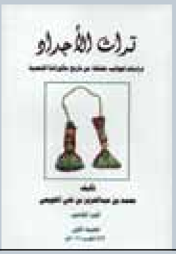
المثقفون والمجتمع
توماس سويل - ترجمة عثمان الجبالي المثلوثي
كتاب المجلة العربية

رواد المعرفة عبر القرون
د. كلفورد أ. بكوفر - ترجمة: د. إيمان نوري الجنابي
كتاب المجلة العربية

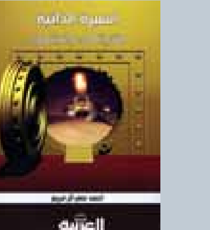
حرب تسميم الأغذية
أندريه أشيري / روجيه لنغليه - ترجمة: د. أنطونيوس بطرس الجنابي
كتاب المجلة العربية

معارك الطاقة الكبرى
جان ماري شوفالييه - ترجمة: لميس عزب
كتاب المجلة العربية

تاريخ الغجر
إيلينا ماروشياكوفا / فاسلين بوبوف - ترجمة: محمد المغربي
كتاب المجلة العربية





بعدما أصبح الكلام واجباً
محمد الطريقي
سلسلة العالِم الفكرية

تراث الأجداد
محمد بن عبدالعزيز بن علي القويعي
نشر خاص

نهاية الصحف ومستقبل الإعلام
برنار بوليه
ترجمة: خالد طه الخالد
وزارة التعليم العالي

رسائل إلى سام
دانييل جوتليب
مكتبة جرير

قصائد في الذاكرة
د. حاتم الصكر
كتاب دبي الثقافية

السيرة الذاتية
أحمد علي آل مريع
كتاب المجلة العربية






إشراقات
كتاب الموسم الثقافي العاشر
مركز الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة للثقافة والبحوث

القوة المطلقة
جيمس لي فالنتين
مكتبة جرير

إني جاعل في الأرض خليفة
عمرو خالد
دار المعرفة

أحبيتك أكثر مما ينبغي (رواية)
أثير عبدالله النشمي
دار الفارابي

طعام.. صلاة.. حب.. امرأة تبحث عن كل شيء
إليزابيث جيلبرت
الدار العربية للعلوم ناشرون

جُزر العبقرية
داروله تريفيرت - ترجمة: بندر الحربي
الدار العربية للعلوم ناشرون



هل تسقط النظرية النسبية؟ هل يتقدم العلم أم يتأخر؟



ما هي الحكاية؟

الحكاية أن مجموعة من العلماء توصلوا في نتائج تجاربهم التي استمرت سنوات ثلاث، إلى أن هناك جسيمات فاقت سرعتها سرعة الضوء. ثم ماذا؟ ما تبعات ذلك؟ هل يستحق شيء من هذا أي اهتمام وكل هذه الأخبار والقلق والترقب؟ هذا ما سنجده في هذه المقالة، التي أعدها الكاتب فاضل التركي، ومن خلالها سنتعرف إلى تفاصيل هذه الحكاية، بما فيها علاقتها بسرعة الضوء والنسبية والتبعات والعواقب. ولكي نعي تماماً أهمية هذا الأمر، سنجول في عوالم ممتعة نتعرف خلالها إلى كيفية عمل العلم، والمنهج العلمي والتفكير النقدي. سنتعلَّم كيف تتحوَّل الأفكار إلى نريات وكيف نثبتها وكيف ننقضها؛ نتعرف إلى صرامة المنهج العلمي التي لا ترحم ولا تجامل. كيف كان لنظرية النسبية أن تبقى صامدة وعملية طيلة هذا الوقت (قرن من الزمان)، ثم جاء وقت قد تغدو خطأ. ماذا يعني ذلك وأين نحن وأين سنكون؟.

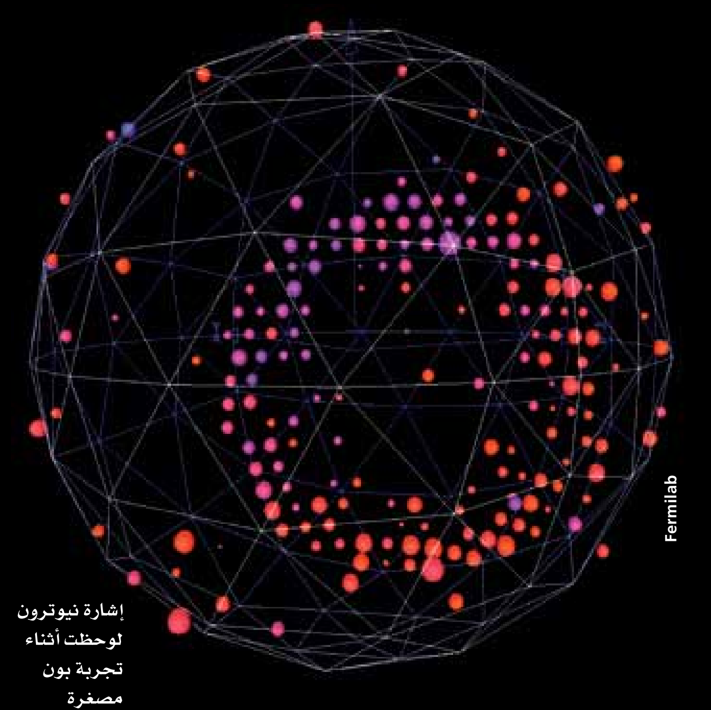


أغلب الظن أنك سمعت عن سيرن (المنظمة الأوروبية للبحث النووي)، التي نتداول أخبارها العلمية كثيراً هذه السنوات، رغم أنها تأسست منذ 1954م. سيرن، فيها 20 عضواً من الدول. وتعرف سيرن بأنها أكبر مختبر في العالم تُشغِّلهُ هذه المنظمة واهتمامه هو فيزياء الجسيمات. إنه مختبر يقع بين حدود سويسرا وفرنسا، يتكفل بمسؤولية تشغيل ستة من مسرعات الجسيمات و مبطئ واحد.

معظم نشاط هذا المختبر ينصبُّ على مصادم الهايدرون الكبير، وهو حلقة وضعت بعمق 100 متر تحت الأرض، ومحيط هذه الحلقة 27 كلم. ما يهمنا في أمر سيرن، هو أن مجموعة من علمائها بالتعاون مع مجموعة من علماء المختبر الإيطالي لفيزياء الطاقة العالية في جران ساسو، قاموا بتجربة استمرت سنوات ثلاث. التجربة أن يطلق العلماء في سيرن في جنيف في مسرع الجسيمات، جسيمات النيوترينو، لتسافر مسافة 730 كم، وتصل إلى جران ساسو، حيث تنتظرها أجهزة مستكشفة تستقبلها. بعد هذه السنوات من إرسال جسيمات النيوترينو هذه المسافة من سيرن إلى جران ساسو، واستقبالها هناك، بينت النتائج أن الجسيمات كانت تسير بسرعة أكثر من 300 كلم في الثانية!

لكن، ما هو النيوترينو؟

جسيمات النيوترينو، (أو اختصاراً، النيوترينو)، هي أحد الجسيمات تحت الذرية، تشبه الإلكترونات التي نعرف، غير أن النيوترينو جسيم معتدل الطاقة، ليس بسالب ولا موجب وكتلته تقترب من الصفر. إن جسيمات النيوترينو تعبر أجسامنا كل يوم وتخرج منها من غير ما نشعر ومن غير أن تتأثر أو أن يتبدل في هذه الجسيمات شيء. تنتج هذه غالباً بسبب الإشعاع أو التفاعلات النووية كتلك التي تحدث في الشمس لتمدنا بالطاقة والحرارة. تنطلق من الشمس إلى الأرض قرابة 65



إشارة نيوترون لوحظت أثناء تجربة بون مصغرة

مليار نيوترينو كل ثانية، وتعبر في كل سنتيمتر مربع تتعامد عليه أشعة الشمس. هذه معلومات قليلة نعرف غيرها الكثير عن النيوترينو منذ مدة ليست بالقصيرة. لكن، أن تجرؤ على أن تتجاوز سرعة الضوء، فهذا أمر غير عادي أبداً. هناك من صنَّف هذا الأمر بأنه أمر غير مقبول بتاتاً.

وإذا كانت سرعة النيوترينو أكثر من سرعة الضوء؟

إذا كان النيوترينو يسافر بسرعة أكثر من سرعة الضوء، فقد تجاوز حدود معرفتنا. فلقد كنا نظن في العلم، أن حدود السرعة في الكون هي سرعة الضوء لا أكثر، حسب النظرية النسبية التي كان آينشتاين قدَّمها في ورقته القصيرة

الشهيرة عام 1905م تأسيساً على من سبقه من فرداي ولورينتز و ماكسويل. إن آينشتاين، قد بنى نظريته النسبية الخاصة على تثبيت سرعة الضوء و هي في حدود 300 كلم في الثانية. وبعد أن بنينا على ذلك الكثير من النتائج والتطبيقات في حياتنا، أصبحنا اليوم ونحن في معضلة قد تضطرنا لإعادة الحسابات والتعريفات والأساسات من جديد. إذا كان في الكون ما هو أسرع من من الضوء، فقط نسفنا بذلك نظرية النسبية ونحتاج أن نعدِّلها أو نأتي بغيرها بديلاً لا يخطئ في وضع قانون صارم كهذا. لكن، هل فعلاً أبطلت سرعة النيوترينو النسبية؟ لننتظر قليلاً.

لقد كان يخطر ببال الطفل ألبرت أنه لو ركب سيارة، وحاول التسابق مع قطار، فهل سيصل لسرعته؟ ماذا لو كان يتسابق مع عمود ضوء؟

ما قصة ثبات سرعة الضوء كأقصى سرعة في الكون؟

كان آينشتاين قد استند إلى ماكس بلانك ولورينتز وبونكاريه وسابقين آخرين من العلماء، واعتمد على تخيلات شغلت ذهنه منذ كان صبياً. ينقل عنه أنه فكَّر في أن يصعد على عمود ضوء، ويركض عليه في نفس الاتجاه، هل تزداد السرعة؟. لقد كانت كشوفاته تحتم عليه أن يرضى بألاَّ تزيد السرعة الكلية أبداً، مهما كانت سرعة السير على هذا العمود في اتجاه حركته. لقد توصل إلى أن هذه السرعة هي القصوى في الكون، ولا يمكن تجاوزها. حساباته في ورقته التي نشرها عام 1905م تذهب إلى أن سرعة الضوء في الفراغ لا تتجاوز 299,792,458م في الثانية، ويرمز لها بالحرف c. وهي سرعة لا يصل لها الضوء لو سرى في مادة أخرى كالماء أو في الهواء أو الزجاج مثلاً، إنما ستكون أقل سرعة من هذه التي في الفراغ. إن الجسيمات التي لها كتلة، لا بد أن تكون، حسب نظرية آينشتاين الخاصة، أقل سرعة من الفوتونات التي تكون الضوء وكتلتها معدومة؛ لا بد أن تكون أقل سرعة من الفوتونات بسبب كتلتها. ولكي تفوق سرعة جسيم ما سرعة الضوء، فيجب أن تكون كتلته معدومة نحتاج إلى طاقة هائلة إن لم تكن لا نهائية لكي يتجاوز هذه السرعة. لقد بنينا الكثير من الأساسيات بناءً، مستخدمين فكرة ثبات سرعة الضوء في الكون كحد أقصى للسرعة لا يمكن تجاوزه ولا تسريع الأجسام التي تتحرك لتصل إليه. هكذا يقول آينشتاين في ورقته و في كتابه الشهير، النسبية، الذي كتبه للعامة مبسطاً. من الأمور التي بنيت على استخدام ثابت سرعة الضوء هو وحدة المتر الذي نقيس به. لقد تم تعريف المتر بما يساوي المسافة التي يقطعها الضوء في واحد من 299,792,458 جزء من الثانية.

لقد كان يخطر ببال الطفل ألبرت أنه لو ركب سيارة، و حاول التسابق مع قطار، فهل سيصل لسرعته؟ ماذا لو كان يتسابق مع عمود ضوء؟ هل لو وصلت سرعة السيارة إلى سرعة الضوء، فسيرى أمواجاً متجمدة بجواره هي الموجات الضوئية؟ لقد قضى آينشتاين من عمره قرابة الخمسين عاماً مع هذا السؤال الذي قاده لبديهية مدهشة هي ثبات سرعة الضوء c التي لا يمكن تجاوزها في الكون حسبما وصف باستخدام معادلات فرداي ومعادلات ماكسويل في الكهرومغناطيسية. هذا ما قاده إلى ما سمي فيما بعد بالنظرية النسبية الخاصة وثم تبعها بالنسبية العامة. إن سرعة الضوء لا تتأثر بحركة من يقيسها (حركة المراقِب أو الملاحِظ) ولا تتأثر ولا تتغير تأثراً بالزمان ولا بالمكان. إن سرعة الضوء لا تتأثر، سواء كان مصدر بث الضوء ثابتاً أو متحركاً.



عمال يساعدون في بناء مسهِّل شعاع نيوترون يستخدم في «سيرن» جسيمات من سويسرا لإيطاليا

national geographic

لقد أثبتت التجارب صدق هذا الثابت بحيث لم يبت تجاوز هذه السرعة منذ نشر الورقة حتى سمعنا بتجربة نيوترونو سيرن وجران ساسو. إن النيوترينو جسيم في الذرة ذو كتلة معتبرة، وفي نفس الوقت، أثبتت التجارب خلال هذه السنوات الثلاث وبالحسابات الدقيقة والتريث، أنها تصل من مكان إطلاقها إلى استقبالها أسرع قليلاً من الضوء.



إذا سقطت النظرية النسبية، فإننا بحاجة لمراجعتها أو الرجوع إلى الوراء قليلاً كي نبني من جديد نظرية نحتاجها لتحل مكانها

العلماء في مشروع أوبرا، لم يعلنوا هذا الخبر متأكدين من خرق النظرية النسبية التي كانت عتيدة عالية التصديق، ومستخدمة في تطبيقات شتى. جسيمات النيوترينو تقترب من الكتلة المعدومة، لكنها ذات كتلة في كل الأحوال. ولهذا يفترض بها حسب النسبية أن تتحرك على الأقصى بسرعة تقترب من سرعة الضوء، ولكن لا تصل إليها ولا تتجاوزها. لقد أثارت نتائج هذه التجربة الطويلة المدة، استغراب علماء مشروع أوبرا أنفسهم. بحيث تجاوزت سرعة هذه الجسيمات سرعة الضوء بمقدار 20 متراً لكل ألف كيلو متر. هذا الرقم في العلم ليس رقماً هيناً، رغم أن فارق الزمن في الوصول بين النيوترينو والضوء هو زيادة 60 نانو ثانية.

العلماء الذين خرجوا بهذه النتائج، يشكون أنفسهم فيما ظهر عندهم رغم كل الصرامة والمراجعة والشك والحرص على إيجاد خطأ ربما وقعوا فيه. لقد جعلهم يعلنون عن النتائج وينشرون بحثهم على المجتمع العلمي لعلّ غيرهم من العلماء والزملاء يجرون نفس الاختبار والتجربة و يتفحَّصون الخطوات والأرقام والمجريات تأكداً من خطأها أو تأكيداً لصحتها؛ ثم تبين الخطوة التالية.

وإذا ظهر أن النظرية النسبية سقطت؟ ماذا يعني ذلك؟

كل ما ثار هذه الشكوك حول النتائج، ليس دفاعاً عن النظرية النسبية، ولكن شئٌ من الصدمة التي جاءت تهدم معرفة معتمدة كانت نتيجة متفحصة لعقود من الزمن والتجارب والبراهين المادية والرياضية. المعارف المعتمدة، جاءت نتيجة عمل مضنٍ من التجريب والإثبات والبرهان، عجز عن أن يؤتى بمثالٍ واحد ينقضها. لكن، ها قد جاء الوقت، وظهر ما يبدو أنه قد يكون السبب في تحويل النسبية إلى ماضٍ أو علماً من علوم الأولين. إن كثيراً من العلماء، يعتقدون حسب الدليل والبرهان وثبات هذه البديهة العلمية، أن تهدماً يُعد هدماً للفيزياء الحديثة، ونقضاً لكثير من النتائج والتبعات والاستنتاجات التي بنيناها على هذا الأساس.

إذا سقطت النظرية النسبية، فإننا بحاجة لمراجعتها أوالرجوع إلى الوراء قليلاً، كي نبني من جديد نظرية نحتاجها لتحل مكانها وعليها نبني التطبيقات والنتائج والتقنيات التي هي أحد أسس التقدم والحياة الحديثة. المرعب في الأمر، أن المنهج العلمي و عملية إنتاج العلم لا ترحم. فنحن نحتاج لكي نبني معرفة معتمدة، جهداً وعملاً على وضع البراهين والإثباتات والتجريب المضني. ولكن، لكي تسقط هذه المعرفة المعتمدة وتصبح بلا قيمة وليست قائمة على البرهان والدليل، نحتاج إلى مثال واحد فقط. مثال يمكن إعادة إنتاجه مراراً وتكراراً على يد علماء مختلفين في ظروف مشابهة أو مختلفة، وإذا استطعنا إعادة تنفيده، سقطت النظرية وذهبت المعرفة المعتمدة هباءً ولن يشفع لها طول العهد ولا الشهرة ولا كثرة التطبيق.

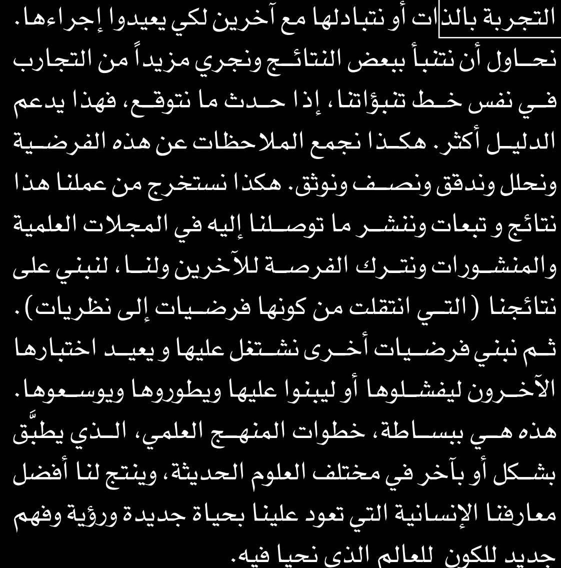
تسقط بمثال واحد، حالة واحدة وحسب، هكذا. يذهب قرن كامل من المعرفة العلمية المعتمدة و آلاف الأوراق العلمية والنتائج والتطبيقات والتقنيات، التي لم تعد مبنية على أسس سليمة كما كنا نظن. لكن ذلك، ليس سيئاً البتة. إنه نافذة جديدة و معرفة جديدة .. تُعبِّدُ طريقاً لم تقع عليها العين. طريق إلى بلاد جديدة، أراضٍ جديدة .. قد تطل بنا على عوالم و سهول و بحيرات و وديان وجبال وسماء أعلى وأحلى. هكذا هي تصورات العلم والمنهج العلمي.

كيف تنشأ و كيف تسقط النظرية العلمية؟ هل نتعرَّف إلى المنهج العلمي قليلاً؟

المنهج العلمي يمكن أن نصفه بعملية نستخدم فيها مجموعة من الطرق لكي نستكشف بها ظاهرة أو فكرة نخمِّنها أو نتخيلها، عملية ننتج بها معارف معتمدة (يمكن أن نعتمد عليها)، سواء كانت جديدة أو تصحيحاً وتكميلاً لمعارف سابقة أو نتجت من تركيب معارف سابقة. المعارف تكون معتمدة إذا قامت على الدليل والبرهان التجريبي العملي. قد نطلق على المنهج العلمي في تداولنا اليومي اسم التفكير العلمي أو التفكير النقدي. يعمُّ هذا المنهج السؤال الدائم والاستقصاء والشك والإبطال والبناء، حتى نصل لمعارف عجزنا عن هدمها.

ولكي يكون هذا المنهج أكثر تريثاً وصرامة، فإنه لا يعتمد على فرد واحد ومكان واحد وتجربة واحدة وفريق واحد؛ ولكنه منهج يتعاطى فيما ينتجه المجتمع العلمي المكون من العلماء والمشتغلين بالعلم، حيث تنشر الأوراق العلمية وتفاصيل التجارب والأفكار وتوثق وتعرض على الزملاء والأعداء (المنافسين) لتراجع و تختبر وتجرب وتعاد الحسابات والأسئلة والجهود وأساليب جديدة ورؤى جديدة حتى نصل لمرحلة نكون كمجتمع علمي قد عجزنا عن إيجاد ما يبطلها أو ينقض البرهان، فنكون وصلنا لجديد معتبر.

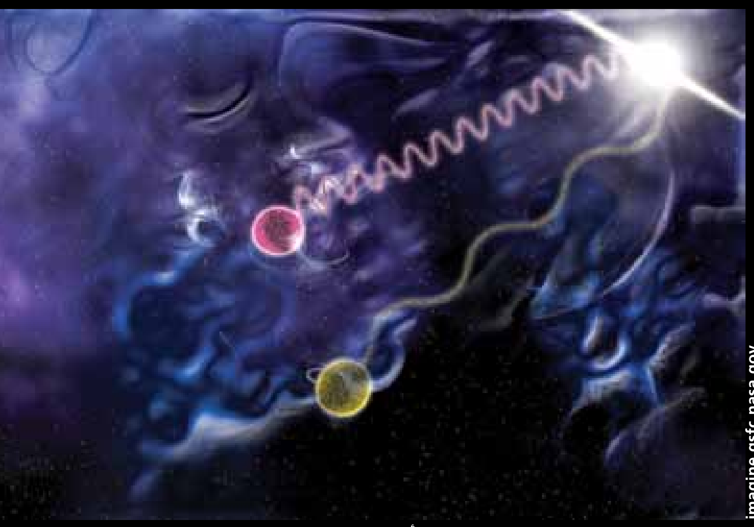
يمكن تلخيص خطوات المنهج العلمي كالتالي: نطرح سؤالاً ذا قيمة وأهمية. ثم نشرع في جمع المعلومات والملاحظات ذات العلاقة بسؤالنا المطروح ونطالع ما سبقنا به آخرون من جهود قد تكون ذات صلة. نجمع هذه المعلومات ونصنفها ونفهمها و ندرسها. نحاول قدر الإمكان أن نصوغ فرضية قد تكون جواباً عن السؤال المطروح، مستمدين العون من كل ما جمعنا وصنَّفنا من معلومات ومعارف وجهود قد سبقنا بها آخرون. هذا الجواب يكون محاولة لشرح أو تفسير الظاهرة أو الفكرة التي نحن بصددها في السؤال. بعد صياغة الفرضية الشارحة هذه، نجري التجارب ونجمع المعلومات والنتائج ونصنفها بدقة ونصفها. هكذا نضمن إن حدثت مفاجئة سارة أو غير سارة، أن نتذكر ماذا كنا نفعل لنعيد إجراء تلك التجربة بالذات أو نتبادلها مع آخرين لكي يعيدوا إجراءها. نحاول أن نتنبأ ببعض النتائج ونجري مزيداً من التجارب في نفس خط تنبؤاتنا، إذا حدث ما نتوقع، فهذا يدعم الدليل أكثر. هكذا نجمع الملاحظات عن هذه الفرضية ونحلل وندقق ونصف ونوثق. هكذا نستخرج من عملنا هذا نتائج و تبعات وننشر ما توصلنا إليه في المجلات العلمية والمنشورات ونترك الفرصة للآخرين ولنا، لنبني على نتائجنا (التي انتقلت من كونها فرضيات إلى نظريات). ثم نبني فرضيات أخرى نشتغل عليها و يعيد اختبارها الآخرون ليفشلوها أو ليبنوا عليها ويطوروها ويوسعوها. هذه هي ببساطة، خطوات المنهج العلمي، الذي يطبَّق بشكل أو بآخر في مختلف العلوم الحديثة، وينتج لنا أفضل معارفنا الإنسانية التي تعود علينا بحياة جديدة ورؤية وفهم جديد للكون للعالم الذي نحيا فيه.



هناك من يعتز كثيراً بالنظرية النسبية لدرجة أنه بدأ يُؤوِّل بدل أن يشتغل ويتأكد من النتائج

كيف يعمل المنهج العلمي في المثال الذي نحن بصدده، سرعة الضوء و تجاوز النيوترينو ثابت حد السرعة في الكون؟

في حالتنا التي نحن بصددها، نعالج قضية أصبحت بديهية علمية قام عليها الدليل منذ بدايات القرن الماضي، وبنيت عليها نتائج كثيرة أخرى وحسابات و نظريات وتطبيقات. ثم ها نحن في حلقة خطوات المنهج العلمي، وربما دون أن نشعر، بدأنا نقذف بنيوترينوات من سيرن إلى جران ساسو، فإذا بها تصل قبل وقتها المتوقع. إننا إذا حسبنا سرعتها، أصبحت أكثر من سرعة الضوء، وهذا ما لا يمكن قبوله حسب نظرية النسبية الخاصة المعتمدة والتي أقمنا عليها الدليل والبرهان والتجريب الطبيعي. قبل أن يسارع العلماء في سيرن و جران ساسو إلى إعلان هذه المفاجأة



imagine.gsfc.nasa.gov

رسم يوضح فوتون (البنفسجي) يحمل طاقة أكثر بملايين المرات من الفوتون الأصفر

كفكرة مقبولة معتمدة، كانوا قد أعادوا الحسابات والتجريب فيما يقارب 16 ألف مرة، على مدار أكثر من سنوات ثلاث، وبطرق مختلفة. لكن النتائج لا تتغيَّر. إنها تصل مبكرة إلى جران ساسو وإنها تسير أسرع من الضوء. حتى بعد محاولة عزل التجربة عن مؤثرات خارجية كمنع حركة المرور فوق حيز التجربة، لم يتغير شيء. حسب معادلة آينشتاين، ولأن للنيوترينو كتلة، فلكي يفوق سرعة الضوء، وجب توافر طاقة لا نهائية لذلك، وهذا ما يكون في عرف النسبية غير ممكن.

يقول أنطونيو إريديتاتو، الفيزيائي في جامعة بيرن، و أحد العلماء الذين أجروا هذه التجربة، إنهم يقيسون المسافة والزمن، و يقسمون المسافة على الزمن فيحصلون على السرعة، هكذا بكل بساطة. لكن، لا تظهر النتائج إلا متجاوزة سرعة الضوء. لكنهم تطبيقاً للمنهج العلمي، لا يستطيعون أن يجزموا بخطأ النسبية هكذا، تسرعاً، رغم كل هذا التأني. ها هم ينشرون النتائج التفصيلية لكي يتلقفها الزملاء و يواصلون الاختبار والتدقيق و التدعيم أو التقيل من قيمة ما قدم أنطونيو ومن معه.

ردود الفعل وانطباعات العلماء والآفاق المشرعة

ردود الفعل الأولية لدى العلماء والمهتمين بالعلم، غير تلك التي حملتها الصحف والمواقع العامة. هناك من يعتز كثيراً بالنظرية النسبية لدرجة أنه بدأ يُؤوِّل بدل أن يشتغل ويتأكد من النتائج، هذا لو كان بإمكانه ذلك. التأويل طال المعادلة وطال كلام آينشتاين. إنهم يقولون إن آينشتاين لم ينف أن تكون هناك جسيمات يمكن تسريعها لتفوق سرعة الضوء،

أو إن آينشتاين لم يعمم لدرجة ألاَّ تكون هناك سرعة تفوق سرعة الضوء. الحقيقة أن التأويل لا يغني ولا يقدِّم ولا يؤخر. نحن أمام حالة اختبار، ويجب أن نعمل المنهج العلمي ليخبرنا بالصواب والخطأ، يخبرنا إن كانت هذه المعرفة مازالت معتمدة، أم أننا يجب أن نتخطاها إلى ما هو خير منها، أو نتخلى عنها ونبدأ من جديد.

البعض يقول إنه ربما تصبح النسبية مثلما أصبحت نظريات نيوتن، نظريات تقريبية، وتأتينا نظريات أكثر دقة في الحسابات واستخراج النتائج ووصف الكون

من العلماء من يميل إلى أن هناك خطأً في الحسابات، وكثيراً يكون هناك هامش للخطأ في الحسابات ولو كان قليلاً، لكنه يكون بالغ الوضوح في تجارب تعنى بالدقة كهذه. المثير للدهشة، أن العلماء الذين قاموا بالتجربة ليسوا حديثي العهد بالعلوم ولا بإجراء التجارب، حتى يقعوا في مثل تسرع كهذا. في نفس الوقت، النسبية ليست نظرية (لم تقم إلا بالدليل التجريبي والرياضي)؛ ليست نظرية حديثة العهد. لقد مضى عليها قرن من الزمن أصبحت فيه من المعارف الراسخة.

البعض يقول إنه ربما تصبح النسبية مثلما أصبحت نظريات نيوتن، نظريات تقريبية، وتأتينا نظريات أكثر دقة في الحسابات واستخراج النتائج و وصف الكون. أما البعض الآخر، مثل مورفي و جون ويب، فيظنون أن الضوء كان أسرع مما هو عليه اليوم في الفراغ وتناقصت سرعته مع تقدم عمر الكون. هكذا يبحثون عن تبرير من هنا وهناك.

العلماء الذين خمنوا صدق نتائج تجارب النيوترينو، توقعوا فتحاً جديداً. إنهم يتصورون أنها فرصة جيدة للتأكد من الفرضيات الفيزيائية الجديدة التي بنيت على أبعاد أخرى قد تصل إلى 11 بعداً، و قد اعتدنا على الأبعاد الثلاثة، الطول والعرض والعمق، إضافة إلى بعد رابع هو الزمكان الذي جاءت به النسبية.

فيزياء النسبية كفيزياء نيوتن، تهتم بالعوالم الكبيرة التي نراها ونلمسها وبالكون والمجرات والكواكب. أما فيزياء الكم التي جاء بها علماء في العشرينيات من عمرهم، هايزنبرغ و باولي و ديراك وشرودنجر ومن معهم، أطلق عليها حينئذ بفيزياء الفتيان، فتهتم بعوالم تحت الذرية. لقد ظل آينشتاين يعمل طيلة عمره بعد النسبية، و علماء آخرون، على المجئ بفيزياء جديدة تربط بين العوالم الكبيرة والصغيرة وتصنع معادلة موحدة. لقد مرت عقود على محاولات من أجل هذا الحلم من قبيل نظرية الأوتار التي لم نصل فيها بعد إلى نتيجة مرضية. و ها هو ستيفن هوكنغ في كتابه الأخير «التصميم العظيم»، يكتب للعامة عن نظرية «إم» التي هي في طور العمل وتشي بأمل نحو التقدم.

ستيفن واينبرغ الفيزيائي الشهير والبروفيسور في جامعة تكساس في أوستن، أدهشه الخبر. إن ما أكثر ما أدهشه أنه على مر سنين من التجارب، لم تجرؤ أي جسيمات على تجاوز سرعة الضوء إلا هذه النيوتريوات .. التي تشبه الأشباح التي لا ترى في الحديقة إلا في الظلام. أما لورنس كراوس من جامعة أريزونا و مارتن ريز من جامعة كامبردج، فيقولان إن ما حدث هو فضيحة محرجة. كيف يمكن لتجربة أن تنشر قبل التحكيم وتنتشر في الإعلام العام قبل أن تنال قسطاً من الاهتمام في المجتمع العلمي. إن هذا بالنسبة لكراوس لمحرج وخصوصاً أن النتائج خرجت بلا تفسير ولا شرح لما تم ملاحظته. والأخطر في الأمر، أنها بمجرد أن ينكشف خطأها، فستسقط الثقة عن العلماء الذين اشتغلوا عليها ونشروها قبل التريث وتذهب مصداقيتهم العلمية. إن تجربة قياس سرعة النيوترينو في 1987م، كانت قد حملت نفس الإدعاءات هذه، وحين تمت مراجعة النتائج والتجارب، تبيَّن أن الخطأ كان بسبب أجهزة القياس التي كانت تتأثر بالحرارة والمحيط.

بالنسبة لكثيرين، كانت هذه الأخبار مبعث مسرة، أن يسمع بعض العلماء عن مشكلة كهذه، خرقت فيما يبدو قانون تثبيت سرعة الضوء. إنها إعادة نظر في الفيزياء الحديثة. هل هي ابتسامة لن تطول أو دمعة صغيرة و تعود الأمور لمجاريها، أي نواصل فيها فهمنا الحاضر لما حولنا، ونواصل المسير في خير طريق نعرف حتى الآن؟ أم هل سينقلنا هذا إلى طريق جديدة للبحث، بزوج من عينين طريتين نحو آفاق أوسع .. هي أكثر تفصيلاً وشرحاً و أعمق جواباً عن أسئلتنا في الكون الذي نعيش فيه، نتفكر فيه كيف يعمل وكيف نحسن التعامل معه؟ هل هو بصيص نور لجهة أشحنا عنها النظر قرناً كاملاً، هي كنز مفقود يحسن أن نفتحه ونقلبه استكشافاً و تقديراً لكل ثمين قد يضمه؟ هل نقلب صفحة عظيمة زينتها قصص أبطال و و بطولات وأفكار عظيمة، ألهمتنا وعلمتنا و فاضت علينا خيرات وتطبيقات وتقنيات، إلى صفحة أكثر إدهاشاً وأعمق معرفة وأوسع آفاقاً. لنحسن الإنصات، النتائج على صفيح ساخن من السؤال والتجربة وإعادة الحسابات. وقبل أن يستجد جديد، فقد فتحت أبواب التفكير في كثير من موضوعات الخيال العلمي كالسفر عبر الزمن والتجول بين الماضي والحاضر والمستقبل.

قول في مقال

الانتخابات والإبداع في أنديتنا الأدبية

ما أجمل أن يكون المسؤولون في الغرف التجارية، والجمعيات الخيرية، وعمادة الكليات الجامعية، والنوادي الأدبية، مرشحين ومختارين بأصوات الأغلبية، إذ للانتخاب فلسفة ومسعى اجتماعي يرتبط بالشرعية المقبولة من الأغلبية، ويتوسم الأداء المعبِّر عن أولئك الذين منحوا أصواتهم، مع الشفافية والوضوح والمساءلة، مما يعني نتائج أفضل للمجتمع. د. أحمد مهدي الشويخات*، يناقش هذه المسألة، ويتناولها من زوايا وأبعاد مختلفة.

من حيث المبدأ، انتخابات الأندية الأدبية وغيرها من المؤسسات ممارسة حضارية مطلوبة وضرورية. يتساوى في ذلك من حيث المبدأ الترشيح والتصويت والفوز المستحق في أية ناحية من نواحي العمل المؤسسي، الاقتصادي منه (الغرف التجارية)، والاجتماعي (الجمعيات الخيرية)، والتعليمي (عمادة الكليات الجامعية)، والثقافي (الأندية الأدبية)، حيث يكون المسؤولون ممثلين للأغلبية المصوتة وحسب برنامج عمل يقدِّمه الشخص الذي يرشح نفسه رجلاً كان أو امرأة.

الخطوة الأولى وتراكم التجربة

في مجالس النوادي الأدبية، أفرزت الانتخابات الأدبية أسماءً رابحة لعضوية مجالس الإدارة، لن تكون بالضرورة هي الأفضل أداءً من الأسماء التي عُيِّنت في السنوات الماضية. وسيظل الحكم معلقاً في ضوء الأداء الفعلي والنتائج التي يُرجى أن تكون أكثر حضوراً وأبعد أثراً. ومهما كان من أمر انتخابات أعضاء مجالس إدارات الأندية الأدبية، إلا أنه يجب القول منذ البداية إن خطوة الانتخابات جيدة من حيث العمل بتجربة الانتخابات، وهو المسعى الذي كان لي وزملائي أعضاء مجلس إدارة نادي المنطقة الشرقية الأدبي في الدمام شرف الإلحاح عليه ومطالبة وزارة الثقافة والإعلام بالتسريع بتنفيذه. وقد كان الانتخاب مطلباً لكثير من المشتغلين بالثقافة، وها قد تحققت الجولة الأولى.

من المتوقع، مع كل ذلك، أن تكون هناك سلبيات قبل أي انتخابات وأثنائها في مجتمعنا، فالانتخابات نفسها من حيث الفلسفة والتنظيم والممارسة هي ثقافة في حد ذاتها وتجربة تراكمية تحسن نفسها باستمرار في مجتمع يحترم المساءلة. نتذكر هنا الانتخابات البلدية الأولى حيث امتلأت الساحات بمخيمات القبائل والعشائر، وظهر على السطح أولاد الحمايل ورجال الأعمال والوجهاء والميسورون ينحرون الذبائح وينتخون سراً وعلناً بأهل العزوة والحمية. وحتى الصحافة والإعلام في بلادنا لم تهتم ببرامج المترشحين ووعودهم وتحليلها وتوثيقها بقدر ما ركزت على الإعلانات والصور الفارهة والاحتفالات.

في انتخابات النوادي الأدبية، لم تكن هناك مخيمات وذبائح كرم حاتمي وإعلانات فارهة، ربما لأن المشتغلين بالثقافة مفلسون مالياً معظم الوقت،

* رئيس تحرير الموسوعة العربية العالمية

أو دائماً. لكني لم أقرأ برنامجاً متكاملاً أو منظومة من عناصر النشاط الثقافي لأي عضو مترشح في النوادي الأدبية يعد بها مؤيديه المصوتين أو يلزم بها نفسه.

الثقافة الانتخابية الغائبة

وقد تظهر الامتدادات السلبية للمسألة الثقافية للانتخابات بعد فوز المرشح. فبعد الانتخابات البلدية، لم نقرأ تقييماً أو مساءلات علنية يوجهها الذين انتخبوا لأداء الذين فازوا بالأصوات، ولم نقرأ تقييماً للأداء ونقداً ذاتياً قام به الفائزون. ففي العمل الانتخابي المأمول، يتطلع الذين صوتوا إلى أداء الشخص الذي أكسبوه الموقع المهني بأصواتهم، كما يقدِّم ممثل المنتخبين (أي الشخص الذي فاز بأصوات شريحة من الناس) كشف حساب بالأداء والعقبات والنتائج. وهذه ثقافة انتخابية تتعدى طقوس صندوق الاقتراع، وتنطوي على الإعلاء من القيمة النظرية والعملية لمسائل الالتزام والشفافية والعلنية وتقييم الأداء الفعلي والنقد الذاتي الإيجابي والمتابعة عند كل من الشخص الذي منح صوته ولدى الشخص المترشح الفائز.

لأغراض متابعة الأداء في الساحة الأدبية، أقصى ما هو موجود هو قوائم الإصدارات الأدبية من كتب الشعر والقصة والنقد والرواية وغيرها، وقوائم الفعاليات من أنشطة منبرية كالمحاضرات والندوات، مجرد كشف بالعناوين والنصوص في أفضل الأحوال. ولم نجد قراءات نقدية معمقة من أي نوع لهذا النتاج كأضمومات لها منطق خاص من حيث صدورها أو تحققها في الزمان والمكان. لم نجد، مثلاً، أي رصد لنوعية النتاجات وكميتها في ناد أدبي معيَّن على مدى فترة زمنية معينَّة وخطوطه البيانية النوعية والكمية والتغيرات ذات الصلة عبر المكان والزمان. وأخطر من هذا، أننا لم نجد أية مقاربة لعلاقة هذا النتاج بالحركة الاجتماعية من حيث التأثير والتأثر. إن مقاربة النتائج على الصعيد الثقافي والفكري والسلوكي في المجتمع بعد غائب أو ضعيف لاسيما في مقاربة العمل التربوي والعلمي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي بشكل عام، وليس في مقاربة النشاط الأدبي الإبداعي فحسب.

تمرد المبدع على المؤسسة

الحديث هنا عن العمل الأدبي الثقافي المؤسساتي، بما هو عنوان وممارسات في المؤسسة. ولا بد أن الباحث المدقق، المشتغل بسيسيولوجية الثقافة والإبداع، سيشير إلى أن الإبداع الفريد والاستثنائي المؤثر في العلوم والفنون والآداب وشتى نواحي المجتمع والثقافة لم يكن مرتبطاً ذات يوم في التاريخ بمسألة الانتخابات، أو منطق المؤسسة. فالإبداع العبقري الذي يختط طرقاً جديدة في التفكير والعمل والتأسيس المعرفي والجمالي الجديد، والتأثير الاجتماعي الملموس هو في الغالب فعل معرفي ينبثق من حوار نقدي صارم واحتجاجي على المفاهيم والممارسات السائدة في أي حقل معرفي أو جمالي. وخذ مثلاً أي مبدع له تأثير مستمر في العلوم والفنون والآداب، وستجد أن أعماله المؤثرة هي غالباً اجتراحات لا تتقيد بمنطق المؤسسة في لحظة تاريخية ما، لا على صعيد الرؤية، ولا صعيد المنهج أو الطريقة، ولا على صعيد مقاربة المادة المعرفية أو إعادة بحثها أو اكتشافها، ولا على صعيد اللغة أو التقنيات أو الأدوات. هذا الشذوذ المتفرد هو شرط الإبداع، وهو إشكال دائم بين المؤسسة الضابطة والفرد المبدع، ولا علاقة مباشرة له بالانتخابات كعمل مؤسساتي.

ضرورة العمل المؤسساتي

كيف يمكن لمجتمع متغير كمجتمعنا أن يموضع مسألة الخصوصية الفردية للإبداع وشروط الحرية للمبدع ويوائم بين كل ذلك وبين العمل المؤسساتي الثقافي المنظم والضابط لإيقاع العمل الثقافي، ومن مقتضياته الانتخاب أو الشورى الثقافية الجماعية؟ تلك مسألة في غاية الأهمية والتعقيد، وأظن أن المسألة برمتها تحتاج إلى مقاربات صريحة من المسؤولين والمبدعين على السواء، ولو أن مبدعاً واثقاً من أدواته ورؤاه ومعارفه فلن ينتظر مداولات المسؤولين والتنفيذيين بخصوص الانتخابات، ولن يلتفت كثيراً إلى هذا الإشكال المتصل بسيسيولوجية الإبداع وسيكولوجيته. المبدع أو المبدعة مدفوع إلى العمل فحسب. وفي كل الأحوال، يبقى العمل المؤسساتي الثقافي ضرورة عملية في مجتمع اليوم القائم على التنظيم وتوزيع العمل والأدوار. وعلى المرء الاعتراف بأن تلك المعادلة (معادلة المؤسسة- المبدع- الإبداع) معادلة عويصة، لكن المبدعين الحقيقيين لا ينتظرون الإجابات ولا الانتخابات.

إذاً، لا بد من التعبير عن السرور ولأكثر من سبب بخطوة الانتخابات الأدبية عملاً مؤسساتياً، ولا بد - إلى جانب ذلك- من الإشارة، ولو من بعيد، إلى المسألة الثقافية المتصلة بالانتخابات، فلسفةً وممارسة ونتائج في مجتمعنا، وإلى أن الانتخابات لا تقدِّم ولا تؤخر عند المبدع المسكون بقلق الإبداع والعمل المتفرد.

الأسس الكيميائية والمقاييس الفيزيائية لتصنيف النفط الخام



النفط الخام عبارة عن مزيج معقَّد من عدد كبير من مركبات هيدروكربونية وأخرى غير هيدروكربونية، وعناصر كيميائية مختلفة، ويتفاوت التركيب الكيميائي للنفط نوعياً وكمياً من نفط إلى آخر، إلا أن السمة المشتركة التي تربط بين معظم المركبات الداخلة في تركيبة هي وجود ذرات الكربون والهيدروجين، ويمكن القول إن اختلاف خواص النفط ينبع من القدرة المتميزة لعنصر الكربون على الاتحاد مع العناصر الأخرى، ليشكل تكوينات جزيئية بسيطة أو معقدة.

المهندس أمجد قاسم، عضو الرابطة العربية للإعلاميين العلميين، يتناول هنا الأسس الكيميائية والمقاييس الفيزيائية لتصنيف النفط الخام، وما يميز كل صنف منها عن الآخر.

Corbis

منصة بترول بحرية



تقسم مكونات النفط إلى صنفين أساسيين هما البارافينات Paraffins والنافثينات Naphthenes، فالبارافينات هي مركبات هيدروكربونية ذات سلاسل كاملة الاستقامة تسمى بالبرافينات العادية paraffins أو برافينات متفرعة iso – paraffins.

وتتكون من أعداد متنوعة من ذرات الكربون والهيدروجين، أما النافثينات فتتميز بتركيبها الكيميائي الحلقي Ring compounds، وقد تتكون من حلقة أو أكثر وأساس تركيبها الكربون والهيدروجين، إلا أن النفط يتكون أيضاً من عدد آخر من المركبات غير الهيدروكربونية، كمركبات الكبريت ومركبات النيتروجين ومركبات الأوكسجين وبعض مركبات المعادن كالفاناديوم والنيكل والحديد وعناصر أخرى كالكالسيوم والصوديوم والمغنيسيوم بالإضافة إلى بعض الأملاح والماء، وتكسب هذه المركبات أنواع النفط اختلافات مهمة، وتحدد بالتالي جودته وطرق التعامل الكيميائي معه.

تصنيف النفط الخام حسب تركيبه الكيميائي

يُعد التركيب الهيدروكربوني أساساً للتصنيف الكيميائي للنفط الخام، ويتم تحديد ذلك بعد إجراء عملية تقطير بسيطة لعيِّنة منه عند درجات حرارة مختلفة، وقد صنف النفط الخام إلى ثلاثة أصناف رئيسة هي:

1 – نفط برافيني الأصل: ويتكون هذا النوع من النفط من الهيدروكربونات البرافينية، وهو خالٍ أو يكاد يكون خالياً من المواد الإسفلتية، ويعطي هذا النوع من النفط كميات جيدة من الشمع البرافيني وزيوت التزييت عالية الجودة.

2 – نفط نفثيني الأصل: ويتألف هذا النوع من النفط من النفثينات ومن نسبة عالية من المواد الإسفلتية، ويحتوي على كميات قليلة من شمع البارفين أو يكاد يخلو منها، ولإنتاج زيوت التزييت من هذا الخام لتكون بكفاءة الزيوت التي يتم إنتاجها من الخامات البرافينية الأصل، يستلزم إجراء معالجات كيميائية خاصة.

3 – نفط مختلط الأصل: ويتكون هذا النوع من النفط من مزيج من البرافينات والنفثينات ونسبة قليلة من المركبات العطرية ويحتوي على مقادير متفاوتة من شمع البرافين والمواد الأسفلتية.

تجدر الإشـارة إلـى وجود تداخـل بين هذه الأصـناف من النفط، وأن النسبة الأكبر من النفط الخام في العالم تكون من النوع المختلط الأصل.

أما مكتـب المناجم الأمريكي فقد اعتمد تصـنيفاً خاصـاً للنفـط، يعتمد أيضـاً على التركيـب الكيميائـي للمنتجات الموجودة فيه، وهذا التصنيف هو:

1 – بارافينية / بارافينية: وتكون المنتجات النفطية سـواء الخفيفة والمتوسـطة والثقيلة مـن النوع البرافيني، أي إن تركيبها الكيميائي على شكل سلاسل.

2 – نافثينيـة / نافثينيـة: وتكـون المنتجـات الخفيفـة والمتوسـطة والثقيلة من النفط فـي معظمها نافثينية، أي على شكل حلقات.

3 – بارافينيـة / نافثينية: وتكون معظم المنتجات الخفيفة بارافينيـة، أمـا المنتجـات المتوسـطة والثقيلة فتكون نافثينية.

4 – نافثينيـة / بارافينيـة: وتكـون المنتجـات الخفيفة في معظمهـا نافثينية، أمـا المنتجات المتوسـطة والثقيلة فتكون في معظمها بارافينية.

هذا ويبين الجدول التالي تصنيفاً للنفط الخام حسب نسبة كل من البارافينات والنفثينات والإسـفلت فيه، والذي قلما نجد نفطاً خاماً ينطبق عليه هذا التصنيف بشكل دقيق:

	نوع النفط الخام	نفط خام بارافيني	نفط خام نفثيني	نفط خام إسفلتي
نسبة الهيدروكربونات ٪	بارافينات	40	12	5
	نفثينات	48	75	15
	عطريات	10	10	20
	اسفلتينات	2	3	60

مـن جهة أخـرى، فقد تـم ابتـكار مقيـاس كيميائـي آخر لتصـنيف النفـط الخام، يعتمـد على نسـبة الكبريت فيه، نظـراً لأثـره الكبير علـى تـآكل المعـدات والتجهيزات في مصـافي تكريـر النفط وقدرتـه العالية على تلويـث الهواء الجوي، وفي العادة تتراوح نسـبة الكبريـت (بالوزن) من تقريباً صفر إلى 6%.

وبناء عليه تم تصـنيف النفـط الخام إلى نفط حلو Sweet تكون نسـبة الكبريت فيه منخفضـة، ونفط حمضـي أو مر Sour تكون نسـبة الكبريت فيه عالية، وترتفع جودة النفط كلما انخفضت نسبة الكبريت فيه، إذ إن احتواء الخام على عنصـر الكبريت بنسـبة عالية يتطلب معاملات ومعالجات كيميائية خاصة في مصافي التكرير. ويبين الجدول التالي نسبة الكبريت في بعض خامات النفط المختلفة:

النفط الخام	البلد	نسبة الكبريت
صحراوي	الجزائر	0.04
بنسلفانيا	الولايات المتحده الامريكية	0.10
يومين	الصين	0.18
رومانيا	رومانيا	0.20
كنساس	الولايات المتحدة الأمريكية	0.40
سدر	ليبيا	0.50
عربي خفيف	المملكة العربية السعودية	1.40
آغا جاري	ايران	1.40
ايراني ثقيل	ايران	1.60
كركوك	العراق	2.00
كويتي	الكويت	2.50
مكسيكي	المكسيك	5.34
بوسكان	فنزويلا	5.50

كذلـك يتـم قياس نسـبة الأمـلاح Salt content في النفط الخام، ويعبر عنها بكمية كلوريد الصـوديوم، فإذا زادت عن (0.001 lb/bbl) فإن ذلك يؤثر على سـعر النفط الخام، إذ إن وجـود الأمـلاح في النفط يـؤدي إلى تكوين ترسـبات في الأنابيـب الناقلة له وحدوث انخفاض في الضـغط، كما يؤثر على عمل المضخات ويتسبب في تآكل المعدات وهذا يتطلب إزالة تلك الأملاح قبل إخضاع الخام لعمليات التكرير.



Corbis

نفط خام متسرِّب من ناقلة نفط أدَّى إلى تلوث البيئة البحرية



Corbis

نفط خام

Corbis

المنشآت النفطية.. دورها أساسي في تصنيف النفط

تصنيف النفط الخام حسب المقاييس الفيزيائية

بالرغم من أهمية التصنيف الكيميائي للنفط، سواء ما كان مبنياً على أساس وجود البارافينات والنفثينات، أو ما كان له علاقة بنسبة وجود الكبريت في الخام، إلا أن تعدد أنواع النفط والتي تصل إلى 160 نوعاً، فرضت اعتماد مقاييس فيزيائية للنفط نذكر منها:

1 - الكثافة النسبية والوزن النوعي

تتعدد التعبيرات المستخدمة للتعبير عن الكثافة والوزن النوعي، وهي في مجملها تشير إلى النسبة بين كتلة الجسم (وزنه) إلى حجمه، فالكثافة النسبية تدل على نسبة كثافة المادة المختبرة (النفط الخام) على درجة حرارة 25 سلسيوس إلى كثافة الماء على درجة 4 درجة سلسيوس (عند هذه الدرجة من الحرارة يكون للماء أعلى كثافة)، ففي مثل هذه الظروف الفيزيائية تتساوى الكثافة النسبية مع الوزن النوعي النسبي. ومعرفة كثافة النفط الخام مهمة جداً، إذ إن النفط الذي يحتوي على قطفات منخفضة الغليان تكون كثافته منخفضة، ويؤدي وجود الراتنجات والأسفلتينات إلى زيادة كثافة النفط، وتتراوح كثافة النفط في الغالب بين 0.82 غم/سم^3 و 0.9 غم/سم^3 وقد تنخفض إلى 0.75 وقد تصل إلى واحد، وتدل كثافة النفط على تركيبه بشكل تقريبي.

يتم تحديد التصنيف الكيميائي للنفط بعد إجراء عملية تقطير لعيِّنة منه عند درجات حرارة مختلفة

2 - الوزن الجزيئي الغرامي

يعرف الوزن الجزيئي الغرامي للمركب الكيميائي بأنه مجموع أوزان الذرات المكونة له مقدراً بوحدات الأوزان الذرية، ويتوقف الوزن الجزيئي للنفط ولقطفاته، على الوزن الجزيئي للمركبات الداخلة فيه وعلى النسبة فيما بينها، ونظراً لأن النفط الخام يتكون من عدد كبير من المركبات بعضها معقَّد التركيب، لذلك لا يمكن تحديد الوزن الجزيئي الغرامي له بدقة، بل يتم حساب ما يعرف بالوزن الجزيئي الغرامي المتوسط ، ويزداد الوزن الجزيئي الغرامي لقطفات النفط بارتفاع درجة غليانها.

3 - اللزوجة (الاحتكاك الداخلي للسائل)

اللزوجة هي مقاومة السائل لإزاحة إحدى طبقاته بالنسبة لطبقة أخرى تحت تأثير قوة خارجية، وهي مقياس لمدى مقاومة الزيت للسريان. وتتعدد تعاريف اللزوجة، فمنها الدينامية Dynamic والكينماتية Kinematic وهي النسبة

بين اللزوجة الديناميـة والكثافة النسـبية للسائل عند درجة الحـرارة نفسـها، وارتفـاع اللزوجة مؤشـر علـى الطبيعة الغرويـة للنفـط أمـا انخفاضـها فهو مؤشـر على سـيلان النفـط وانخفاضـ درجـة غليانـه، وعند حسـاب اللزوجة للنفط ، تحسب في العادة بواسطة جهاز اللزوجة Saybolt universal viscometer والـذي يقيـس الزمـن بالثوانـي اللازم لتدفق عينة من الزيت مقدارها 60 مل موضوعة في أنبـوب، والتدفق يكون من خـلال ثقب في قاع ذلك الأنبوب عند درجة حرارة (F0 , 130 F0 , 210 F0 100)، وتسجل القيمة بوحدة Saybolt universal seconds , SUS. وتجدر الإشـارة إلى أن انخفاض اللزوجة يُعد ميزة تجارية للنفط الخام ومؤشـراً مهماً على مواءمتـه للنقل في الأنابيب، كما يعطي دلالة أولية على طرق معالجته كيميائياً في مصـافي التكريـر، ونظـراً لأهميـة معرفـة لزوجة النفط، تم وضـع دليـل خاص باللزوجة Viscosity Index والذي يسـتند إلى مخططـات بيانية على أسـاس معرفة مقـدار اللزوجة عند بعض درجات الحرارة.

وضعت منظمة الدول المصدرة للنفط أوبك نظاماً مرجعياً خاصاً بها، عرف بسلة أوبك والتي تضم مجموعة من خامات النفط

4 - الخصائص الضوئية ومعامل الانكسار

للون النفط أهمية خاصـة في معرفة نسـبة الراتنجات والاسفلتينات في النفط الخام، ويتـراوح لون النفط الخام مـن اللون البني الغامق حتى اللون الأسـود وذلك في الأنواع التي تحتوي على نسبة مرتفعة من الإسفلت والمركبـات الكبريتيـة. ويتـم تقديـر لـون النفط بواسـطة جهاز قياس الشـدة اللونية Colorimeters، حيـث تتـم مقارنـة عينـة النفط مدار الدراسـة مع مجموعة من المحاليل القياسـية ذات الألوان المختلفة.

كذلك من ضـمن القياسات الضوئية للنفط، اختبار معامل الانكسار، حيث إن مرور شعاع ضوئي بين وسطين مختلفين يـؤدي إلـى تغيـر في اتجـاه ذلك الشـعاع، ويعـرف معامل الانكسـار بأنه النسـبة بيـن زاوية سـقوط الشـعاع وزاوية الانكسار، ونظراً لاحتواء النفط الخام على مجموعة كبيرة من المركبات الهيدروكربونية فإن معامل الانكسـار يختلف من نوع نفط إلى آخـر، فالهيدروكربونات البارافينية يكون معامل انكسـارها قليلاً، يليهـا الهيدروكربونـات النفثينية ثم الأروماتية، وبشـكل عام يزداد معامل الانكسـار بازدياد الوزن الجزيئي للهيدروكربونات.

5 - نقطة الانسكاب

تسـتخدم نقطة الانسكاب Pour point لمعرفة تركيز المـواد البارافينيـة أو الأروماتيـة في النفـط الخام، وكلما كانت هذه الدرجة عالية كانت نسبة البارافينات كبيرة.

6 - دليل العلاقة

تم وضـع دليل العلاقـة Correlation Index ، CI بناءً على أن البارافينات المسـتقيمة لها دليل علاقة يسـاوي صفرا، أمـا البنزين العطري فلـه دليل علاقة يسـاوي 100، وكلما كان هذا الدليل منخفضاً كان النفط بارافيني الأساس، أما إذا كان الدليـل كبيـراً فإن النفط يكـون أروماتي أو نفثيني الأساس.

7 - الكربون المتبقي

تُعد نسبة الكربون في النفط الخام، أحد أهم المعايير التـي يتـم بموجبهـا الحكم علـى مدى جـودة النفط، ولتعييـن الكربـون المتبقـي Carbon Residue يتـم تقطيـر عيِّنة من النفـط الخام تقطيـراً كاملاً بغياب الهـواء، وما يتبقى من كربـون يدل على محتوى النفط الخام من الإسـفلت ومدى إمكانية اسـتخلاص زيوت التزييـت منه، وكلما كان الكربـون المتبقي قليلاً تكون قيمة النفط أفضـل، ويسـمى هـذا الاختبـار باختبار كونرادسون Conradson test.

مقاييس تجارية لتصنيف النفط الخام

أدى ازدهـار تجارة النفط في العالـم، إلى اعتماد عدد من المقاييس التجارية والتي تهدف الى تسهيل عملية تصنيف النفـط الخام، وتقلـل الحاجة إلى إجـراء عمليات التحليل الكيميائيـة المعقـدة والباهظـة التكاليف، ومـن أهم تلك المقاييس التجارية نذكر:

أ) مقيـاس درجة الـوزن النوعـي لمعهد النفـط الأمريكي (American Petroleum Institute API) حيـث يتـم قيـاس هـذه الدرجـة لأي نفـط إذا عرف وزنـه النوعي والذي يتناسـب عكسـياً مع هـذه الدرجة كمـا تحددها العلاقة التالية:

$$API=\left(\frac{141.5}{sp.gr}\right)-131.5$$

ودرجـة API تتـراوح بين 10 و50، وفي معظـم أنواع خام النفط تنحصر القيمة بين 20 و45، وهذا المقياس يحدد سـعر النفط الخـام، فإذا ارتفعت درجـة API، فإن ذلك يعنـي أن النفط خفيـف، وبالتالي تكون قيمتـه التجارية مرتفعـة، علمـا بأن هـذا المقياس يسـتخدم بالإضـافة للبترول الخام للمشـتقات النفطية وخصوصـاً القطفات الثقيلة.

ب) معامل التصنيف K.U.O.P

توصل الباحثون في شركة يونيفرسل أويل Universal Oil Products إلى علاقة بين نوع الهيدروكربونات الموجودة في النفط الخام ونسبتها من ناحية والكثافة النوعية للخام ودرجة غليانه المتوسطة من ناحية أخرى، وهذه العلاقة عرفت باسم معامل التصنيف K.U.O.P، ويتراوح هذا المعامل بين 10.5 للخامات النفثينية الثقيلة و 12.9 للخامات البارافينية الخفيفة، ويبين الجدول التالي بعض أنواع النفط العربي وقيم API و K.U.O.P لها:

يُعد خام برنت من أشهر خامات النفط القياسية ويستخدم لتسعير ثلثي إنتاج النفط في العالم

مصدر النفط	الكويت (الكويت)	الدمام (السعودية)	كركوك (العراق)	ماسي مسعود (الجزائر)	زرزايتين (الجزائر)
درجة API	31.4	34.9	36.6	43.1	41.3
معامل KUOP	11.93	11.94	11.92	11.9	12

خامات النفط القياسية

يختلف النفط في طبيعته من مكان إلى آخر، نظراً لاختلاف نسبة الهيدروكربونات الداخلة في تركيبه، وكذلك تفاوت نسبة بعض المواد الكيميائية الأخرى الموجودة فيه كالكبريت والنيتروجين والأملاح وغيرها من العناصر والمركبات، وقد استخدمت لتصنيف أنواع النفط المختلفة ولتسهيل تسعيرها بعض خامات النفط القياسية، كخام برنت وخام وسيط غرب تكساس، حيث يتم تسعير النفط الخام، بناءً على مدى اختلافها عن تلك الخامات القياسية سواء من ناحية الكثافة أو الحموضة أو غيرها من المؤشرات الفيزيائية المختلفة.

ويُعد خام برنت Brent من أشهر خامات النفط القياسية، ويستخدم لتسعير ثلثي إنتاج النفط في العالم، ويتكون هذا الخام من مزيج نفطي من 15 حقلاً نفطياً مختلفة في منطقتي برنت ونينيان في بحر الشمال، وهاتان المنطقتان تنتجان نحو 500 ألف برميل من النفط يومياً، ويتميز خام برنت بأنه من أنواع النفط الخفيفة ووزنه النوعي يبلغ 0.835 درجة، كما أن نسبة الكبريت فيه منخفضة وتبلغ نحو 0.37%، أما درجة API له فحوالي 38.06، ويباع هذا الخام في الأسواق العالمية بسعر أعلى قليلاً (نحو دولار أمريكي) عن سلة نفط أوبك وبسعر أقل (نحو دولار أمريكي) عن خام وسيط غرب تكساس.



Corbis

إحدى ناقلات النفط في البحار المفتوحة

أما خام وسيط غرب تكساس West Texas) Intermediate WTI)، فيبلغ وزنه النوعي 0.827 درجة وهو نفط خفيف ونسبة الكبريت فيه قليلة وتبلغ نحو 0.24%، ودرجة API له بحدود 39.6، ويستخدم هذا الخام بشكل أساسي لإنتاج الجازولين في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو من أحد خامات النفط القياسية التي تستخدم لتسعير الخامات الأخرى خصوصاً في أمريكا الشمالية.

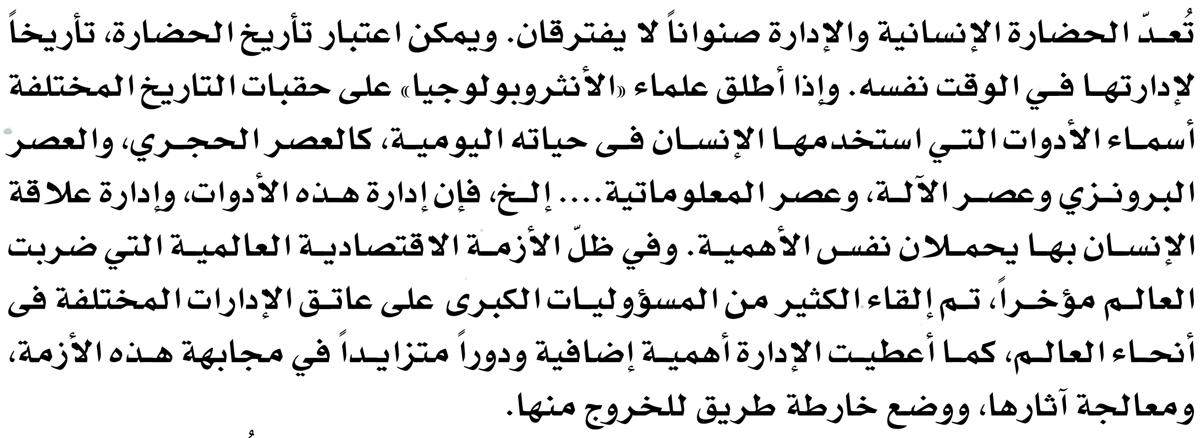
أما منظمة الدول المصدِّرة للنفط أوبك (OPEC) فقد وضعت نظاماً مرجعياً خاصاً بها، عرف بسلة أوبك (The OPEC Reference Basket ORB)، والتي تضم مجموعة من خامات النفط، وهذه الخامات هي، الخام العربي السعودي الخفيف، وخام مربان الإماراتي، وخام صحارى الجزائري، وخام التصدير الكويتي، وخام البصرة الخفيف العراقي، والخام البحري القطري، وخام السدر الليبي، والخام الإيراني الثقيل، وخام بوني الخفيف النيجيري، وخام جيراسول الأنجولي، وخام ميري الفنزويلي، وخام أورينت من الأكوادور.

ويلاحظ أن سلة أوبك، هي مزيج من عدد من أنواع النفط الخفيفة والثقيلة، وبالتالي فإن سعرها في العادة يكون أقل من سعر خام برنت وخام وسيط غرب تكساس.

من عهد السومريين قبل 6 آلاف سنة إلى «الإدارة الافتراضية»

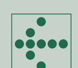
رحلة في تشكيل الإدارة





تُعدّ الحضارة الإنسانية والإدارة صنواناً لا يفترقان. ويمكن اعتبار تأريخ الحضارة، تأريخاً لإدارتها في الوقت نفسه. وإذا أطلق علماء «الأنثروبولوجيا» على حقبات التاريخ المختلفة أسماء الأدوات التي استخدمها الإنسان في حياته اليومية، كالعصر الحجري، والعصر البرونزي وعصر الآلة، وعصر المعلوماتية.... إلخ، فإن إدارة هذه الأدوات، وإدارة علاقة الإنسان بها يحملان نفس الأهمية. وفي ظلّ الأزمة الاقتصادية العالمية التي ضربت العالم مؤخراً، تم إلقاء الكثير من المسؤوليات الكبرى على عاتق الإدارات المختلفة في أنحاء العالم، كما أعطيت الإدارة أهمية إضافية ودوراً متزايداً في مجابهة هذه الأزمة، ومعالجة آثارها، ووضع خارطة طريق للخروج منها.

أمين نجيب، يتناول في هذا المقال، تاريخ نشوء الإدارة، ومراحل تشكُّلها وتطورها عبر العصور، وتطور مفاهيم الإدارة الحديثة، ومستويات الإدارة، ووظائفها، متوقعاً أن يعبر العالم في المستقبل القريب إلى عصر الإدارة الفعَّالة والمتطورة والمتجددة لتجاوز المآزق الخطيرة التي تواجهها.



لمحة تاريخية

في العالم القديم، تحديداً في بلاد ما بين النهرين، منذ أكثر من ستة آلاف سنة، وفي العهد السومري، شكّل إنشاء وإدارة قنوات الريّ وتوزيعها، الإرهاصات الأولى لنشوء المدن والممالك والدول. وتوجد في تلك الفترة الكثير من المدونات الفخارية التي تسجل عقود بيع وشراء ومعاملات مختلفة.

لكن لم يتم تناول موضوع الإدارة بشكل مستقل إلا في فترات لاحقة. فالكتابة الأولى ظهرت في الصين منذ ألفين وستمائة سنة. فقد ظهر في تلك الفترة كتاب «صن تسو» الشهير حول إدارة الحروب تحت عنوان «فنّ الحرب». ويشدد فيه على أهمية العمل الاستراتيجي على ضعف وقوة كلا طرفي الحرب.

ظهر بعد ذلك بحوالي ثلاثمائة عام «الأرثاذ استرا» في الهند، على يد المعلم الكبير «شاناكيا» الذي أُطلق عليه في الغرب تعبير «ماكيافللي الهند». وهو الكاتب الذي عالج وكتب عن نظريات واستراتيجيات عدة لإدارة شؤون الإمبراطورية والاقتصاد والعائلة.

لاحقاً، ظهر في فلورنسا كتاب «الأمير» لنيكولو ماكيافيللي سنة 1513. وفي القرن الثامن عشر كتب «آدم سميث» كتابه المشهور «ثروة الأمم». لكن شؤون الإدارة لم تجد طريقها إلى الجامعات والأكاديميات إلا في بدايات القرن العشرين. حين أنشأت جامعة هارفارد أول كلية لإدارة الأعمال في عشرينيات القرن الماضي.

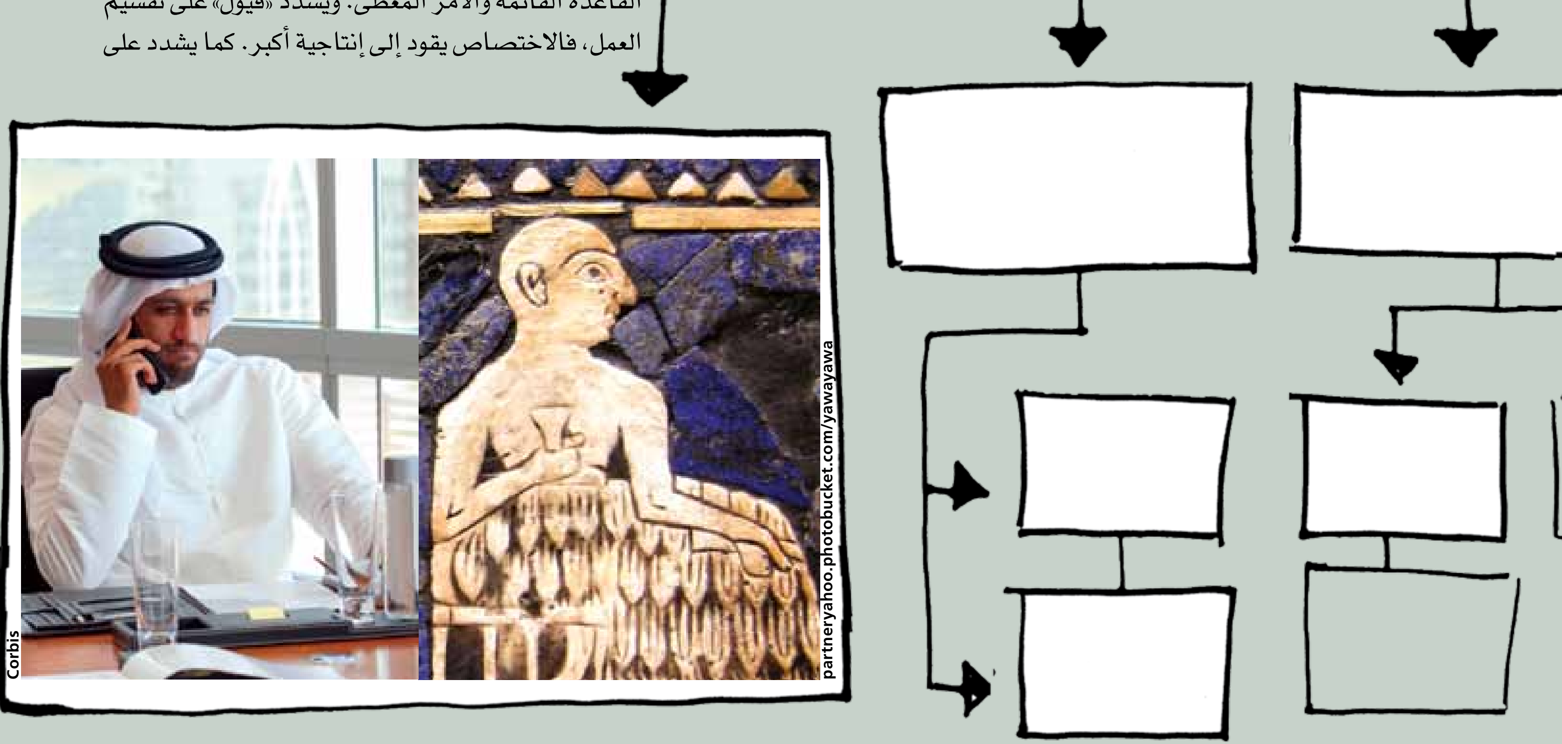
مقاربات الإدارة الحديثة

هناك عدة مفاهيم ومقاربات رئيسة حول الإدارة الحديثة:

1 - المقاربة التقليدية:

ويعبِّر عنها الأمريكي «فريدريك وينسلو تايلور»، «20 مارس 1856 – 21 مارس 1915» الذي حاول تناول الإدارة من زاوية علمية، والنظر إلى العمل عبر ملاحظات منهجية بديلاً عن الطريقة التي كانت معتمدة على التقدير أو الحدس أو القياس على ما سبق، والاعتماد على التكهن الشخصي. وتقوم طريقة تايلور على إيجاد «أفضل الطرق» لتحسين فعالية العمل. عندئذ تقوم الإدارة باختيار شخص من «الطراز الأول» الذي يتمتع بمؤهلات علمية وجسدية عالية وتمرينه بمنهجية لاستعمال «الطريقة الفُضلى» لإنجاز المهمة، إنه «المدير». وشدد تايلور على الفصل بين دور الإدارة التي هي التخطيط والتنظيم عن التنفيذ الفعلي للعمل.

كما يعبِّر عن بعض هذه المقاربة، العالم الفرنسي «هنري فايول»، «1841– 1925». تقوم أولاً على التوقع والتخطيط من خلال دراسة المستقبل ورسم خطة العمل. بعدها يأتي تنظيم البنية العامة، والمواد المطلوبة، والأشخاص المناسبين. ثم إعطاء الأوامر بما يسميه «تخمير النشاط داخل العاملين»، يليه التنسيق لتوحيد وتناغم الجهود. وأخيراً السيطرة للتأكد من أن كل شيء يسير حسب القاعدة القائمة والأمر المُعطى. ويشدد «فيول» على تقسيم العمل، فالاختصاص يقود إلى إنتاجية أكبر. كما يشدد على



partneryahoo.photobucket.com/yawayawa

Corbis



وحدة الأوامر، فالمرؤوس له رئيس واحد. والعاملون جميعاً لهم نفس الهدف، وتغليب مصلحة المؤسسة على مصلحة الأفراد العاملين الذين يجب أن يتلقوا أجوراً عادلة لتشكل دوافع للعمل. أما درجة المركزية أو اللامركزية فيجب أن تكون ملائمة للمؤسسة والعاملين فيها دون المسّ بتراتبية الأمر، حيث يجري باتجاه عمودي مع مراعاة اللطف والعدالة بمعاملة الموظفين لتشجيع المبادرات الفردية ضمن الخطة الموضوعة من فوق. ويساعد على ذلك الحيازة على عمل دائم ومستقر للعاملين، وذلك يؤدي إلى رفع معنوياتهم وروح العمل الجماعي فيما بينهم.

2 - العلاقات الإنسانية:

أما أحد أبرز رواد هذا الاتجاه فهو «ألتون مايو»، «26 ديسمبر 1880 – 7 سبتمبر 1949» الذي ينطلق من مبدأ أن الإنسان يتحرك أساساً بدوافع اجتماعية. فالشعور بالرضا في مكان العمل مصدره العلاقات الاجتماعية بين العاملين وليس العمل نفسه. وبالتالي فإن العمل ضمن المجموعة هو الذي يؤثر على العامل وليست الحوافز أو الرقابة من قبل المديرين. والمدير الناجح في رأيه هو من يؤمن الحاجات الاجتماعية لمرؤوسيه.

3 - نظرية النظم:

تنظر هذه المقاربة إلى المؤسسة ككل على أنها نظاماً رئيساً يحتوي على مجموعة من النظم الثانوية المتفاعلة تفاعلاً عضوياً فيما بينها. وبما أن هذه النظرية لا تقتصر على علوم الإدارة فقط، بل أخذت تتسع وتنداح إلى كافة العلوم والتخصصات. فهي تحاكي في وجودها الكثير من النظم الطبيعية التي تتسم بذاتية التنظيم وذاتية التصحيح، كالنظام الفيزيولوجي في جسم الإنسان، أو بعض الأنظمة البيئية والأيكولوجية في الطبيعة، أو في خاصية الإنسان المتعلقة بالتعلم. وبهذا المعنى فالمؤسسة هي عائلة من العلاقات بين أعضاء معينين يعملون جميعاً وكأنهم عضو واحد.

4 - النظرية الظرفية:

المفهوم الأساسي في هذه المقاربة هو أنه ليس هناك طريقة واحدة أو فُضلى لتنظيم أية مؤسسة أو شركة. كما أنه ليس هناك ما يسمى «القاعدة» لأخذ القرارات. بدلاً من ذلك فإن أخذ القرار أو الموقف أو الخطة، يؤخذ بطريقة طارئة غير معدة سلفاً. فهو يعتمد على الظروف الداخلية والخارجية المتبدلة باستمرار. ويقول «كارث مورغن» في كتابه «صور المؤسسة» إن المقاربات القديمة فشلت لأنها نسيت أن الإدارة وبنية المؤسسات تتأثر تأثراً عميقاً بكافة خصائص البيئة، التي هي خصائص طارئة بطبيعتها. فالمؤسسات على أنواعها هي أنظمة مفتوحة على التغيير الدائم وتحتاج إلى إدارة قابلة للتكيف مع ظروف البيئة. فليست هناك طريقة فُضلى بل طريقة مناسبة، قد تصبح غير مناسبة عند تغير الظروف.

ويشدد «فريد فيدلر»، «مواليد 1922» على القيادة الفعالة التي تعتمد على العلاقة بين أسلوب القيادة، أي هل تؤخذ القرارات بطريقة فردية أو جماعية، وماهو أفضل للوضع القائم.

5 – النمط الظاهري، «فينوتايب»

وتُعد هذه المقاربة الأكثر حداثة في القرن الواحد والعشرين. فهي تحاكي بعض الخصائص الظاهرية لأعضاء الجسم. ففي علم الجينات تستمد الخصائص وظيفتها من التركيبة الجينية نفسها مضافاً إليها تأثير البيئة حولها. والمقصود بهذه المحاكاة هو أن سلوك الموظفين الناتج عن وضعهم في بنية المؤسسة مضافاً إليه سلوكهم الموروث من بيئتهم الاجتماعية هو ما يشكل بنية المؤسسة. فالشركة أو المؤسسة أو حتى الدولة لم تعد مكاناً يأتي إليه الناس للعمل، بل أصبحت هي الفضاء الذي يمنحهم الشعور بالهوية والانتماء. وأصبحت المؤسسة قريتهم وكيانهم. ولم تعد شركة القرن الواحد والعشرين، مجرد علاقات بشرية تراتبية تهدف فقط لأقصى قدر من الكفاءة والربح، بل أصبحت مجتمعهم الذي ينتمون إليه ويكبرون فيه معاً، وحيث تنمو مشاعرهم وقدراتهم الإبداعية.

وقد نتج عن التغيرات الكبيرة الحاصلة في المجتمع والعائلة ومكان العمل مشكلات مستعصية في بيئة العمل نفسه لا يمكن مقاربتها إلا بما يدعوه «توماس كوون»، «18 يوليو -1922 17 يونيو 1997» «قفزة مفهومية».

ويقول «جوزيف كريني» في مقالة له مؤخراً في مجلة «بيزنس ويك» إن هناك حوالي مليونين من المرضى الأمريكيين الذين سيصابون بالعدوى من قبل الذين يعالجونهم في المستشفيات، ويمكن تفادي معظم تلك الإصابات إذا استطاعت إدارات المستشفيات المختلفة إقناع العاملين فيها بغسل أياديهم باستمرار. فأي مدير يستطيع بالطرق السابقة أن ينجز ذلك؟.

6 - المفهوم الافتراضي:

يُعد الكثير من العلماء أن الإنترنت هو الجهاز الإداري الأساسي للعولمة. وقد انتشرت العولمة، ومعها الإنترنت، إلى أربع زوايا الأرض. وإذا أضفنا إلى ذلك وسائل الاتصالات الأخرى التي تعتمد على الأقمار الصناعية من فضائيات وهواتف وغيرها. فقد أدى ذلك إلى نشوء ما يسمى بـ«التكنوثقافة» وانتشارها بشكل لا سابق له في التاريخ. وقد رافق ذلك تغييرات في كثير من المفاهيم والاعتقادات الراسخة منذ عقود كثيرة، ومنها ما يتعلَّق بعلم الإدارة.

يشدد «فريد فيدلر»، على القيادة الفعالة التي تعتمد على العلاقة بين أسلوب القيادة، أي هل تؤخذ القرارات بطريقة فردية أو جماعية، وماهو أفضل للوضع القائم.

خلال قراءة هذا المقال، يجلس أمام شاشات الكمبيوتر ملايين الأشخاص، يقومون بأعمال مالية وتجارية وثقافية ولهو أيضاً، تقدَّر قيمتها بمئات المليارات من الدولارات مستخدمين برامج ذاتية الاستجابة، لا يقف على الطرف الآخر منها أي شخص آخر مباشرة.

ولإعطاء صورة حديثة وواقعية عن العالم الافتراضي، نشير إلى ما أعلنته موسوعة «ويكيبيديا»، التي هي أكبر موسوعة على الشبكة، أنها الرقم 5 في سلم أكثر المواقع استخداماً. إذ تخدم 420 مليون شخص كل شهر، حيث يتصفحون مليارات الصفحات. لكن عدد العاملين فيها الذين يقومون بهذا العمل الجبار هم 73 فقط.

مستويات الإدارة

هناك ثلاثة مستويات للإدارة في معظم المؤسسات والشركات:

أ - المستوى الأعلى: ويضم مجلس الإدارة الذي ينتخبه عادة المساهمون أو الأعضاء، ويكون قابلاً للمساءلة من قبلهم. كما ينتقي المجلس نفسه أحياناً أعضاء جدداً. ويتم انتخاب أعضاء المجلس لعدة سنوات. بعد ذلك يُنتخب أعضاء قليلون كل سنة بحيث يصبح من الصعوبة بمكان تغيير المجلس برمته دفعة واحدة. وعادة يكون العضو في هذا المجلس إما من أصحاب المصلحة المكتسبة أو من المسؤولين الكبار في الشركة أو من المعروفين في أوساط رجال الأعمال الناجحين. ويتوقف عدد أعضاء المجلس على طبيعة المؤسسة وحجمها. «والت ديزني» مثلاً لها ستة عشر عضواً، بينما «تيفاني ومشاركوه» لهم ثمانية أعضاء.

المسؤولية الأساسية لأعضاء المجلس هي حماية أموال المساهمين، والتأكد من حصولهم على أفضل العائدات. لكن المشاعر تختلف في بعض البلدان الأوروبية حيث يتم التركيز على مصلحة الموظفين أولاً.

إن مجلس الإدارة هو أعلى سلطة في التراتبية الإدارية داخل أية مؤسسة. ومن مهامه الأساسية اختيار المديرين التنفيذيين وتقييمهم وإعطائهم مكافآت مناسبة. كما أنه يضع التوصيات بما يتعلق بالسياسات المالية، وهو يوافق على البيانات المالية ويوصي أو يحذِّر من الاندماج أو شراء شركات أخرى. كما يقوم بالتأكد من استقلالية المديرين.

ودائماً ما تكون استقلالية المديرين محل امتحان، فبحسب استطلاع أجري في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 2002م، تبيَّن أن حوالي 50% من المديرين، هم مستقلون تماماً. وفي نفس السنة، نشرت شركة «جنرال موتورز» تقريرها السنوي الذي عالج مسألة استقلالية المديرين. وكانت النتيجة أن 11 مديراً من أصل 17 كانوا فعلاً مستقلين بتعريفات صارمة.

كما أن من مسؤوليات مجلس الإدارة تشكيل لجان مساعدة، منها لجنة تدقيق يعمل معها ويختارها من خارج المؤسسة لتتأكد من صحة البيانات المالية ودقة توقعاتها. ويؤلف مجلس الإدارة لجنة التعويضات والمكافآت والجوائز والمحفزات للمديرين التنفيذيين. وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من مجالس الإدارة وقعت تحت نيران كثيفة من النقد بسبب تخصيص مبالغ ضخمة كمكافآت للمديرين التنفيذيين لا تتناسب مع الواقع.

أما مهمة هذا المجلس، فهي التالية:

أ - اتخاذ القرارات المتعلقة بالشركة ككل.

ب - وضع أهداف المؤسسة.

ج - وضع الخطط والاستراتيجيات التي تكفل تحقيق الأهداف.



د - الأعضاء مؤتمنون على أموال المستثمرين والمساهمين.
هـ - الأعضاء مسؤولون عن تأمين الموارد للمؤسسة.
و - كما أنهم مسؤولون عن الإنجاز النهائي للمؤسسة.
ز - ومسؤولون عن إيجاد البيئة الداخلية والخارجية الملائمة لازدهار المؤسسة.
ح - ويجب أن يتمتع أعضاء مجلس الإدارة بمؤهلات سياسية لتأسيس اتصالات اجتماعية وإنشاء قاعدة قوية.
ط - كما يتعين أن يتمتع العضو بقدرات فكرية تخوله تحليل مواقف معقدة ربما تستجد في أي لحظة لاتخاذ القرار المناسب.
ي - وأن يمتلك القدرة على إقامة علاقات شخصية لتحفيز وتعليم وتشجيع الآخرين.
ق - القدرة على تشخيص المشكلة ورؤية الحل المناسب لها.
ل - أعضاء مجلس الإدارة يتمتعون بقدرات فكرية أعلى وتقنية أقل.

ب - المستوى المتوسط: ويتم اختياره من قبل مجلس الإدارة. ويضم المديرين العاملين ومديري الفروع ومديري الأقسام. ويقع تحت مساءلة المستوى الإداري الأعلى، وهم صلة الوصل بين المستوى الأعلى والمستوى الأدنى.
ووظيفة الإدارة الوسطى هي:
أ - تقديم توصيات واقتراحات إلى المستوى الأعلى.
ب - تنفيذ سياسات وخطط المستوى الأعلى.
ج - تنسيق نشاطات وأعمال جميع الأقسام.
د - تصميم وتنفيذ نظم معلوماتية مناسبة للعمل والشركة.
هـ - تحديد مؤشرات الأداء لعمل الفرق جميعها.
و - تصميم وتنفيذ نظم الثواب والعقاب لتحفيز وإصلاح السلوك التعاوني والتشاركي.
ز - تشخيص وحل المشكلات الناشئة داخل فريق العمل.
ح - يحتاج أعضاء هذا الفريق إلى قدرات إدارية وتقنية عالية وقدرات فكرية أقل.

ج - المستوى الأدنى: ويضم المشرفين المباشرين، المراقبين، والمدربين، ويقع تحت مساءلة المستوى المتوسط. أما مهامه فهي التالية:
أ - لهم سلطة محدودة لكنها مهمة جداً بخصوص المسؤولية عن إنجاز العمل.
ب - يقضون وقتاً كثيراً في التوجيه والسيطرة.
ج - تعيين مهام الموظفين اليومية.
د - رفع التقارير الدورية إلى المستوى المتوسط.
هـ - حل مشكلات الموظفين اليومية.
و - يشكلون القدوة لمن هم دونهم من العمال.

البنية الإدارية

هناك عدة أشكال من البنى الإدارية. ويتوقف ذلك على طبيعة عمل المؤسسة أو الشركة، وشبكة العلاقات الداخلية والخارجية المطلوب إقامتها. وقد ازدادت أهمية هذا الموضوع مع التغيرات الكبرى التي دخلت في مجال الأعمال المختلفة. فالتوسع في استعمال وسائل الاتصالات الحديثة وسرعة تطورها، وانتشار العولمة إلى بقاع الأرض، وازدياد حدة المنافسة داخل السوق الواحدة، أو في السوق العالمية الواسعة، وفرض تغييرات كبيرة على تشكيل البنية الإدارية لأي شركة تريد البقاء والنجاح. وهناك عدة أشكال رئيسة:

1 - بنية الوظيفة: وهو النوع الأكثر شيوعاً خاصة في المؤسسات الصناعية الكبيرة. حيث يتم تجميع الموظفين في لجان حسب الاختصاص. فهناك لجنة المهندسين، التسويق، المحاسبة، الموارد البشرية.. وغيرها. ومن إيجابيات هذه البنية:
أ - توزيع مثالي للموارد.
ب - تناسب مهمات العمل مع التدريب.
ج - قدرة عالية على حل المشكلات التقنية.
د - سرعة تحسين المهارات ضمن الوظيفة الواحدة.

أما سلبياتها فهي التالية:
أ - ضعف التواصل والتعاون فيما بين الاختصاصات.
ب - كثرة الاقتراحات المقدمة إلى المسؤولين في المستوى الأعلى.
ج - ضياع المسؤولية الواضحة بخصوص المنتوج أو الخدمة النهائية.
د - بطء التجديد أو التكيف مع البيئة المتغيرة.
هـ - كثرة التخصص تؤدي إلى الأنانية والنظرة الضيقة حيث تضيع الرؤية الشاملة للنظام. وهنا نتذكر الفيلسوف الإغريقي «أفلاطون»، «384 ق.م — 322 ق.م» في كتاب «الجمهورية» عندما يقول «إن الحرفيين لا يصلحون للحكم لأنهم يعلمون جيداً في مهنتهم فيعتقدون أنهم يعلمون في كل شيء».

2 - بنية القسم أو المنتج: فعندما تكون المؤسسة كبيرة وتنتج أصنافاً متعددة، يسهل على عملها هذا



التنظيم. فمثلاً، إذا كانت الشركة عبارة عن دار نشر كبيرة، سيكون لها قسم للجرائد، وقسم آخر للمجلات، وقسم رابع للكتب، وغير ذلك. ويكون كل قسم مستقل بكافة وظائفه.

إيجابيات هذه البنية هي:

أ – لديها قابلية كبيرة للتأقلم مع البيئة المحيطة والمتغيرة.

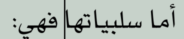
ب – زيادة التعاون بين الوظائف المختلفة.

ج – تصبح المسؤوليات واضحة بما يختص بنوعية المنتج أو الخدمة.

د – تركيز الخبرات على مستهلكين معينين ومنتجات معينة.

هـ – سهولة تقليص أو توسع الوحدات العاملة.

لقد ازدادت أهمية البنية الإدارية مع التغيرات الكبرى التي دخلت في مجال الأعمال المختلفة



أما سلبياتها فهي:

أ – تخفيض ما يعرف في علم الاقتصاد بوفورات الحجم.

ب – تشتيت الخبرات والمؤهلات التقنية.

ج – تخلق تنافساً مرضياً بين الوحدات العاملة.

د – زيادة التكاليف بسبب هدر الموارد من خلال تكرارها بين الأقسام والوحدات.

هـ – المبالغة في التركيز على أهداف القسم بديلاً عن هدف المؤسسة العام.

الإدارة الافتراضية

3 - البنية الافتراضية: فالبنية الإدارية الافتراضية، فرضها التطور النوعي تكنولوجيا المعلومات، والتوسع الكبير في الأسواق الخارجية الافتراضية على بنية الفريق الافتراضي. وأفراد هذا الفريق لا يلتقون وجهاً لوجه لأنهم منتشرون في كافة أنحاء العالم ويتواصلون على الشبكة. وهؤلاء ليس جميعهم موظفون بالطريقة التقليدية، بل كثير منهم يدخلون بمهمات معينة محدودة ثم يخرجون.

وإذا أخذنا في الاعتبار اختلاف الثقافات وصعوبة التدرب على الأجيال الجديدة من التكنولوجيات باستمرار، نستطيع أن نتلمس صعوبة هذا النوع من الإدارة. خصوصاً أن هذه البنية هي، بطبيعة العمل المتصلة به، بنية مسطحة. فالمسافات بين المستويات الإدارية المختلفة متقاربة، بل تتجه نحو الإمحاء. إنها إدارة جديدة لمؤسسات جديدة قوامها وعمودها الفقري ما أسماه «بيتر دراكر»، «19 نوفمبر 1909 – 11 نوفمبر 2005» باكراً، في ستينيات القرن العشرين، بـ«العامل العارف».

وتتلخص إيجابيات البنية الافتراضية، في أنها:

أ – مناسبة لتجاور المجموعات غير القادرة جغرافياً على التقارب.



ب – تصميمها مناسب للمبادرات والعمليات قصيرة المدى.

ج – قابلة للتكيف مع المحيط السريع التغير.

د – تكاليف الأمكنة قليلة أو غير موجودة.

هـ – تكاليف التنقل من طائرات ووسائل أخرى قليلة.

و – تستخدم وسائل صديقة للبيئة.

في حين أن سلبيات البنية الافتراضية، تتلخص في التالي:

أ – اعتماد كبير على التكنولوجيا مما يعرضها للمشكلات المتضمنة فيها ومحدوديتها.

ب – ليست مستقرة. وفي هذا الشأن يقول «بول فيريليو»، فيلسوف ثقافة التكنولوجيا، «المولود في باريس سنة 1932» إن التكنولوجيا السريعة تحوي في داخلها أيضاً «الحادث النهائي».

ج – ولأنها تقع خارج نطاق البنية التحتية للمؤسسات الداخلية فهي لا تؤثر عليها ويجعلها خارج التفاعل الضروري للنمو والتطور.

د – اعتمادها الكلي على أفراد معينين، كالفنيين عالي الاختصاص، وعلى مصالحهم الخاصة.

هـ – مشكلات لوجستية خصوصاً فيما يتعلق باختلاف الوقت بين بلد وآخر.

فنّ الإدارة..

في كتابه الصادر في أعقاب الأزمة الاقتصادية العالمية، الأخيرة تحت عنوان «فن الإدارة الضائع» كتب «بيتر دراكر»، المستشار الإداري المعروف، أن الإدارة ليست مجرد وسيلة تستخدمها المؤسسات والشركات. إنها بيئة كاملة من الفن والعلم والكفاءة والأخلاق، تردم المسافة بين «البرج العاجي» للأكاديميين و«عالم الواقع» للمديرين التنفيذيين. كما تردم أيضاً الهوة الكبيرة بين المصالح الفردية والمصالح العامة. إذ ذاك فقط تزدهر المؤسسات والشركات.

ما أكبر حبّ الألمان لسلطة المكرونة



يقدِّم الروائي رفيق شامي في كتابه (ما أكبر حب الألمان لسلطة المكرونة)، الذي نشرته دار نشر (دي تي في)، ميونيخ، 2011م، عشرين حكاية، أو قصة قصيرة، تدور أحداث بعضها في دمشق، وبعضها في ألمانيا، والبعض الآخر يقارن بين العالمين. ولا يتضايق جمهوره الألماني إذا سمع شامي يتحدث بكثير من السخرية عن طباعهم، ويضحكون على أنفسهم، لأنهم يعلمون أنه إنما يسجل ما يراه، كما أنه يستخدم الصور النمطية في أذهانهم عن الشرق، ليضيف إليها أبعاداً أخرى، أي أنه لا يريد ترسيخ المعاني السلبية عن العرب، كما يعتقد بعض الناقدين العرب المفرطين في الحساسية، إنما يسعى إلى إضافة الكثير من الصور الإيجابية لهذه الصورة، أو إلى تنبيه الألمان أن يفكروا في عيوبهم، قبل الحديث عن عيوب غيرهم.

قبل أربعين عاماً جاء سهيل فاضل من سوريا إلى ألمانيا، وفي جعبته حكايات من حواري دمشق، أو (الشام) كما يحب أهلها أن يطلقوا عليها، ولذلك اختار لنفسه اسم (رفيق شامي). درس الكيمياء حتى حصل على الدكتوراة، وعمل في مجال تخصصه، لكنه سرعان ما قرر أن يتفرغ للكتابة، أو على الأصح للحكايات، التي يبدع في إلقائها على جمهوره، فيتفوق على مثله الأعلى (شهرزاد)، وتكتظ القاعات بمئات الأشخاص من مختلف الأعمار، ليسمعوا منه حكايات الشرق، ورؤيته لبلادهم، التي أصبحت وطنه الثاني، ويرفعونه على عرش الأدب فيها، ليكون ثالث أديب محبوب في ألمانيا.

سجل رفيق شامي حكاياته في قرابة الثلاثين كتاباً باللغة الألمانية، بيع منها أكثر من مليون نسخة، وترجمت أعماله إلى 24 لغة، انضمت إليها العربية في السنوات القليلة الأخيرة فقط، لأنه يرفض حذف أي جملة من كتبه، التي يفوق عدد صفحات بعضها الألف صفحة، مثل (الجانب المظلم للحب).

الضيافة عند العرب والألمان

في حكايته التي تحمل اسم (ما أكبر حب الألمان لسلطة المكرونة)، يتناول شامي اختلاف المفاهيم بين العرب والألمان حول الضيافة، فالعرب لا يقبلون أن يأتي الضيف بطعامه معه، ولا يخطر على بال امرأة عربية مدعوة لتناول الطعام، أن تقوم هي بالطبخ والخبز، على عكس الألمان الذين يرون أنه من الطبيعي أن يسهم الضيوف في إعداد الطعام، فيقل الحمل على صاحب الدعوة. ولكن ما يضايق رفيق شامي، هو أن الكثير من الألمان يأتون بأصناف محددة من الطعام، وعلى رأسها (سلطة المكرونة)، وهي عبارة عن مكرونة مسلوقة، وفوقها حبوب خضار البازلاء، وصلصة المايونيز، وقطع من لحم السجق، ويتوقع شامي أن السبب في إقبال الألمان على طهو هذا الصنف، أنه من السهولة، بحيث يمكن أن يعملها الضيف بيد واحدة، في حين يستخدم اليد الأخرى في تهيئة نفسه للخروج.

ويصف الكاتب الوضع في دمشق بكثير من المبالغة، فيقول إن الضيف يجوع طوال يوم الدعوة للطعام، لأنه يعرف أن أمامه اختباراً عسيراً، إذ لا يكفي أن يقول لصاحب الدعوة، إن الطعام لذيذ، بل لابد أن يثبت ذلك، من خلال التهام كميات ضخمة من كل صنف من الأصناف التي لا حصر لها، ولا تنفع أي أعذار للتوقف عن الطعام، فصاحب الدعوة جاهز للرد على كل الأعذار، باستخدام عبارات بليغة،

تقضي على كل الحجج، من الشعور بالشبع، أو من الإحساس بالآلام في المعدة، وتوصد كل الأبواب أمام الضيف.

ويتوقع رفيق شامي أن تكون هذه العادات، قد جاءت من تأثير الصحراء على العرب، لأن إطعام الضيف الغريب هناك، كثيراً ما يعني إنقاذ حياة إنسان، لأن البدوي في الصحراء، يرى نفسه في كل ضيف يستقبله، لأنه يمكن أن يتعرَّض للموقف نفسه، فقد تهبّ ريح قوية، تقتلع خيمته، وتجعله يهيم في الصحراء، بلا زاد أو رفيق، فيكون في أشد الحاجة إلى من يرحِّب به، ويقدِّم له الطعام والشراب والمأوى، لذا يؤمن العرب بأن حق الضيف، إكرامه ثلاثة أيام، دون طرح الأسئلة عليه، لا من أين جاء، ولا إلى أين يريد الذهاب.

وذكر أن بعض القبائل العربية تحرص على إشعال النار أمام الخيام في الليل، حتى يراها الغريب في الصحراء، ويقصدها لينزل ضيفاً عليها، وإذا كانت هناك رياح تطفئ النار، ربطوا كلاباً خارج الخيام، حتى يسمع الضيف نباحها، ويشق طريقه إليهم في الظلام.

ويرى أن العرب الذين أصبح معظمهم يعيش في المدن، وتركوا حياة الترحال، ما زالت الصحراء في صدورهم، ولذلك بقي إكرام الضيف من العادات والتقاليد، التي يتمسكون بها، ويطبِّقونها بصورة ربما يراها الإنسان الغربي مبالغاً فيها.

ويقارن سلوك العرب والألمان في الحضور لدعوة الطعام، فالألمان يلتزمون بالموعد المحدد للدعوة، بل أنهم يأتون أحياناً قبل الموعد بربع ساعة، لأنهم وضعوا في حسبانهم احتمال وجود ازدحام في الطريق، فلما وجدوا المرور منساباً، وصلوا قبل الموعد.

ويشيد الكاتب بتواضع الألمان، في مسألة الطعام، فعلى العكس من العرب والإيطاليين والإسبان واليونانيين، الذين يشعرون أن طعامهم لا مثيل له، ويتكبرون على طعام غيرهم من الشعوب، ويتأففون منه، فإن الألمان، الذين لا يجيدون إعداد الطعام، مستعدون لتناول كل شيء، الطعام الياباني والصيني والإفريقي والأفغاني، «فإذا أعجبهم الطعام، فإنهم يقولون بعد 90 ثانية بالضبط من بدء الطعام: لذيذ هذا الطعام، هل يمكن أن أعرف الوصفة؟»

وعلى عكس وصفات الطعام الغربية، التي تكون مختصرة ودقيقة، فإن الطباخ العربي لا يستطيع أن يشرح ذلك باختصار، بل يبدأ من أيام جدته، وينتهي بأنواع من التوابل، لا تنبت إلا في قريته، ولم تشق طريقها إلى الغرب، ولا يوجد لها اسم باللغة الألمانية، وعلى عكس الطعام الألماني الذي لا يحتاج تحضيره إلا لدقائق معدودة، فإن الطباخ العربي مازال يتبع عادات القرون الوسطى، عندما لم تكن هناك ساعات يد، وكان الوقت بلا حساب، وليس من الغريب أن يستغرق إعداد صنف واحد من الطعام مدة يومين، ولا يأبه بالإيقاع السريع للحياة الحديثة.

ويسخر شامي من المصطلح الذي يستخدمه الألمان، حينما لا يستسيغون الطعام، فهم يقولون عندئذ، إن الطعام (طريف)، ويستغرب من أن اللغة الألمانية التي هي لغة الفلاسفة والأدباء، تقبل استخدام هذا المصطلح الغريب، فالطعام إما أن يكون لذيذا أو لا يكون، ولذلك فقد تحرى الأمر، وعرف أن هذا المصطلح عبارة عن نقد لاذع لكنه مبطن، لأنه يعني: «من الطريف أن يستطيع إنسان أن يصنع من هذه المكونات الرائعة، مثل هذا الطعام البشع».

ويقارن من جديد بين الطباع الألمانية والعربية، فيقول إن: الألمان لا يأتون في الوقت المحدد فحسب، بل يلتزمون بعدد الأشخاص المدعوين، فإذا كان عددهم خمسة أشخاص، فإنهم لا يزيدون فرداً، ولا ينقصون، وإذا حدث أي تغيير، فإن المدعوين يتصلون بصاحب الدعوة ويبلغونه قبلها بعدة أيام، ويسألون بأدب وخجل شديدين، إذا كان من الممكن أن يحضروا معهم شخصاً إضافياً، لاعتقادهم بأنه سيكون إثراء لهذه الأمسية، ويلتزمون بما يقوله صاحب الدعوة.



أما العرب فإنهم إذا قالوا إنهم ثلاثة أشخاص، وإنهم سيأتون في الساعة الثانية عشرة ظهراً لتناول طعام الغداء، فليس غريباً أن يفاجأ صاحب الدعوة بوصولهم في السابعة مساء، وأن تكون فرحتهم بالدعوة بالغة، بحيث قرروا أن يصطحبوا معهم بعض الجيران، وأبناء عمومتهم، وخالاتهم، وأزواج بناتهم، وأهم ما في الأمر، أنهم يعتبرون ذلك سراً عسكرياً، فلا يبوحون به لصاحب الدعوة، بل تأتيه المفاجأة على غير استعداد، لأنهم لا يرغبون أن يفسدوا عليه فرحته بكل هؤلاء الضيوف، بإبلاغه من قبل للاستعداد لهم.

ويضيف رفيق شامي إن العرب يأتون أحياناً على غير موعد، فتجد الباب يدق عليك، ثم ترى صديقاً ومن خلفه خمسة إلى عشرة أصدقاء آخرين، ولا يمكن

من الرف الآخر.. اقرأ

لصاحب الدار، أن يفعل ما يفعله الألمان، ويسألهم: «ماذا حدث؟»، أو «إلى أين تتجه هذه الكتيبة الكبيرة العدد؟» أو «ألم تكن تستطيع الاتصال قبل الحضور؟»، بل تنفرج أساريره على مضض، ويرحِّب بهم بأعلى صوته، كما لو كان في انتظار هذه اللحظة السعيدة، حتى لا يقال عنه إنه بخيل، أو إنه لا يحسن إكرام الضيف، ويبدأ جميع أفراد بيته وربما الأهل والجيران، في معركة إعداد الطعام، لإنقاذ الموقف، ولإطعام الضيوف بشتى الأصناف، ولا يهم حجم التعب والإرهاق اللذين سيصيبهم، المهم أن يشعر الضيوف بالرضا والسعادة، وأن يحفظ الجميع ماء وجه صاحب البيت.

ويختتم الكاتب قصته بالمثل العربي القائل: «من عاشر القوم أربعين يوماً، صار منهم»، ويضيف إنه بدأ يشعر بأن بعض طباعه تغيَّرت، وأن كائناً غريباً يسكن داخله، فقد أصبح يخرج قبل الموعد، ويصل إلى محطة الباص أو القطار قبل وصولهما، لأنهما لا ينتظران الركاب، ولا يأبه السائق للشخص الذي يشير إليه طالباً الانتظار، وفتح باب الباص بعد أن غادر المحطة، كما انتبه إلى أنه ما عاد يتضايق أن يأتي الضيوف ببعض الهدايا أو الأطعمة معهم، إلا أنه مازال مصراً على رفض (سلطة المكرونة).

(مأدبة الجثمان)

في هذه القصة القصيرة لا يتعرَّض رفيق شامي إلى العرب، بل يحكي ما حدث لصديق له اسمه يوسف، جاء إلى ألمانيا في عام 1955م، أي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بعشرة أعوام فقط، عندما كان الألمان يرحِّبون بالأجانب القادمين لمساعدتهم على بناء بلادهم، وهذا ما حدث مع يوسف، فقد جاء أستاذه في الجامعة لاستقباله، ودعاه للبقاء عنده في البيت في الأسابيع الأولى، حتى تنتهي كل الإجراءات، ويحصل على بطاقة طالب من جامعة هايدلبيرج، ويحصل على غرفة في مبنى سكن الطلاب.

كان يوسف سورياً مسيحياً، ولا يعرف من اللغة الألمانية إلا القليل، ولذلك لم يكن يفهم الكثير مما يقوله أستاذه الجامعي، الذي دعاه مرة للنزهة مع أسرته، ولم يكن يوسف يدرك أن الألمان يحِّبون التنزه في منطقة المقابر، لأنها توضع في حديقة كبيرة، كلها أشجار وخضرة، وتكون القبور مصنوعة من الرخام، وحولها ورود وشموع، يهتم بها أهل الميت، ويبدِّلونها دوماً، لتظل مرتبة وجميلة، وكأن الموت يبعث السعادة في نفوس الألمان.

لكن يوسف مثل كل عربي يربط المقابر بالموت، لا بالتنزه والسعادة والضحك، وتذكَّر أنه كان يراهن أصدقاءه وهم صغار، من منهم يدخل المقابر، دون أن يشعر بالرعب، ويفرّ هارباً من هناك، ولذلك فإنه لم يفهم سلوك الأسرة المضيفة له.

وبعد أسبوع علم أن والدة أستاذه الجامعي، قد توفيت، فتأثر يوسف بشدة، ورغم أنه لم يرها ولو لمرة واحدة، فإنه كان بديهياً بالنسبة له أن يحضر الجنازة والدفن، فرحَّب أستاذه بذلك، ولكنه أراد أن يوضح للضيف العربي الطقوس الألمانية، لأنه رغم ديانته المسيحية، ليس بالضرورة يعرف ما يفعله المسيحيون الألمان مع موتاهم، فأخذ يشرح له كل صغيرة وكبيرة، والضيف العربي يستمع بإنصات، ورغم أنه لم يفهم الكثير مما سمعه، كان يومئ دوماً برأسه، ليوحي لأستاذه أنه يتابع كلامه، ويفهم كل حرف فيه.

إلا أنه انتبه إلى تكرار كلمة لم يسمعها من قبل، وهي (Leichenschmaus)، وهي كلمة مركبة من كلمتين، فأخذ يفتش في القاموس عن معناها، حتى لا يحدث سوء فهم، الكلمة الأولى وجدها بسرعة ومعناها (الجثمان)، أما الكلمة الثانية فقد جفت الدماء في عروقه عندما قرأ معناها، ولا تتفق مع الجزء الأول من الكلمة المركبة، لأن معناها (مأدبة).

تذكر فجأة أن أستاذه أبلغه أنه عاش سنوات في إفريقيا وفي آسيا وفي أمريكا اللاتينية، وخطر ببال يوسف أن أستاذه ربما يكون قد اكتسب بعض عادات القبائل هناك، والتي قد ترى أن تناول جزء من جثمان الميت، يجعله يستمر في الحياة في أجسامهم، وانتبه للمرة الأولى إلى الشبه بين أستاذه الجامعي، وبين مخرج أفلام الرعب الإنجليزي ألفريد هتشكوك، ثم تذكَّر أن المسيحيين في كل العالم، يحصلون من القسيس في نهاية القداس على كسرة خبز، وكانت كسرة الخبز هذه تقف في حلقه كل مرة، وتساءل عما إذا كانت أسرة أستاذه مقبلة على تناول قطعة من جثمان الميتة.

أخذ يفكر في كيفية التخلص من هذا المأزق، هل يكذب عليهم ويقول إنه شخص نباتي، أي لا يأكل أي نوع من اللحوم، لكنه تذكر أنه منذ يوم وصوله أكل معهم مرات كثيرة لحوماً مختلفة، وقرر أن يلتزم الصدق، ويخبرهم حين يأتي موعد تناول جزء من الجثمان، أن التقاليد العربية تمنع تناول لحم الميت، حتى ولو كان من الأقارب.

لكن مفاجأته كانت كبيرة، حين انتهت مراسم الدفن، ووجد الحاضرين يتوجهون إلى مطعم أنيق قريب من المقابر، وجلسوا جميعاً على مائدة طويلة، وأخذوا يتناولون الطعام العادي، ويتذكرون الفقيدة. وفجأة تذكر أستاذه أيام طفولته في الحرب العالمية، وحكى كيف كانت أمه تضعه في عربة الأطفال، وتذهب به إلى السوق، ولم يكن معها من المال ما يكفي لشراء الطعام، فكانت تسرق معلبات الخضراوات، وتضعها أسفل طفلها، الذي كان يشعر بالألم في ظهره، وهو الألم الذي رافقه العمر كله، كلما شاهد علب الخضراوات، انفجر جميع الحاضرين في الضحك، وأخذوا يتنافسون في ذكر الطرائف والفكاهات، والجميع في سعادة بالغة.

شعر يوسف بالخجل من نفسه، لأنه اعتقد أن الألمان يأكلون من لحوم موتاهم، واستغرب من هذه الطقوس الغريبة، التي تجعلهم لا يصرخون ولا يبكون ولا يرسمون التأثر الشديد على وجوههم طوال اليوم، بل يسعون من خلال هذه الدعوة، إلى توثيق العلاقة بين الأقارب، بحيث لا تؤدي وفاة أحدهم، إلى فقدان حلقة الصلة بينهم، وبدلاً من أن يجتمعوا على الحزن، يبقى الميت في أذهانهم مرتبطاً بهذه الطرائف التي عرفوها معه أثناء حياته.

نسي يوسف القصة، ونجح في دراسته، وأصبح مهندساً مرموقاً، وانقطعت أخباره عن الكاتب، حتى التقاه على غير موعد في محطة قطارات مدينة هامبورج، التي سافر إليها شامي لإلقاء محاضرة، فصمم على دعوته في منزله، فاستجاب شامي، ولما دخل بيته شعر بأنه في متحف شرقي، فالحائط مغطى بطبقة من أفخر أنواع الخشب، الذي جاء به يوسف من المغرب، والكراسي والطاولة من مصر، والوسائد ومفرش الطاولة والستائر من أقمشة الشام، وبقية القطع من تونس ولبنان واليمن.

ثم غيَّر يوسف ملابسه، وارتدى الثوب العربي التقليدي، وصنع القهوة بالهيل، ثم انطلق صوت فيروز من السماعات المختبئة في الحائط، وأخذ يشرح لصديقه المبهور بكل هذه الروح الشرقية الموجودة حتى في التفاصيل بالغة الدقة، قائلاً له إن سنوات ألمانيا، أثرت فيه بلا شك، وهذا ما يظهر على الأسوار الخارجية لبيته، لكن مادام المرء محروماً من العيش في وطنه، فليجلب وطنه إليه في غربته، خاصة وإنه مقتنع بأن الحياة ليست دائمة، بل هي رحلة تنتهي، على عكس الألمان الذين يقتلون أنفسهم في العمل، والاجتهاد، وكأنهم سيعيشون إلى ما لا نهاية.

مرت السنوات ومات يوسف، واجتمع الكثير من الأصدقاء والمعارف، الذين أحبوا فلسفته في الحياة، وواحته الشرقية داخل بيته الألماني، ووقف أحد أقاربه ليبلغ الحاضرين، أن يوسف كتب وصيته وهو على فراش الموت، وقال فيها إنه: عاش كعربي، ولكنه يريد أن يموت على الطريقة الألمانية، لا يريد أن تكفهر الوجوه، ويتقاسم الجميع الحزن، بل عليهم أن يحتفلوا بموته، وأن يقضوا وقتاً طيباً مع تناول الطعام اللذيذ، وهو ما فعله الجميع، فأكلوا كثيراً، وضحكوا أكثر، ثم مال أحد الحاضرين على رفيق شامي، وصاح بصوت عالٍ بلهجة بافارية، «ما أجمل هذه الجثة».

اختلف النقاد في ألمانيا في الحكم على رفيق شامي، فالبعض اعتبره مبدعاً لا مثيل له، والبعض الآخر يتهم أدبه بالسذاجة، والعيش في الماضي، واستغلال الصور النمطية عن الشرق، ليجتذب القارئ الغربي، ويفسر البعض هذا الاختلاف بأن الفريق الأول يحكم على رفيق شامي، باعتباره أديباً عربياً يستخدم لغة ليست لغته الأم، وأنه حلقة وصل بين الشرق والغرب، أما الفريق الثاني فيطبِّق عليه كل المعايير التي يطبقها النقاد على الأدباء الألمان، فيرون أن لغته الألمانية ليس فيها الإبداع المنتظر من أديب.

كذلك اختلف النقاد العرب في الحكم عليه، فالبعض يشعر بأنه غير وفي للعرب، يكشف عيوبهم ويتحدث بصورة سلبية عنهم، ولا يزور بلاده منذ أن خرج منها، وينتقد نظام الحكم البعثي في سوريا في كل مناسبة، والبعض الآخر يقول إن رفيق شامي، أدخل دمشق في قلوب الملايين من الألمان، وغيرهم من الدول التي ترجمت أعماله إلي لغاتها، وأنه يستخدم الصور النمطية عن العرب لدى الغربيين، ليبني فوقها صورة جديدة متعددة الوجوه، فيها أبعاد كثيرة، تهدم الصورة الأحادية التي في أذهانهم.

رفيق شامي المسيحي السوري، كان أول من هاجم بابا الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا، عندما تحدث بسلبية عن نبي الإسلام، محمد -صلى الله عليه وسلم-، ويدافع عن القضية الفلسطينية في كل محفل، ويقول بعد كل هذه السنوات في الغربة، «فنجان قهوة في دمشق، يعادل ثروة المهجر». فهل آن الأوان لتشق كتبه طريقها إلى القارئ العربي؟

أسامة أمين
بون - ألمانيا

حكاية «المانسون»

مع الرز الهندي وتمر القصيم ورطوبة الدمام

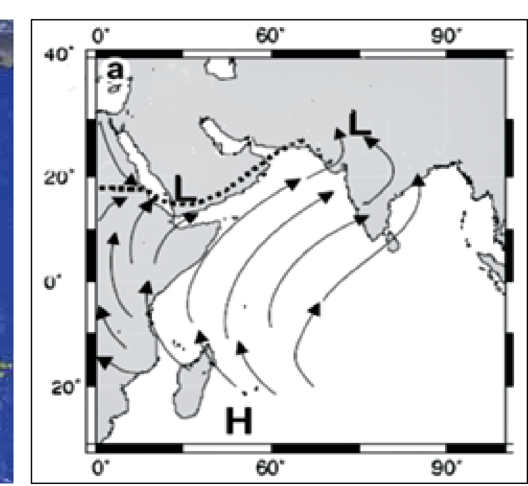
هل يصدِّق أحد أن ثمة علاقة بين «الرز الهندي» و«رطوبة الدمام» و«تمر القصيم»؟ ربما يكون هذا الكلام ضرباً من ضروب الخيال والمبالغات، ويدفع إلى التساؤل ما الفرق بين عنوان هذا التقرير والعناوين الرنانة لأخبار الصحف الاعتيادية؟ د. يوسف العوهلي يرى أن بينها قاسماً مشتركاً، ويتمثل في المانسون الهندي، أو الرياح والأمطار الموسمية الهندية.

يعتقد كثير من سكان المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية، أن النسبة العالية من الرطوبة التي تتعرض لها المنطقة في أشهر يوليو وأغسطس وسبتمبر من كل سنة، سببها تبخُّر المياه من الخليج العربي، لكن الخليج العربي بريء من هذه التهمة، ولا علاقة له بهذه الرطوبة.

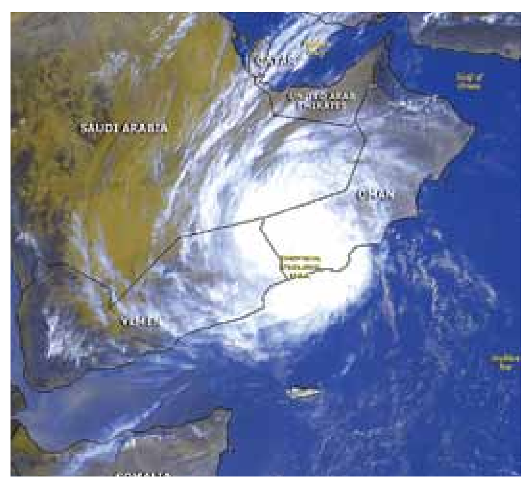
فمن ظواهر الطقس الأكثر إثارة على الكرة الأرضية، نشوء الرياح الموسمية الهندية السنوية بسبب ارتفاع حرارة الهواء الربيعي بصورة سريعة في شبه القارة الهندية، وبصورة أبطأ في المحيط الهندي. ونتيجة لذلك، تتجه الرياح الجنوبية - الغربية المشبعة بالرطوبة، نحو اليابسة قرب سريلانكا حيث يبدأ بعض الهواء المحمّل بالرطوبة بالاتجاه نحو الشمال عبر جنوب الهند وغربها، في حين يتجه بعضه الآخر نحو الشرق في اتجاه خليج البنغال.

و تسمى الرياح الموسمية الاستوائية التي تنشأ في المحيط الهندي والبحر العربي بـ «المانسون الهندي». وكلمة «مانسون» Monsoon عربية الأصل ومشتقة من كلمة «موسم»، وهي تعبّر عن الرياح والأمطار الموسمية الهندية الجارفة التي تقلب مناخ شبه القارة الهندية رأساً على عقب خلال أشهر الصيف (يوليو وأغسطس وسبتمبر).

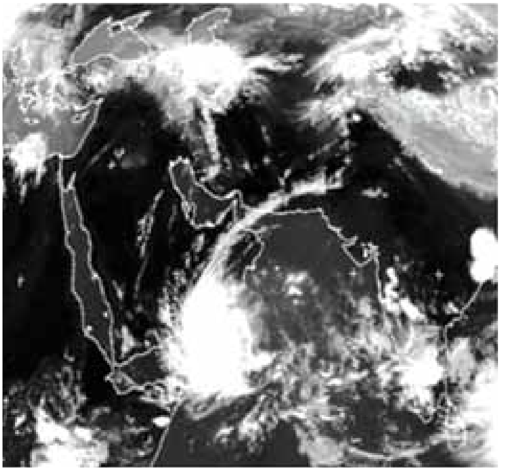
earthobservatory.nasa.gov




شكل رقم 1 يوضح مسار الرياح الموسمية الهندية



شكل رقم 2 إعصار «أرب 01» في مايو 2002


شكل رقم 3 صورة أقمار صناعية أخرى للإعصار نفسه

وتبدأ رحلة تيارات الرياح الموسمية (شكل رقم 1) [1] ضعيفة من جنوب شرقي المحيط الهندي بحلول شهر أبريل من كل سنة، مروراً ببحر العرب حيث تكتسب زخماً من الرطوبة. ثم تتجه هذه الرياح المحملة بالسحب، إلى شرق إفريقيا وبحر العرب، فالجزيرة العربية حيث تؤثر المنخفضات الجوية فيها وتهطل أمطار مصحوبة بعواصف رعدية قوية وأحياناً بالبرد، على غرب المملكة ووسطها وشرقها، خلال شهر أبريل.

الأعاصير المدارية في بحر العرب

وخلال هذه الفترة قد يتطور الوضع شمال بحر العرب، لتتشكل أعاصير قويّة. وحسب الإحصاءات المتوافرة[2]، فإن الأعاصير القويّة تصل الى خليج عمان مرة كل 4 سنوات، مصحوبة برياح شديدة وأمطار غزيرة. وخلال 100 عام (بين عامي 1891 و1990م) ضرب السواحل العمانية 17 إعصاراً مدارياً [3]، ثمانية منها خلال شهر مايو. وحسب هذا المصدر، فإن أعلى كمية أمطار سجلت خلال 12 ساعة كانت عام 1966م وتجاوزت 178 ملم في منطقة ظفار.

وخلال الأعوام العشرة السابقة، ضربت ثلاثة أعاصير مدارية قويّة سلطنة عمان مخلّفة دماراً كبيراً. وتوضح صورة أقمار صناعية لإعصار أُعطي اسم «أرب 01» (الشكلان الرقم 2 والرقم 3) ضرب سلطنة عمان والربع الخالي في شهر مايو عام 2002 [4 & 5]. وحسب المصدر الرقم 4، بلغت كميات الأمطار التي هطلت على إثر هذا الإعصار على مدينة قيرون 251 ملم، وعلى مدينة صلالة 58 ملم، خلال 24 ساعة فقط.

وفي يونيو عام 2007م ضرب الإعصار المداري المدمّر «جونو» السواحل العمانية (شكل رقم 4) [6]، وامتد تأثيره إلى الشواطئ الداخلية للخليج العربي فارتفعت الأمواج حتى وصلت إلى سواحل المنطقة الشرقية للمملكة وزاد مستوى مياه البحر إلى درجة غير اعتيادية. وتجاوزت سرعة الرياح في هذا الإعصار المدمر عند وصوله إلى شواطئ سلطنة عمان، 175 كم/ساعة [7]، وكان ارتفاع الأمواج أكثر من 12 متراً. وبلغت كمية الأمطار التي صاحبت هذا الإعصار 600 ملم [8]. وحسب هذه المصادر، تُعد هذه الكمية قياسية لمنطقة الخليج العربي.

وفي 5 يونيو من عام 2010م ضرب الإعصار المداري المدمر «فيت» شواطئ سلطنة عمان (الشكلين رقم 5 & 6)[9]، مصحوباً برياح وصلت سرعتها الى 180 كم/ساعة وأمطار غزيرة بلغت في بعض المناطق أكثر من 400 ملم[10].

الخليج العربي والرطوبة في شرق المملكة

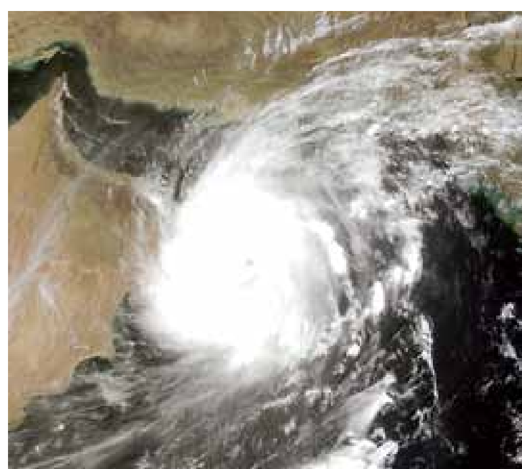
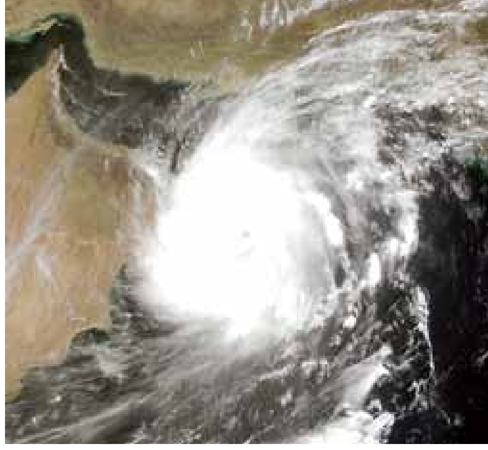
يمتد الخليج العربي من شط العرب شمالاً، إلى مضيق هرمز جنوباً بطول 1000 كلم تقريباً. ويبلغ معدّل عرضه 240 كلم، لكنه يضيق إلى 129 كلم عند الإمارات العربية المتحدة، إضافة إلى أن مياهه ضحلة ويتفاوت عمقه بين 20 و60 متراً فقط، في حين يبلغ أقصى عمق فيه 100 متر قرب مضيق هرمز.

ويتضح من الشكل الرقم 1، أنه خلال أشهر الصيف تسيطر رياح المانسون الهندي على أجزاء كبيرة من منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية، امتداداً من الساحل الإيراني للخليج العربي حتى البحر الأحمر. إلا أن هذا التأثير يتلاشى تدريجياً كلما اتجهنا شمالاً إذا كان فصل المانسون ضعيفاً إذ يفقد هذا التأثير قوته في شمال الخليج العربي.

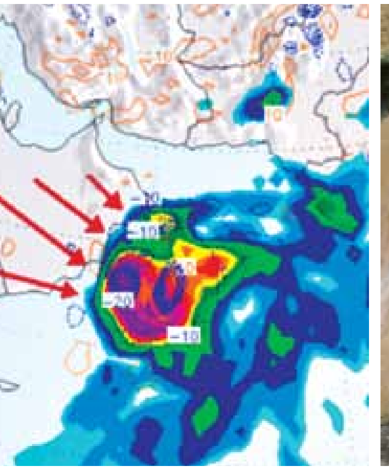
«الكوز» و«المانسون»

ويقسم هذا التأثير إلى قسمين:

أولاً: تأثير الرطوبة العالية نسبياً على سواحل الخليج

شكل رقم 4 إعصار جونو 5 يناير 2007



شكل رقم 5 إعصار فيت يونيو 2010



شكل رقم 6 يوضح تقدم نفس الإعصار في 3 يونيو

العربـي، سـواءً السواحل الإيرانيـة أو العربيـة، حيث تبدأ بالارتفـاع تدريجياً بدءاً من أوائل يوليو من كل عام (حسب قـوة المانسـون)، وصـولاً إلـى شهـر أغسطس حيـن تبلغ ذروتها. وتتزامـن هذه الرطوبة العالية مـع قوة المانسون، وقـد تزيـد نسبتها على 80 % فـي بعض المـدن الساحلية (سواءً الإيرانية أو العربية).

وتتجه رياح المانسون القويـة المشبعة بالمياه من المحيط الهندي وبحر العـرب شمالاً [11]، وتسمى هـذه الرياح محلياً بــ «الكوز» [12] (وقد تكون هذه الكلمـة المحلية مستنبطة من كلمة cost الإنجليزية والتي تعني ساحل).

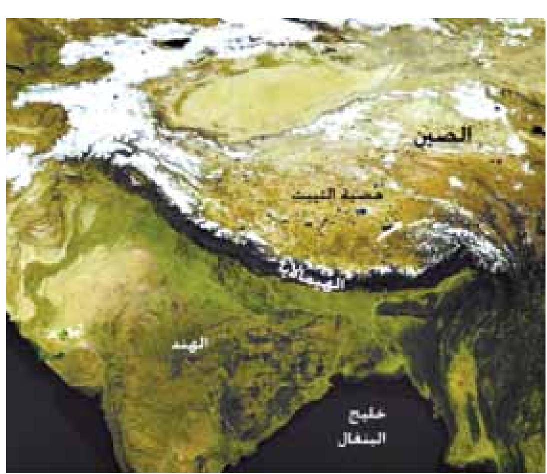
و«الكـوز» رياح شرقية إلـى جنوبية شرقية، تتغـذى من رياح المانسون، وتمتد لتغطي السهول المنخفضة المحاذية لجبال زاغرو الإيرانية الشاهقة (والتي تمتد على طول ساحل الخليج العربـي بارتفاع 4000 م)، وكذلك السواحـل العربية للخليج العربـي حتى الكويت. ولكن عندما تكون قـوة رياح المانسون ضعيفة يتلاشى تأثير «الكوز» كلما اتجهنا شمالاً.

لكـن هناك خبـراء، بينهم متخصصون فـي مناخ الخليج، يقولون إن الرطوبة النسبية التي تهيمن على الخليج العربي خـلال أشهر الصيف مصدرها الخليج العربي نفسه بسبب بخـار الماء الناتج عن درجة حـرارة المياه العالية. وخلال بحثي لم أجـد دراسات تدعم هذا الاعتقـاد، الذي يخالف المصدرين رقم 11 و12.

ثانياً: تأثير على حرارة المناطق الداخلية للجزيرة العربية، التـي تتعرَّض لرياح الشمال طوال فترة الصيف وتنشط في شهـري يونيـو ويوليو مـن كل سنة. إلا أن هـذا التأثير يمتد إلـى شهر أغسطس أيضاً، ولكن بريـاح خفيفة. وتتأثر هذه الريـاح الشمالية برياح المانسـون ذات الضغط المنخفض علـى جنـوب جبال زاغـرو الإيرانيـة (على ساحـل الخليج العربي)[13]. ويوضح الشكل رقم 7 (المصدر رقم 13) كيف تتأثـر الرياح الشمالية على الجزيـرة العربية ذات الضغط المرتفع بدوران عقارب الساعة، بينما تدور رياح المانسون على الجبال الإيرانيـة باتجاه معاكس لعقارب الساعة. هذا الاختـلاف في اتجاه دوران الرياح مـع الارتفاع في درجات الحـرارة، عـادة مـا يسبب زوابـع ترابيـة كثيفـة تنشأ في شمـال الجزيرة العربية وجنوب العراق، وتمتد حتى الخليج العربي.

رحلة أمطار شبه القارة الهندية [14]

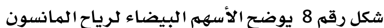
تدفـع تيارات الهـواء الرطـب (الأسهم البيضـاء اللون في الشـكل رقـم 8 - المصـدر رقـم 14) الآتية مـن المحيط الهنـدي، الريـاح الموسمية السنوية التـي تحدث صيفاً في الهنـد (رياح المانسـون). وعندما تتحـرك الكتل الهوائية إلـى منطقة أبعد نحو الشرق وتمرّ فوق خليج البنغال، فإنها تتشبّـع برطوبـة إضافية مسبّبـة تشكيـل منخفضات جوية مدارية. ولعدم قدرتها على تسلق جبال الهيمالايا (ارتفاعها 8000 م – 9000 م)، فـإن العواصـف تمطر بعنف في هذه الأماكن بكميات تساوي كميات أمطار سنة كاملة في غابات الأمازون المطيرة (مصدر رقم 14).



شكل رقم 10 يوضح تباين الغابات والصحارى أعلى جبال الهيمالايا وأسفلها

شكل رقم 7



شكل رقم 8 يوضح الأسهم البيضاء لرياح المانسون

شكل رقم 9 صورة أقمار صناعية في 4 أغسطس 2010

وتتشبّع كتلة الهواء المتجهة نحو الشرق برطوبة إضافية من خليج البنغال، مشجعة بذلك تشكيل سلسلة من المنخفضات الجوية، بدءاً من الشاطئ الشمالي الشرقي لشبه القارة الهندية. وهذه العواصف، المنجذبة بضغط جوي منخفض متشكل في شمال الهند على طول الحافات الجنوبية للجبال، تجري شمالاً عبر بنغلادش والهند، لتضرب في النهاية جبال الهيمالايا.

وبعد ذلك تنحرف العواصف نحو الغرب مؤدية إلى فصلٍ من الأمطار الموسمية، الذي يبدأ في أوائل شهر يونيو في شمال شرقي الهند وبنغلادش، وفي منتصفه في نيبال، وفي أواخره في غرب الهند. وتستمر خلايا محملة بهواء رطب، في محاولة يائسة لكسر جدار جبال الهيمالايا. لكن كلّما ارتفع الهواء في هذه الخلايا تتكاثف الرطوبة ما يؤدي إلى أمطار غزيرة تتسبب بفيضانات جارفة في أنهر الهند وباكستان.

ويوضح الشكل الرقم 9 [15] كميات من السحب الممطرة التي تغطي شبه القارة الهندية بصفة يومية خلال فصل المانسون، ويلاحظ أن هذه السحب ممتدة على طول سلطنة عمان وجنوب المملكة.

وتقيس محطات الأرصاد الجوية في جبال الهيمالايا، أمتاراً من الأمطار المتساقطة في كل فصل من فصول الرياح الموسمية (التي يمكن أن يتجاوز مجموعها السنوي أمطار غابات الأمازون) على تلال جبال الهيمالايا التي يبلغ ارتفاعها ما بين 1000 و3500 متر، بينما تقل الأمطار فوق قممها (9000 م) وهضبة التيبت. وهكذا يكون التباين المناخي عبر الهيمالايا في حده الأقصى. ففي بعض المناطق يمكن أن يمر المسافر، في مسافة أقل من 200 كم، من غابات مدارية عبر جبال وعرة ثم إلى صحارى المرتفعات العالية. (الشكل رقم 10).

ونظراً إلى قوة المانسون لعام 2010م، نرى فيضانات جارفة قتلت وشردت الملايين في الباكستان. وكذلك تعرضت سواحل الخليج العربي لرطوبة عالية جداً خلال صيف ذاك العام تجاوزت نسبة 80 % في بعض المناطق. وظهر تأثر الجزيرة العربية واضحاً بالمانسون الهندي العام الماضي، بارتفاع درجات الحرارة على المناطق الداخلية للمملكة، وحتى الشمالية منها. وسجلت منطقتا الجوف والحدود الشمالية درجات حرارة عالية جداً خلال شهر أغسطس من هذا العام وصلت إلى 48 درجة مئوية.

ومثلما يعتمد نضوج التمر في الجزيرة العربية على درجات الحرارة المرتفعة، تعتمد زراعة الرز في الهند والباكستان اعتماداً كاملاً على هطول أمطار المانسون السنوية الغزيرة، وهذا هو العامل المشترك بينهما أما الدمام فنصيبها نسبة عالية من الرطوبة... ومصائب قوم عند قوم فوائد.

---

[1] The speleothem record of climate change in Saudi Arabia. هيئة المساحة الجيولوجية السعودية –تقرير عام 2004
[2] The Persian Gulf Region, A Climatological Study. US Navy 1990
[3] Flood Control Project in Salalah, Oman, By Ahmed Majid Al-Hakmani
[4] www.mekshat.com
[5] en.wikipedia.org/wiki/2002_Oman_cyclone
[6] www.ar.wikipedia.org/wiki
[7] www.news.bbc.co.uk/hi/arabic
[8] www.aljazeera.net/news
[9] http://earthobservatory.nasa.gov
[10] www.arabic.cnn.com
[11] www.arabtimesonline.com/NewsDetails/tabid/96/smid/414/ArticleID/156764/reftab/36/t/After-humid-
[12] agony-hot-spell-to-return/Default.aspx
[13] Meteorology of The Persian Gulf and of Several Airport On the Arabian Cost, by [1] Georges Marcal, for Air France 1980
[14] Understanding Meteorology in the UAE, by Andy Best 1987
[15] مجلة «العلوم» عدد نوفمبر– ديسمبر 2006
[16] www.accuweather.com

1 الشمس والمرض

عدم التعرض للشمس يسبب أمراضاً كثيرة ومتنوعة. منها على سبيل المثال، مرض التصلب اللويحي أو تصلب الأنسجة المتعدد ومرض التهاب المفاصل الروماتويدي، وكذلك مرض السكري نوع 1 وغيرها من الأمراض العصبية. فقد بينت دراسة نشرت في مجلة طب الأطفال الأمريكية أن نسبة الأطفال المصابين بمرض السكري نوع 1 في فنلندا هي أكبر بأربعمائة مرة منها في فنزويلا.

أما العامل الأساسي في ذلك فهو نقصان فيتامين د الذي من مصادره الأساسية أشعة الشمس. وقد توصلت الدراسة إلى أن إعطاء الأطفال فيتامين د يجعلهم أقل بنسبة 30% تعرضاً لهذا المرض عندما يكبرون.

والحال أن هذا المرض يزداد بنسبة 3% في السنة في أوروبا. ومن المعروف أن المتحدرين من أصول أوروبية هم عرضة لهذا المرض أكثر من غيرهم.

لكن التعرض للشمس له مخاطره أيضاً. فالأشعة ما فوق البنفسجية تسبب أنواعاً خطرة من السرطانات. لذلك

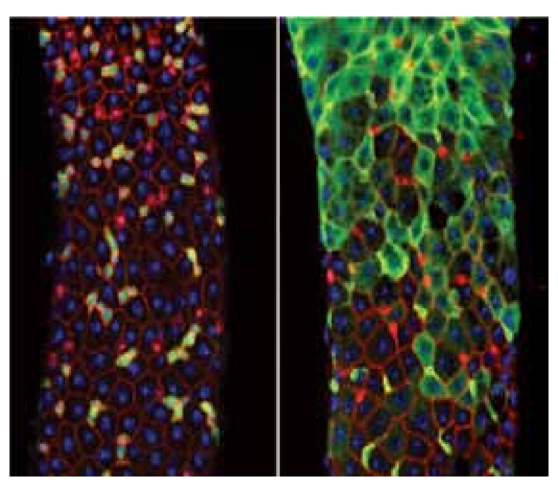


ينصح الخبراء بالتعرض للشمس قبل الساعة العاشرة صباحاً وبعد الرابعة من بعد الظهر لمدة لا تزيد على عشرين دقيقة.

2 الذبابة تُعلِّم الإنسان

استيعاب وحدات حرارية أقل، من خلال الطعام، يؤدي إلى صحة أفضل وعمر أطول.

هذا ما نعرفه ويعرفه العاملون في حقل الصحة والتغذية منذ مدة، من خلال الاستنتاج عن طريق الإحصاء. أما اليوم فقد تم أيجاد الأسباب العلمية لذلك، من خلال دراسة العوامل التي تؤثر في سلوك الخلايا الجذعية المؤدية إلى الاعتلال والشيخوخة في ذبابة الفواكه.



خلايا الذبابة النشطة (اليسار) وعند الشيخوخة (اليمين)

فقد قام فريق من علماء جامعة كالفورنيا - لوس أنجلوس وفريق آخر من مؤسسة «سولك للدراسات البيولوجية» بالتعرف على جينة «ب ج سي 1» في أمعاء الذبابة، ثم التلاعب بكميات الوحدات الحرارية المعطاة لها. حيث تمكنوا من تمديد عمرها حوالي 50%.

ذبابة الفاكهة لها أمعاء تشبه إلى حد بعيد الأمعاء الصغيرة عند الإنسان. وتبيّن من الدراسة، التي نشرت في العدد الأخير من مجلة «أيض الخلية» أو «سيل ميتابوليزم»، أن الذبابة التي أعطيت وحدات حرارية أقل، جعلها تمتلك عدداً أكبر مما يُعرف بالمايتوكوندريا؛ وهي أشكال تولد الطاقة في الجسم. وأن الجينة المذكورة أعلاه وظيفتها ضبط عدد هذه المولدات التي تحول السكريات والدهون إلى طاقة في وظائف الخلايا، وبما أن الذبابة لها عمر قصير، فنتائج الاختبار تكون سهلة وواضحة. ذلك كان متعذراً في الاختبارعلى الفئران أو البشر.

تمكن الفريق من جعل الذبابة بصحة أفضل من خلال ملاحظة حيويتها وإطالة عمرها بما بين 20 و50% وعلّق كريستوفر كوهلر، أحد أعضاء الفريق، أن المفتاح الأساسي في هذه العملية تحض الخلايا الجذعية على تجديد أغشية أمعائها عند إعطائها طاقة أقل للتعويض عن ذلك، مما يؤدي إلى النتيجة أعلاه.

الهدف الثاني بعد ذلك، هو أن تجد هذه النتائج طريقها إلى صناعة الأدوية والعلاجات المختلفة.

3 الكآبة بين الإنسان والحيوان



كان علم النفس، إلى وقت قريب، مقتصراً على الإنسان. وكان يسمى عند الحيوانات بعلم سلوك الحيوان. أما اليوم فقد أصبح للحيوانات فرع مختص بهم. وقد ساعد هذا التطور العلماء كثيراً في اختباراتهم على الحيوانات لدرس مشكلات الإنسان. وبما أن الحيوانات لا تتكلم عن عواطفها وانفعالاتها، يستعاض عن ذلك بدرس سلوكها.

فى الوقت الذي تحوَّلت فيه الكآبة إلى وباء يجتاح المجتمعات الغربية، لاحظ فريق من الباحثين فى جامعة ولاية واشنطن والذي نشر نتيجة أبحاثه فى «مجلة علم الأعصاب»، أن تقدماً قليلاً جداً حصل فى مجال أدوية معالجة الكآبة. إذ ليس هناك أي اختراق جديد لهذه الأدوية منذ الاكتشاف بالصدفة في ستينيات القرن الماضى. وقد عزى هذا الفريق التقصير إلى قلة النماذج البحثية المستقاة من أبحاث على أماكن فى الدماغ عند الحيوانات.

وقد ركز فريق البحث على منطقة رمادية اللون فى دماغ الفئران تتحكم بإدراك الألم وعواطف الحزن وفقدان أحد أعضاء العائلة... وفكوا شيفرة التيار الكهربائي المتعلقة بارتكاس هذه الانفعالات.

بهذه الطريقة يستطيع فريق العمل أن يحدد بدقة أنواع أنظمة الدماغ المسببة لكافة أنواع الكآبة واليأس. ومن ثم التفتيش عن مكوناتها الكيميائية لإدخالها في صناعة الأدوية والعلاجات.

4 توازن الصخور

وعقاب لبنان وكيف بقطعها   وهو الشتاء وصيفهن شتاء
لبس الثلوج بها علي مسالكي   فكأنها ببياضها سوداء

إن المبالغة الشعرية الرائعة في شعر أبو الطيب المتنبي لا تلغي حقيقة أنه لو كان صيف لبنان كشتائه لما تكونت عقابه الساحرة في جباله الشاهقة. كما أن الثلوج التي لبست (من الالتباس) عليه مسالكه هي من العوامل الأساسية التي كونت هذه العقاب.

طالما نظرنا إلى هذه النتوءات الصخرية الجميلة واعتقدنا أنها تراكمت بعضها فوق البعض الآخر بفعل التدحرج خاصة عند وقوع الزلازل. لكن علماء الجيولوجيا يخالفون هذا الرأي كلياً. إن التسمية العلمية لهذه الصخور المتراكبة هي الصخور المتوازنة.

لقد قام كل من الجيولوجيين ريتشارد براوون وديلان روود بفحص واختبار بعض من هذه الصخور في صحراء موجاف جنوبي كاليفورنيا ومقارنتها ببعض الصخور القليلة المتحررة من الجليد في القطب الجنوبي من الكرة الأرضية في مكان يعرف «بسلسلة أوليمبوس». لأن هذه الصخور، كما يعتقد، هي من أقدم الصخور على الإطلاق. وهي أيضاً من المشاهد التي لم تتغير منذ ملايين السنين، لأن القطب الجنوبي هو صحراء باردة ومتجمدة إلى درجة أنها لا تعرف المطر أو الرطوبة.

فحص العالمان مادة البريليوم - 10 في صخور كاليفورنيا. فهذه المادة المشعة تتشكل عندما تضرب أشعة كونية آتية من الفضاء الخارجي هذه الصخور فتقسم ذرات الأوكسجين والنيتروجين. وهكذا يمكن القول إن الصخور تحترق بالشمس بكثافة سنتيمترين من سطحها. لكن إذا كان الصخر مطموراً في الثلوج أو الجليد فلا يتأثر بهذه العملية.



من الصخور المتوازنة في وادي الكرم، قرب صنين في لبنان

إن الأقسام المحترقة من الصخر تصبح ضعيفة مقارنة بغيرها. وبما أن سطح الصخر يتعرض للشمس بنسب متفاوتة بين مكان وآخر، يأتي الشتاء أو الثلج فيجرف الأقسام الضعيفة. يبقى عندئذ الأطراف القوية. وهكذا تتوازن القطع الباقية فنراها كما هي اليوم. ثم قام العالمان بقياس مدة التعرض للشمس، وكان الاستنتاج مطابقاً لما تم استنتاجه في الاختبار الأول، أن عمر هذه الصخور في موجاف هي 18000 سنة أي منذ انتهاء العصر الجليدي الأخير.



إعادة استخدام النفايات لإنتاج مواد نافعة

يجري التخلص سنوياً من مئات أطنان الوسائط الكيميائية المستهلكة الناتجة عن عمليات المعالجة بتقنية كلاوس في معامل معالجة الغاز في أرامكو السعودية، عن طريق دفنها في الأراضي البور. وهو الأمر الذي قد يسبب مشكلات بيئية وتكاليف تشغيلية إضافية خلال عدة سنوات. وتظهر هذه الدراسة، التي أعدّها الباحث منصور الشافعي من مركز البحوث والتطوير في أرامكو السعودية، أن وسائط كلاوس يمكن استخدامها دون أية معالجة مسبقة كمادة أولية لتصنيع الإسمنت البورتلندي لتحل محل البوكسيت والطين. وقد نالت هذه الدراسة براءة اختراع برقم (US 8,029,618 B2 من (United States Patent).

وتحقيقاً لهذه الغاية، مُزجت عيِّنات من وسائط كلاوس بنسب ملائمة مع الحجر الجيري والرمل وخام الحديد لإنتاج عيِّنات الإسمنت البورتلندي. وجرى تحليل عينات الإسمنت الناتجة وفحصها وتقييم أدائها في مركز البحوث والتطوير في أرامكو السعودية، وفي مختبرات (سي تي إل إنجنيرنق إنك) بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث أظهرت نتائج الفحص أن التركيب الكيميائي وقوة عينات الإسمنت الناتجة عن وسائط كلاوس مشابهة للإسمنت المنتج من مواد خام تقليدية.

ومن المتوقع أن يؤدي استخدام وسائط كلاوس في تصنيع الإسمنت البورتلندي إلى جني فوائد عظيمة للبيئة من جهة، وخفض التكاليف من جهة أخرى. وسيكون حجم الإسمنت المصنع الذي يمكن استخدامه في المناطق التي تنتج فيها وسائط كلاوس في المملكة العربية السعودية كافياً للاستفادة من كل هذه النفايات. وخلاصة القول، أن هذه الممارسة تغني عن الحاجة إلى مكبات للتخلص من الوسائط الكيميائية المستهلكة، وفي الوقت نفسه، تؤدي إلى خفض التكاليف التشغيلية.

مقدمة

لا تزال المعالجة باستخدام تقنية كلاوس الطريقة الأكثر استخداماً حول العالم لتحويل كبريتيد الهيدروجين المستخلص من الغاز الحمضي أو الغاز الناتج من معامل التكرير إلى كبريت خام. وتتألف هذه التقنية من مرحلتين؛ تتمثل المرحلة الأولى في المعالجة الحرارية والثانية في المعالجة بالوسيط الكيميائي.

وأثناء المعالجة الحرارية، يتأكسد كبريتيد الهيدروجين جزئياً مع الهواء في فرن التفاعل في درجات حرارة عالية (1000–1400 درجة مئوية)، حيث يتشكل الكبريت، وتبقى بعض أجزاء كبريتيد الهيدروجين غير متفاعلة. وتتشكل أيضاً بعض جزيئات ثاني أكسيد الكبريت.

$$3O_2 + 2H_2S \longrightarrow 2H_2O + 2SO_2$$

وأثناء عملية المعالجة بالوسيط الكيميائي، تتفاعل جزيئات كبريتيد الهيدروجين المتبقية مع ثاني أكسيد الكبريت في درجات حرارة منخفضة (من 200 إلى 350 درجة مئوية) عبر الوسيط الكيميائي لإنتاج المزيد من الكبريت.

$$2H_2S + SO_2 \longrightarrow 2H_2O + 3S_x$$



Corbis

استخدام وسائط كلاوس لإنتاج الإسمنت البورتلندي تغني عن الحاجة إلى مكبات للتخلص من الوسائط الكيميائية المستهلكة

ومن خصائص طريقة وسائط كلاوس التي توفر طريقة أفضل لتحويل الكبريت من تفعيل البوكسيت والألومينا كروياً أن لها سطحاً مرتفعاً وكثافة منخفضة ومسامية عالية. وهذه الخصائص توفر أقصى نشاط لتحويل مركبات الكبريت. والصناعة المرتبطة بإنتاج وسائط كلاوس متطورة جداً كما يظهر من خلال براءة الاختراع الصادرة من الولايات المتحدة الأمريكية رقم 4.364.858 والعديد من براءات الاختراع التي استشهد بها هذا البحث وناقشها، إلا أن التفاعل لا يكتمل حتى مع أفضل الوسائط. لذا، تُستخدم مرحلتان أو ثلاث من مراحل الوسيط في استخلاص الكبريت.

وتفقد وسائط كلاوس فعاليتها بسبب طرح الفحم البترولي (الكوك) والكبريت الذي يحتوي على أنواع تعمل على خفض استخلاص الكبريت وتلويث الغلاف الجوي أيضاً عبر إطلاق كميات كبيرة من ثاني أكسيد الكبريت أثناء حرق الغاز الحمضي. وتؤدي عدة عوامل إلى أن تفقد وسائط كلاوس فعاليتها، كوجود المواد الهيدروكربونية المصاحبة، ولا سيما الأولفينات والمواد العطرية (البنزن والتولوين والزيلين)، مع ميل الغازات المرة إلى تشكيل الفحم البترولي على وسائط كلاوس نظراً للتكسير الحراري في وضعية التدفق المنقسم.

وتنتج معامل معالجة الغاز وفرزه من الزيت ومرافق تجزئة الغاز الطبيعي السائل مئات الأطنان سنوياً من وسائط كلاوس المستهلكة، وذلك نظراً لكثرة استبدال قواعد وسائط الألومينا. وفي حالات كثيرة يجري التخلص من الوسائط الكيميائية المستهلكة بتقنية كلاوس بدفنها في



المواد المحفزة المعدمة «مواد عديمة الفائدة»

إسمنت بورتلندي منتج من مواد عديمة الفائدة

مـردم. وتكون تكلفة ردم وسائط كلاوس منخفضة عموماً إذا كانـت الأراضي متوافـرة ورخيصة حيث يتركز إجمالي التكلفة في عملية النقل.

ووفـرت الأنظمة الوطنية والدولية فرصـاً وحوافز اقتصادية متزايـدة لقطاعـي البتـرول والغـاز لتنفيـذ برامـج خفـض النفايـات لتحسيـن البيئـة. فعلى النطـاق الدولـي، ازدادت الحوافـز لتقليل النفايات عـن طريق حظر التخلص مـن نفايـات الصناعـات النفطية غيـر المعالجـة بطرحها في الأرض. ونظراً لازدياد تعقيد إدارة التخلص مـن النفايات وتكلفتها، أصبح خفض النفايات أولوية مهمة للصناعة والحكومة.

يمكن تحقيق خفض نفايات العمليات الصناعية التي يتوجَّب التخلص منها عن طريق إيجاد استخدامات جديدة وغير متوقعة للنفايات

ويمكـن تحقيـق خفض نفايـات العمليـات الصناعيـة التي يتوجَّـب التخلص منها عن طريق إيجـاد استخدامات جديدة وغيـر متوقعة للنفايات. ويستخـدم الوسيـط المستهلـك كمـادة خـام فـي صناعة الإسمنت البورتلندي.

يُصنـع الإسمنـت البورتلندي المكون من الجيـر والألومينا والحديد والسيليكا عن طريق حرق جميع هذه المواد بنسب محددة مسبقـاً في الفرن الرحوي في درجات حرارة عالية جداً تتراوح بين 1450 و 1500 درجة مئوية.

$CaCO_3$ (حجر جيري) ← $CaO + CO$

$Ca_2SiO_4 + Ca_3Al_2O_6$ ← $7CaO + Al_2Si_2O_7$

ويعـرف المنتـج المشكَّل فـي الفرن باسـم «الخبث»، حيث يتـرك ليبرد ثم يُطحن ليصبح مسحوقاً ناعماً وتضاف إليه نسبـة صغيرة من الجبـس أو مشتقاته (4 - 5%). ويعرف هذا المسحوق المخلوط جيداً بالإسمنت البورتلندي.

ويـؤدي استخـدام الوسائـط المستهلكـة فـي إنتـاج الإسمنـت البورتلنـدي إلـى فوائـد عظيمـة الأثر من ناحية الحفـاظ على البيئة وخفض التكلفة لأن حجم تصنيـع الإسمنت واستخدامه فـي المناطق التي تنتج فيهـا الوسائط المستهلكة مـن المرجح أن يكون كافياً لاستخـدام كل هـذه النفايـات أو جـزء كبيـر منهـا، وبالتالـي انتفـاء الحاجة إلـى التخلص مـن الوسائط المستهلكة في المرادم.

إجراءات مخبرية

نظـراً للقلق المتزايـد من التلـوث البيئي، أجريـت دراسة شاملة عن استخدام الوسائط المستهلكة بتقنية كلاوس في تصنيع الإسمنـت، وتمثلت التجارب في مهمتين باستخدام تقنيات مختلفة كما هو مبين أدناه:

المهمة الأولى

حُللـت أربـع عينات مـن وسائـط مستهلكة بتقنيـة كلاوس باستخدام قياس طيـف أشعة إكس الاستشعاعي عن طريق طحن جميع العينات في الرحى العقيقي بدرجة نعومة بلغت 100 شبيكـة تقريباً ثـم خلطت جيداً قبـل تعريضها لأشعة إكس. (الجدول رقم 1).

وأعـدت أربعـة تصاميم إسمنـت مختلفة باستخـدام أربع عينـات مختلفـة لوسائط مستهلكـة بتقنية كلاوس تتألف غالباً مـن الألومينا (الجدول 1) ممزوجة بالحجر الجيري والرمـل والطين وخـام الحديـد. وأعدت العينـة الخامسة من مـواد خام تقليديـة لإنتاج خمسـة أنـواع نموذجية من إسمنـت الولايات المتحدة النوع v (الجـدول 2). وأجريت

الجدول رقم 1: تركيبة أربعة وسائط مستهلكة بتقنية كلاوس حسبما استلمت (% الوزن)

	العينة 1	العينة 2	العينة 3	العينة 4
المركب	% الوزن	% الوزن	% الوزن	% الوزن
SiO_2	<.01	<.01	<.01	0.01
Al_2O_3	83.74	74.84	75.31	74.35
Fe_2O_3	<.01	<.01	<.01	<.01
CaO	0.09	0.08	0.07	0.08
MgO	0.23	0.20	0.20	0.20
SO_3	0.09	0.27	0.29	0.20
Na_2O	0.28	0.25	0.26	0.25
K_2O	<.01	<.01	<.01	<.01
TiO_2	<.01	<.01	<.01	<.01
P_2O_5	<.01	<.01	<.01	<.01
Mn_2O_3	0.01	0.01	0.01	0.01
SrO	0.02	0.02	0.02	0.02
Cr_2O_3	01.>	01.>	01.>	01.>
ZnO	0.01	0.01	0.01	0.01
(950 درجة مئوية) L.O.I.	15.54	23.99	23.61	24.44
المجموع	100.01	99.66	99.77	99.56



الجدول 2: نسب خلط الخام بالغرام

	الخلطة التقليدية	الخلطة الأولى	الخلطة الثانية	الخلطة الثالثة	الخلطة الرابعة
حجر جيري	1287	1362	1365	1365	1365
طين	232	0	0	0	0
خام الحديد	26	35	35	35	35
رمل	0	113	113	113	113
وسيط كلاوس	0	30	30	30	30
المجموع	1545	1540	1543	1543	1544

الجدول 3: التركيب المعدني المتوقع للخبث (%)

	النطاق النموذجي	الخلطة التقليدية	الخلطة الأولى	الخلطة الثانية	الخلطة الثالثة	الخلطة الرابعة
C_3S	43 إلى 70	60.0	60.0	61.9	60.8	60.0
C_2S	11 to 31	16.6	16.3	16.0	16.1	17.0
C_3A	0 to 5	3.6	4.0	4.3	4.3	4.3
C_4AF	10 to 19	10.9	10.9	12.1	12.2	12.2

الجدول 4 : تركيبة الإسمنت الكيميائية، % الوزن

	الخلطة التقليدية	الخلطة الأولى	الخلطة الثانية	الخلطة الثالثة	الخلطة الرابعة
Si_2O	20.44	20.85	20.41	21.11	21.54
Al_2O_3	3.47	4.22	4.07	4.18	4.20
Fe_2O_3	3.61	4.00	3.98	4.07	4.10
CaO	64.32	63.76	64.86	63.98	63.69
MgO	2.34	1.90	1.87	1.94	1.98
SO_3	2.56	2.49	2.56	2.60	2.59
Na_2O	0.20	0.09	0.09	0.09	0.10
K_2O	0.31	0.26	0.25	0.26	0.25
TiO_2	0.21	0.13	0.13	0.14	0.14
P_2O_5	0.03	0.02	0.02	0.02	0.02
Mn_2O_3	0.04	0.04	0.04	0.04	0.04
SrO	0.04	0.04	0.04	0.04	0.04
Cr_2O_3	<.01	<.01	<.01	<.01	<.01
ZnO	<.01	<.01	<.01	<.01	<.01

هذه التجارب في مختبر إسالة الفحم في الولايات المتحدة الأمريكية.

ووفقاً للجدول 2، سحقت المواد وخلطت وطحنت في طاحونة مصنوعة من الفخار بنعومة بلغت نسبتها 85% ومررت عبر غربال مقاسه 76μ. وأعدت قوالب سعة كل منها حوالي 100 غرام بمكبس كرافر هيدروليكي. وسخنت العينات مسبقاً إلى 900 درجة مئوية وحرقت في درجة حرارة 1450 درجة مئوية في فرن بلوإم مرتفع الحرارة.

بعد حرقها، سحقت قوالب الخبث (الجدول 3) وطحنت بنعومة 340 م^2 /كغم وأضيف إليها 5% من جبس التيرا ألبا. وحلل الإسمنت الناتج بطيف أشعة إكس الاستشعاعي (الجدول 4).

واختبرت عينات الإسمنت الناتجة من حيث قوة الضغط في مكعبات الملاط وفقاً لمعيار سي 109 للجمعية الأمريكية للاختبارات والمواد المبينة في الجدول (5).

المهمة 2

قُيمت قابلية احتراق الخلائط الخمسة المبينة أعلاه وفقاً للمعادلات التي وضعها إف إل سميدث على النحو التالي:

(1)

FL1400 =0.31(LSF-l00) + 2.18(Ms-l.8) + 0.73Q45+ 0.33C125 + 0.34A45

(2)

FL1500 = 0.2l (LSF-l00) + l.59 (Ms -l.8) + 0.40Q45+ 0.22C125 + 0.08A45

الجدول 5: قوة مكعب الملاط

	الخلطة التقليدية	الخلطة الأولى	الخلطة الثانية	الخلطة الثالثة	الخلطة الرابعة
3 أيام	2440	2280	2260	2380	2450
7 أيام	3620	3080	3140	3010	3300
28 يوماً	4620	4670	4630	5020	5210

الجدول 6: أحجام الجسيمات في الخلائط الأولية:

	الخلطة التقليدية	الخلطة الأولى	الخلطة الثانية	الخلطة الثالثة	الخلطة الرابعة
البقايا الأكبر من µm125	1.4	5.8	6.3	6.0	6.2
الكالسايت في البقايا	76.3	50.3	54.3	55.3	56.3
الكالسايت الأكبر من µm125 في إجمالي البقايا	1.1	2.9	3.4	3.3	3.5
بقايا أكبر من µm45 (مغسولة بالحمض)	5.2	9.7	9.4	10.2	10.1
بقايا الكوارتز	26.6	36	42.3	38.6	29
الجزيئات غير القابلة للذوبان في الحمض الأكبر من µm125 في البقايا	73.4	64	57.7	61.4	71
الكوارتز الأكبر من µm125 في إجمالي البقايا	1.4	3.5	4	3.9	2.9
الجزيئات الأخرى غير القابلة للذوبان في الحمض الأكبر من µm125 في البقايا	3.8	6.2	5.4	6.3	7.2

الجدول 7 : مؤشر قابلية الاحتراق الفعلي للخلائط:

	الخلطة التقليدية	الخلطة الأولى	الخلطة الثانية	الخلطة الثالثة	الخلطة الرابعة
1400	2.87	5.81	6.07	6.27	5.91
1500	1.32	2.75	3.00	3.01	2.72

الجدول 8 : محتوى الجير الحر في العينات المحروقة

	الخلطة التقليدية	الخلطة الأولى	الخلطة الثانية	الخلطة الثالثة	الخلطة الرابعة
1350	0.76	1.48	2.26	1.54	1.5
1400	0.42	0.72	0.69	0.58	0.74
1450	0.35	0.50	0.51	0.43	0.60

حيث أن:

FL1400 = «مؤشر قابلية الاحتراق الفعلي» أو محتوى الجير الحـر المتوقع في الخبث التجـاري المحروق بدرجة حرارة 1400 درجة مئوية.

FL1500 = نفسه، بدرجة حرارة 1500 درجة مئوية.

LSF = معامل تشبع الحجر الجيري

MS= نسبة السيليكا

Q45= نسبة المرو الأكبر من µm45

C125 نسبة الكالسايت الأكبر من p.m=125

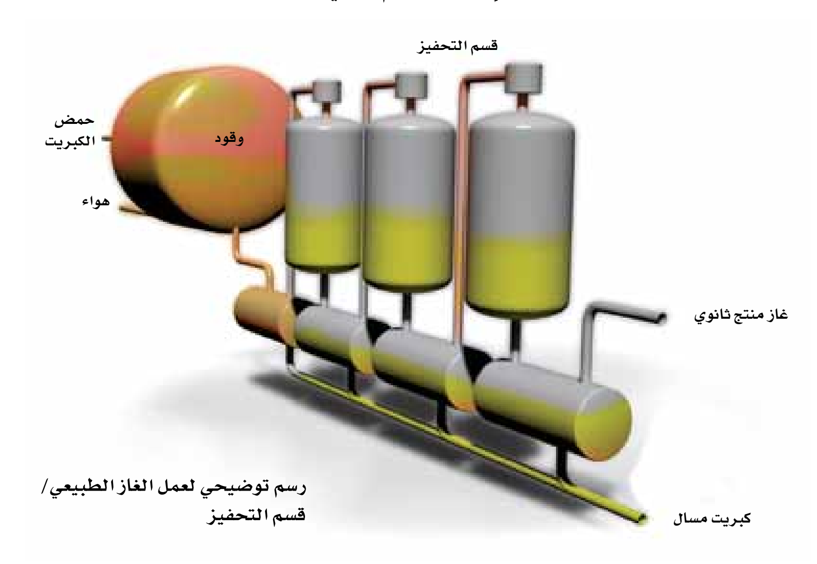
A45 نسبـة الجزئيـات غير القابلـة للذوبـان الأكبر من= µm45

وتكمـن أهميـة هـذه المعادلـة فـي إمكانية تقييـم أثر التغييـرات المحتملـة علـى 1) التركيـب الكيميائـي أو 2) التركيـب المعدنـي والصفـاء أو 3) كلا الأمريـن معـاً. واستخدمنا في هـذه المهمة المنهجيـن التحليلي والتجريبي (المباشر).

ولتحديد المعايير المتضمنـة في المعادلتين (1) و (2)، استخدمـت المعايير الكيميائية (عامل تشبع الجير ونسبة السيليـكا) الناتجـة عـن التحاليـل الكيميائيـة. ولقياس أحجـام الجزيئـات، غُربلـت المـواد بغرباليـن شبكييـن مقاس 120 و 325 (µm125 وµm45) علـى التوالـي). وعولجت البقايا الأكبر مـن µm45 بحامض الخليك لحل الجزيئـات الجيرية. وفحصت البقايـا مجهرياً بتقنية عد النقاط (الجدول 6). ونتائج العمليات الحسابية مبينة في الجدول رقم 7.

وجـرى تحديد الجيـر الحـر المباشر بأحـد الإجراءات التاليـة: جهزنـا كريـات أوليـة بحجـم 13 ملـم تقريبـاً وجففناهـا ثـم أعدنـا تكليسها عنـد 900 درجـة مئوية. وأحرقنا الكريـات في فرن كهربائي تبلـغ حرارته 1350 و1400 و1450 درجة مئوية لمدة 20 دقيقة. وجرى تحليل محتـوى الجير الحـر المحترق بوصفه المعيـار الرئيسي لخلاصة الجير (الجدول 8).

من الضـروري عند تحليل البيانات مـن الجدولين 7 و8 أن نأخـذ بعين الاعتبار أنه نظراً لظروف الحرق المختلفة بين الفـرن التجاري وفـرن المختبر، فإن قيـم قابلية الاحتراق الافتراضـي في الجدول رقـم 7 لا تتطابق مـع الجير الحر الفعلـي في الجدول 9، ولكنها تبيِّـن بوضوح توجهات قابلية احتراق الخلائط. وفـي الواقع، أنتجت جميع عمليات حرق الخلائـط التجريبيـة نتائج مقبولـة بالتسـاوي، إلا أنه من الواضـح أن الخليط التقليدي يمتلـك خصائص أفضل في القابلية للاحتراق، لأن جسيمـات الكوارتز والسليكات أدق حجمـاً. وعموماً يؤدي ضعـف قابلية الكوارتـز للطحن إلى



رسم توضيحي لعمل الغاز الطبيعي/ قسم التحفيز

ضـرورة طحن المجموعات الأوليـة التي تحتوي على الرمل والمكونـات المشابهـة إلـى جزيئـات أدق لتجنب مشكلات الحرق.

استعراض النتائج

يظهر التحليل بطيـف أشعة إكس الاستشعاعي (الجدول 1) الـذي أجـري لأربـع عينـات مختلفـة مـن وسائـط مستهلكـة بتقنية كلاوس أنها تتكون غالباً من الألومنيوم والكربـون والكبريـت والهيدروكربون وآثـار معادن. كما يظهـر التحليل أن العينـة «أ» تحتوي علـى نسبة مرتفعة من أكسيد الألومينا ونسبـة أقل من الكربون والمنتجات الهيدروكربونية مقارنة ببقية عينات الوسائط المستهلكة بتقنية كلاوس .

واختبـرت عينـات الإسمنـت الناتجـة المعدة مـن خمسة تصاميـم إسمنتيـة مختلفة لمعرفة مدة قـوة الضغط وفقاً لمعيار سـي 109 للجمعية الأمريكية للاختبـارات والمواد. وتظهر البيانات الـواردة في الجدول رقم 5 بعض التغيرات في قوة عينات الإسمنـت، ولكن هذه التغيرات ليست كبيرة ويمكـن اعتبار العينـات متشابهة. كما أنه مـن الواضح أن الاستعاضة عن الطين بمزيج المنتجات المصاحبة والرمل لم يؤثر سلباً على أداء الإسمنت.

وأُجـري تحليـل آخر لتقييـم قابلية الاحتراق فـي تصاميم الخلائـط الأربعـة. وقابليـة الاحتـراق هـو المصطلـح المستخدم لتفاعل المادة الموضوعة في الفرن فيما يخص تشـكل معادن الخبث خلال عملية الحـرق، وعادةً ما يقاس بمقـدار محتوى الجير الحـر في الخبث. وكلمـا انخفضت درجـة الحـرارة التـي يمكن مـن خلالهـا الحصـول على الجير الحـر المطلوب، أصبحت قابليـة احتراق المادة في الفرن أفضل. وتبيِّن نتائـج التحليلات أنه نظراً للاختلاف الكبيـر بيـن ظروف الاحتراق فـي الفرن التجـاري والفرن المخبـري، فإن قيـم قابلية الاحتـراق الفعلي فـي الجدول رقـم 7 لا تتطابق مع الجير الحر الفعلي في الجدول رقم 8، ولكنها تبيِّن بوضوح توجهات قابلية احتراق الخلائط . وفي عمليات الحـرق التجريبية، أظهرت جميـع الخلائط نتائج مقبولة بالتساوي. ومع ذلك، تشير البيانات إلى أن الخليط التقليدي يمتلك خصائص قابلية احتراق أفضل نظراً لدقة جسيمات الكوارتز والسيليكات. وعموماً يؤدي ضعف قابلية الكوارتز للطحن إلى ضرورة طحن المجموعات الأولية التي تحتوي على الرمـل والمكونات المشابهـة إلى جزيئات أدق لتجنب مشكلات الحرق.

الاستنتاجات

تبيِّن هذه الدراسة البحثية ما يلي:
يمكـن استخـدام الوسيـط المستهلـك بتقنيـة كلاوس كمـادة خام دون أيـة معالجة مسبقة فـي صناعة الإسمنت البورتلندي. كما أن من المتوقع أن يؤدي استخدام الوسيط الكيميائـي المستهلـك بتقنيـة كلاوس لصناعـة الإسمنت البورتلندي إلى فوائد بيئية واقتصادية كبيرة.



قصة ابتكار

الضمادة اللاصقة

طالمـا أحبـت جوزفين ديكسـون زوجهـا، لذا لم يكن مسـتغرباً أن تعبِّر عـن حبها لزوجها إيرل بإعداد ما لذ وطاب من الأكل والشرب، فقد كانت شغوفة بالطبخ وبارعة في تحضير الأطبـاق المختلفـة الشـهية، إلا أن القصـة لا تنتهي هنـا، فقد تعودت جوزفين أن تؤذي نفسـها في المطبـخ، فتـارة تقطـع إصبعها، وتارة تحـرق يدها، حتى اعتـاد زوجها علـى كثرة إصـابات زوجته، ومعالجتها من تلك الحروق والإصـابات بما يتوافر لديه من مواد بدائية يوفرها من عمله عندما كان مسـؤولاً عن شـراء القطن في مصنع جونسون آند جونسون، المصنع الذي حقق نجاحاً كبيراً منذ أن أسسه وود جونسون عام 1886م في مجال إنتاج الأدوية الطبية ومستلزمات الإسعاف الأولي.

وهـو مـا دعـاه لاحقاً للتفكيـر في حلـول أكثر عمليـة، تريحه من عنـاء معالجة زوجتـه كل مرة، إذ كان يضـع الشـاش على الجرح، ثم يضـع فوقه شـريطاً لاصقاً لتثبيت الشـاش، لكن سرعان ما يقع الشـاش أثناء عملها وقيامها بإعداد الطعام وأعمال المنزل، لهذا فكَّر إيرل باختراع ضـماد يسـتمر لفترة أطول ويحمي الجروح الصـغيرة بشـكل أفضـل وتسـتطيع زوجته اسـتخدامه بنفسـها ودون مسـاعدة منه. حيث أحضـر إيرل الشـاش وثبته في منتصـف الشـريط وغطاه بالقرينول لإبقائه نظيفاً ومعقماً.

رأى إيرل جدوى هذه الفكرة ونجاحها، فقام بشـرح فكرة الضـماد لمدير مصـنع «جونسـون آنـد جونسـون» الـذي أعجبتـه الفكـرة ، لا سـيما وأن الضـماد ذاتـي الاستعمال ويمكن للشخص الجريح أن يضعه فوق الجرح خلال 30 ثانية، وبهذا قرر المدير إنشاء خط إنتاج للضمادات اللاصقة.

في البداية تم تصنيع الضماد يدوياً ولم يلق رواجاً كبيراً فقامت الشركة بتقديم كميـات كبيـرة من الضـمادات للمخيمات العسـكرية كنوع من الدعايـة، وفي عام 1924م بدأ تصنيع الضمادات آلياً حيث تم تصنيع أول آلة لإنتاج الضمادات تحت اسـم band-Aid التـي أصـبحت علامـة تجارية لخط إنتاج شـركة جونسـون آند جونسون من الضمادات اللاصقة والمنتجات الطبية المشابهة. وقد انتشرت في أستراليا والبرازيل وكندا والهند والولايات المتحدة حيث كانت التكلفة الأصلية للضـمادات سـنْتَان اثنان مقابل حزمة تضـم 15 ضـمادة. وأثناء الحرب العالمية الثانية قامت شـركة جونسـون بشـحن ملايين الضمادات للمشـافي والمخيمات الطبية المنتشرة.



وقد أدى هذا النجاح الكبير لفكرة إيرل ديسكون الذي أراد مساعدة زوجته فقط، إلـى نجـاح كبير في سـيرته المهنيـة وترقيته في العمل حيث أصـبح نائب رئيس المصنـع قبـل أن يتقاعـد سـنة 1957م، بينما تابعت ضـماداته نجاحها الإنسـاني والتجاري فأصـبحت في سـنة 1951م تنتج وعلى غلافها رسـوم متنوعة كسـوبر مان وسبايدر مان وباربي وبات مان وغيرها من الشخصيات المحببة.

كما أنتجت الشـركة مجموعة من المنتجات تحت نفس اسـم العلامة التجارية band-Aid وتشـمل ضـمادات سـائلة وضـمادات لشـفاء الندوب وضـمادات فليكس العملية والتي جاءت بأشكال مختلفة لتشكل حاجزاً مملوءاً بسائل يساعد على التئام الجروح بشكل أسرع، كما تم إنتاج لصاقات مقاومة للماء لتبقى لفترة أطول ومرهم للحروق.

قصة مبتكر

أبو التكييف
ويليس هيلاند كاريير

لا يعتبر مفهوم التكييف بحد ذاته فكرة حديثة. فللإنسان تاريخ عريق وحلول قديمة في معالجة الحرارة والطقس القاسي، ولقد عرف مفهوم التكييف منذ نشوء روما القديمة حيث كانت تمد قنوات لجر المياه عبر جدران بعض المنازل لتبريدها، وكذلك في بلاد فارس في القرون الوسطى كان هناك تقنيات مشابهة، حيث استخدمت صهاريج وأبراج الرياح لتبريد الأبنية خلال الفصول الحارة، إلا أن المكيفات الحديثة بدأت بالظهور مع التقدم في الكيمياء خلال القرن التاسع عشر، وجرت محاولات عدة لتطوير مفهوم التكييف إلى أن جاءت سنة 1902م وتم اختراع أول مكيف هوائي كهربائي واسع النطاق على يد ويليس هافيلاند كاريير.

ولد المهندس والمخترع الأمريكي كاريير سنة 1873م، وبعد تخرجه في جامعة كورنيل بشهادة ماجستير في الهندسة عمل كاريير موظفاً بمرتب زهيد في إحدى المطابع في بروكلين. وأثناء عمله واجهته مشكلة نتيجة التقلبات في درجة الحرارة والرطوبة في المطبعة مما أدى لإحداث تغييرات طفيفة في أبعاد ورق الطباعة، الأمر الذي نتج عنه وجود خلل في رصف الحبر الملون. في إحدى الليالي الضبابية عندما كان ينتظر القطار ويفكر بطريقة لحل تلك المشكلة جاءته تلك الومضة العبقرية لدى وصول القطار، حيث فهم كاريير العلاقة بين الحرارة والرطوبة والندى فبدأ عندها بإجراء تجارب اعتمد فيها على خبرته بتسخين المواد بالبخار وقام بعكس العملية، فبدلاً من إرسال الهواء عبر أسلاك حارة قام بإرسالها عبر أسلاك باردة. فوضع بذلك أول مكيف هواء للتحكم بدرجة حرارة المطبعة فأصبح بالإمكان تنظيم الألوان الأربعة لحبر الطباعة. وبعد عدة سنوات من الاختبار والتحديث نال كاريير براءة اختراع على الجهاز الذي أطلق عليه اسم جهاز معالجة الهواء، حيث تقدَّم كاريير لمجمع المهندسين الميكانيكيين الأمريكيين بمعادلة قياس رطوبة الجو التي مازالت حتى اليوم أساساً في جميع العمليات الحسابية الخاصة بصناعة تكييف الهواء مما جعل السلطات تعترف ببراءة اختراعه وتعتمد أربعة شروط يجب توافرها في المكيف وهي التحكم بدرجة الحرارة والرطوبة والتحكم بدوران الهواء والتهوية وتنقية الهواء. وكانت أول براءة اختراع يحصل عليها ويليها فيما بعد عدة براءات اختراع.



وفي عام 1921م حاز على براءة اختراع آلة تبريد الطرد المركزي وهو نظام تبريد للمساحات الكبيرة. ثم في سنة 1924م بدأ الطلب على التبريد من أجل الاستخدام المنزلي بعد أن كان للاستخدام الصناعي فقط. حيث لوحظ توافد الزبائن على مخزن هدسون المكيف بمبردات الطرد المركزي في مدينة ديترويت بولاية ميشيغان، فانتشرت الطفرة في تبريد الإنسان من المحلات إلى صالات السينما ولا سيما في مسرح ريفولي في نيويورك حيث ارتفعت عائدات الصيف بشكل كبير عند الإعلان عن توافر خدمة التبريد. وبهذا ازداد الطلب على وحدات تبريد أصغر من شركة كاريير الهندسية، المتخصصة بتحسين تقنية تكييف الهواء، والتي أنشأها كاريير مع ستة من زملائه المهندسين، والتي تمكنت بفترة قصيرة من تحقيق مبيعات كبرى حيث تجاوزت مبيعاتها سنة 2007م، 15 مليار دولار وتجاوز عدد موظفيها 45000 موظف.

صحيح أن كاريير لم يخترع أول نظام تبريد في العالم، لكن نظامه كان أول نظام ناجح وآمن وبداية لعلم التبريد الحديث. لهذا لُقِّب بأبي التكييف لأن اختراعه أدى لازدهار الصناعة، كصناعة الأفلام واللحوم والتبغ والأدوية والمنسوجات وغيرها من المنتجات، من خلال إيجاد طريقة للتحكم بمستوى الحرارة والرطوبة خلال وبعد عملية الإنتاج، فضلاً عن الرفاهية التي حصل عليها الإنسان من خلال التحكم بدرجة حرارة منزله وسيارته ومكان عمله.

التقنية والنموّ النفسي

أوضحت دراسة جديدة أن استعمال الشباب للتقنية لا يعني التقليد الببغائي، فالصغار والشباب لا يستعملون الهواتف الخلوية والشبكة الدولية لمجرد التجانس مع المجتمع بل لتعزيز الشعور بالإنجاز. وقد استُقيت المعلومات من مسح بالهاتف أجرته مؤسستا أبحاث السوق Child's Play Communications وInsight Research Group وشارك فيه 500 من الصغار الذين تتراوح أعمارهم ما بين 8 و17 عاماً وأحد الأبوين من كل عائلة. وتبين أن الشباب مولعون بالإنترنت والوسائل الأخرى لأنها «تمنحهم إحساساً بالتفوق وتمكّنهم من استكشاف مهارات جديدة» على حدّ تعبير Stephanie Azzarone مدير مؤسسة Child's Play.

واعتبر 78% من عيّنة الدراسة أنفسهم في مستوى «جيّد» في مجال البحث عن المعلومات في الشبكة، وقال 14% منهم إن لديهم صفحات الشبكة الخاصة بهم وكذلك الصحف على الهواء المعروفة بِـ blogs وفيها عادة أفكار وتعليقات على الأحداث اليومية ومعها روابط links لمواقع الشبكة الأخرى. وكشفت الدراسة أن 54% قالوا إن صفحات الشبكة الخاصة بهم تمكّنهم من نقل المعلومات الشخصية التي يحرجهم التعبير عنها مواجهة وبصراحة. كما اعتقد 80% أن هذه الصفحات ساعدت الآخرين على أن يتفهّموهم بشكل أفضل. وكان لدى 11% من المراهقين صفحات خاصة بهم، أما الصغار ممن أعمارهم بين 8 و12 سنة فقد توافرت صفحات خاصة لنسبة 2% منهم فقط.

ومن بين أولئك الذين أنشأوا صفحات خاصة بهم قال 88% إنهم فخورون بقدراتهم، واعتقد 82% منهم أنهم تعلموا بسهولة كيفية استعمال التقنيات الجديدة. وعلى عكس ما يشاع عن مستعملي الإنترنت الشباب من أنهم منعزلون قال 58% من عينة هذه الدراسة إنهم تعرفوا إلى أصدقاء جدد على الشاشة، ولكن صرّح 60% منهم بأنهم ضعيفو الثقة بأنفسهم.

ويوصي Azzarone الوالدين بأن «يعوا أهمية التقنية للصغار في هذه السنّ. وبدلاً من أن تكون التقنية ذات أثر سلبي على الصغار يمكنها أن تكون إيجابية التأثير على نموّهم النفسي وتجعلهم يحسّون بكيانهم».

واعترفت Heather Lawver، (عمرها 18 سنة)، من فرجينيا أن الشبكة الدولية كانت طريقة ناجحة لنشر عبقريتها الأدبية، ومكّنتها من التعرف إلى مئات الأصدقاء في العالم، فقد انضمت إلى الشبكة منذ سنوات سبع وأخذت ترسل على الهواء الصور والأعمال الفنية ونتفاً من بدايات لرواياتها (In Sane)، وتقول: «قدّمت لي الإنترنت ندوة للتشاور والمشاركة في الآراء جعلتني أحس بمزيد من الثقة في مقدرتي على الكتابة».

وفوق ذلك منحت الشبكة Lawver جوّاً من التأثير أعظم مما حلم به معظم الشباب قبل عصر الإنترنت. وبدأت في سنة 2000 تنشر The Daily Prophet في موقع Harry Potter الذي كسب الجائزة، وعندما أرسلت مؤسسة Warner خطابات منع وتحذير لأصحاب مواقع Harry Potter الأخرى التي تتهمها بالتعدّي على ملكيّاتها الأدبية سنة 2000 أسهمت Lawver في حملة الدفاع ضد الفنون المنتحلة، وهي جهود في الإنترنت نظمت مقاطعة عالمية لمنتجات Potter، ولكن نجاح الحملة بعد ذلك جعل هذه الشركة الإعلامية توقف رسائل التهديد.

تلقّت Lawver دراستها في منزلها، وهي تدرك أن استخدامها للإنترنت جعلها على اتصال منتظم بحوالي 250 شخصاً من مختلف الأعمار والأعراق في كل أنحاء العالم. تقول: «لقد تعلّمت أكثر بكثير مما كنت سأتعلمه لو بقيت في حجرة الدراسة».

هنالك نتائج أخرى مهمّة توصّل إليها مسح جديد عن الشباب الذين يستعملون الإنترنت صدر عن مؤسستي البحث المذكورتين: 71% يقولون إنهم يستخدمون الإنترنت ليواصلوا الاطّلاع على ما حولهم، و65% يقولون إنهم يشعرون برضا وثقة أكبر بعد ممارسة الألعاب على الشاشة، و47% يقولون إنهم يشعرون بثقة أكبر بعد الثرثرة chat على الهواء، و 48% يقولون إنهم فخورون بقدرتهم على الاستماع المتواصل لأقراص CD الموسيقية (معدل الخطأ: +/- 4.2%).

إبراهيم سعيد أبو صيام

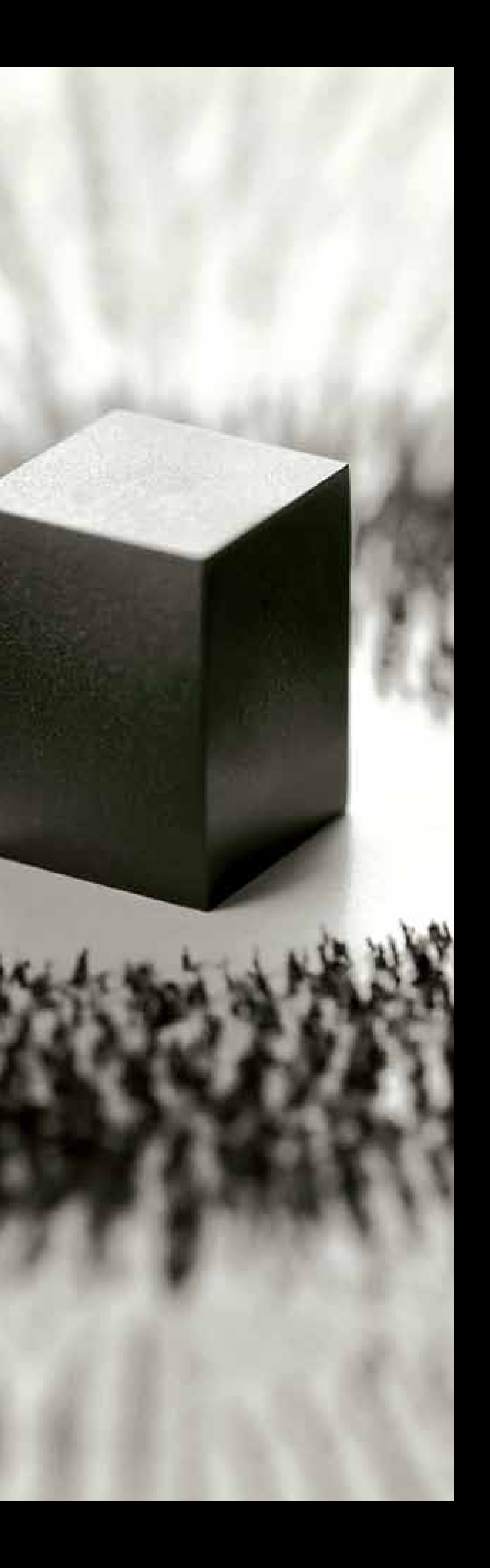
الفاصل المصوّر

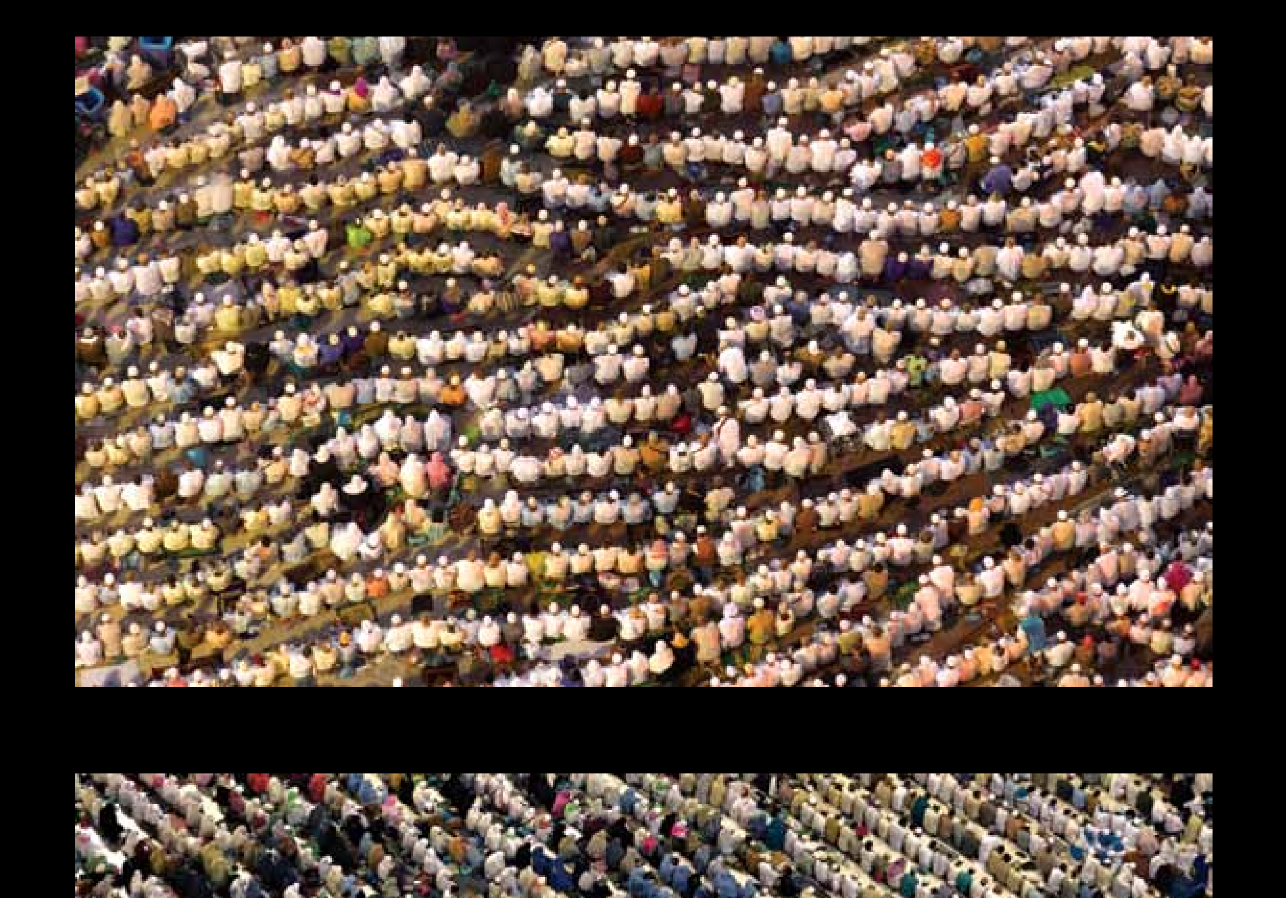
أحمد ماطر

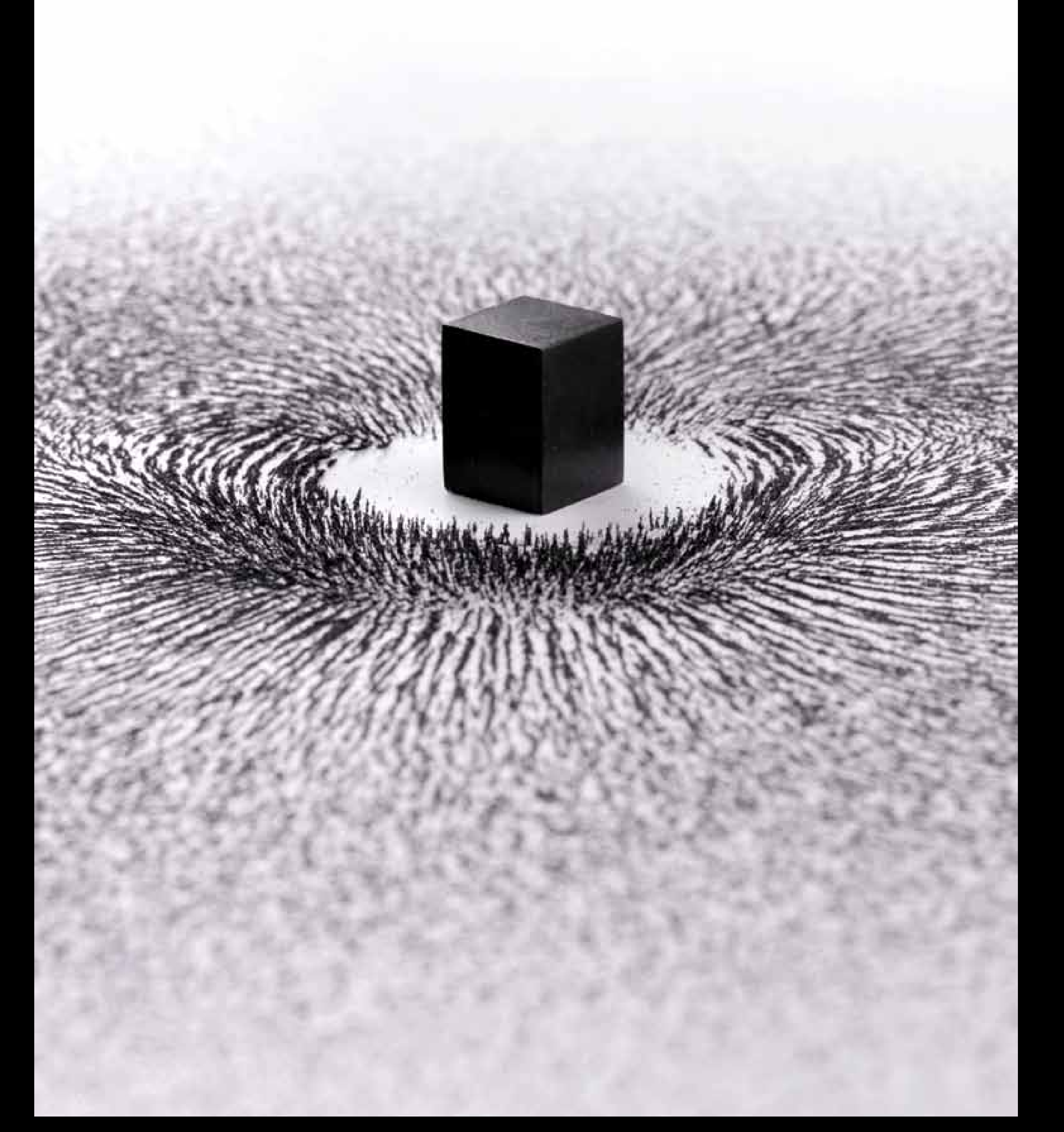
ألقى الفنان نقطة من الحبر
على صفحة بيضاء
كبداية القول ونهايته،
فإذ بها
وسط كل شيء.

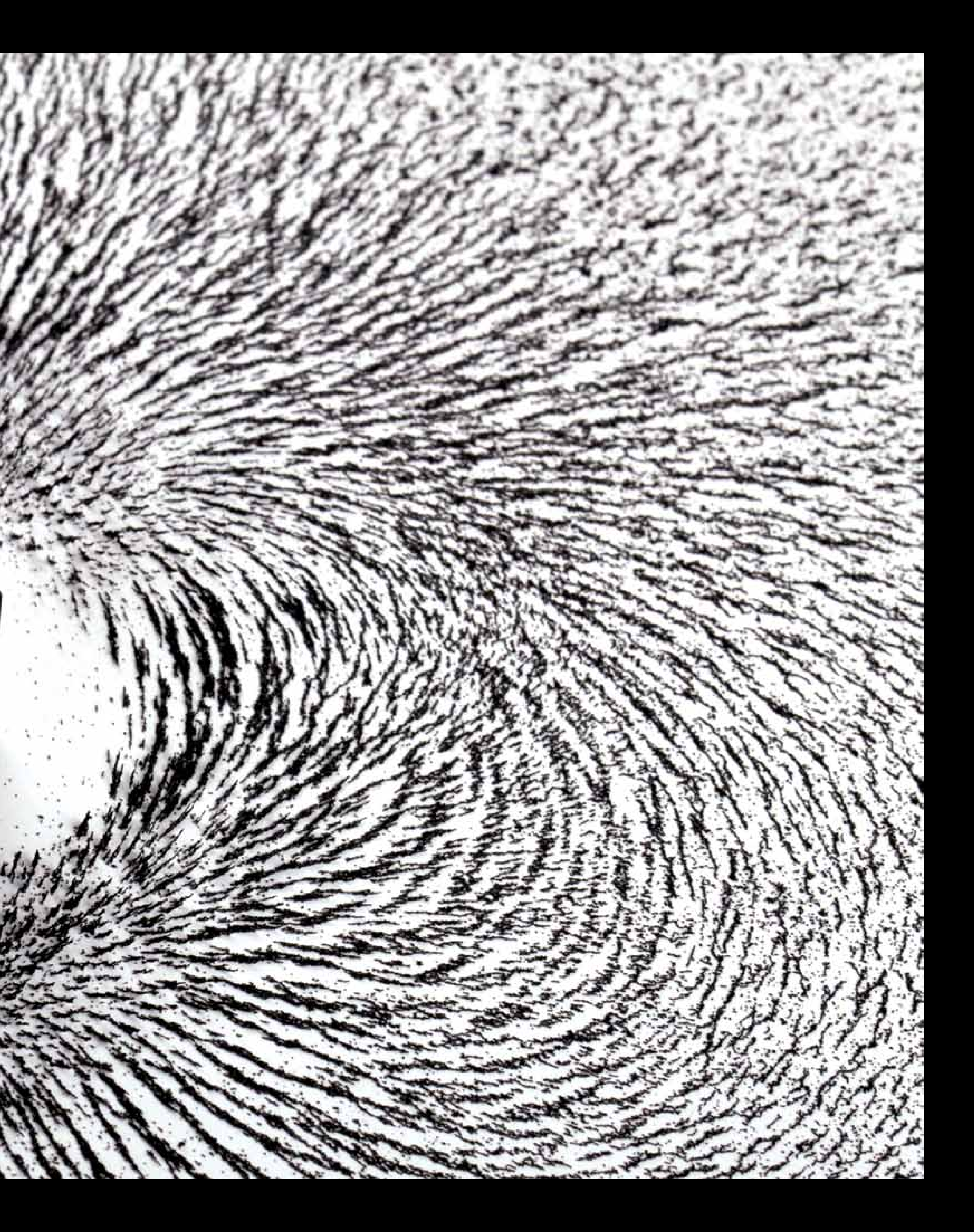
حجر زاوية هي،
وكيف لحجر الزاوية
أن يكون في الوسط؟

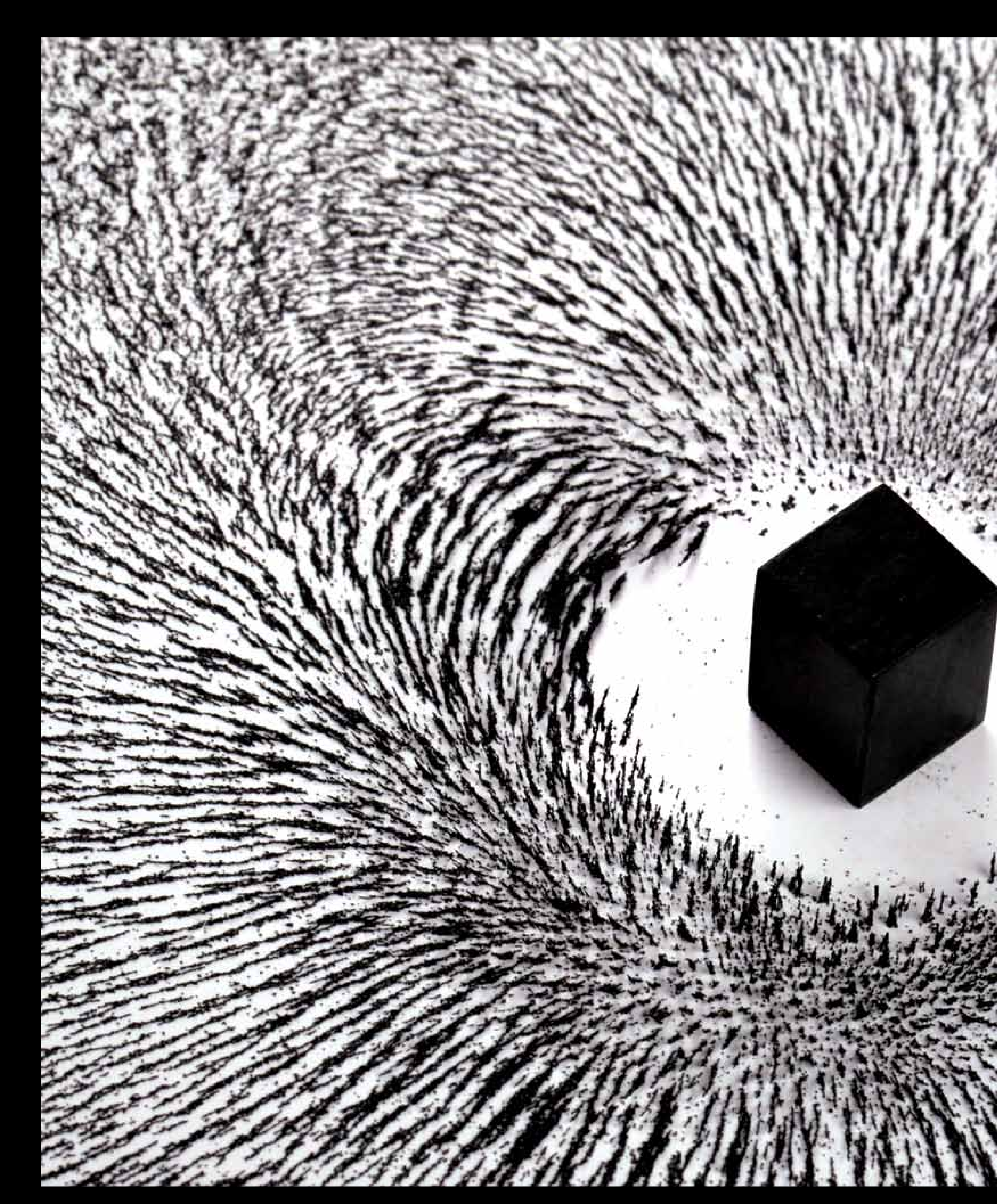
تتهافت نحوها النفوس
كنثر الحديد نحو الكتلة
الممغنطة
هكذا صوّرها!
وهي التي
تشدّ إليها الرحال
وتلوح نحوها الأكف..
والأفئدة.













أحمد ماطر

أحمد ماطر آل زياد عسيري (مواليد 1979) هو أحد أشهر الفنانين السعوديين الشباب، وله مجموعة من الأعمال الفنية المتميزة منها البقرة الصفراء، وتطور إنسان، والمغناطيسية التي عُرضت في بينالي البندقية. وقد اقتنى له كل من المتحف البريطاني ومتحف لوس أنجلس للفنون، واستقى خبراته من خلال دراسته ومزاولته لمهنة الطب، ومن خلال نشأته في المملكة العربية السعودية، وتُناقش أعمال الفنان التي تجمع بين التصوير الفوتوغرافي، الخط، الرسم، التجهيز في الفراغ، الفيديو، سرديات وجماليات الثقافة العربية والإسلامية في عصر العولمة الذي ينزع حول القيم الاستهلاكية والتحويلات السريعة في كافة نواحي الحياة.

يعمل أحمد كطبيب في مدينة أبها وهو حاصل على البكالوريوس في الطب والجراحة من كلية الطب بجامعة الملك خالد في أبها.

حياتنا اليوم

هل كل أصدقائك على الفيس بوك وتويتر هم أصدقاؤك فعلاً، هل أصدقاؤك المشتركون بينك وبين أصدقائك هم أصدقاؤك أيضاً!! هل كل من تضيفهم وتدخلهم بيتك على شبكات المجتمع الافتراضي أو على مسنجر ياهو أو مسنجر الهوت ميل تثق بهم!! هل يهمك العالم الافتراضي وإلى أي حد!! ماذا تشعر عند فتح جهاز الكمبيوتر وانتظار ما يمكن أن تراه في مدونتك من آراء المعجبين من هنا أو هناك.. كل هذه الأسئلة من الممكن أن تدور في رأسك، ولكن لست وأنت أمام جهازك منشد الانتباه، بل وأنت تجلس في ساعة تأمل مع فنجان قهوة في بهو فندق تتأمل وجوه من يمرون أمامك، حينئذ ستلمس ضجة الأصدقاء معاً في عالم واقعي وحقيقي!!

كل هذه الأفكار هي مفاتيح لعالم لا نعرف عنه سوى أن نضغط على زر تشغيله ونغوص في أسلاكه، حيث لا رائحة في الأماكن، لا ممرات لا أحياء تذكرنا بالشوارع القديمة العتيقة كما تغني فيروز.

حياتنا الإلكترونية.. فواصلها أكثر من حروفها

إذن ما الذي يبقينا في هذه العوالم الافتراضية سوى فضاء أوجدناه، لن أقول فراغاً لأن من المحتمل أن يكون ثلاثة أرباع من يستخدمون العالم الافتراض هم الطبقة العاملة بمختلف شرائحها من رجال أعمال أو موظفين، ولا بأس أن أذكِّر هنا شريحة جديدة هم الأطفال فلكل طفل الآن إلى جانب الموبايل حساب على فيس بوك أو تويتر !!.

هنا لا أنكر عبقرية مارك جوكربيرج صاحب فكرة موقع الفيس بوك، إذ استطاع أن يدرك شغف الناس بالصداقة والتعارف وأن يكونوا في عالم خاص بهم يلتقون سريعاً ويمضون أسرع، مع أنه في البدء كان هذا الموقع مختصراً فقط على أصدقائه في الجامعة التي كان يدرس فيها، إذن السر في موقع اجتماعي كموقع الفيس بوك هو التواصل مع أناس لن تلتقي بهم في حياتك الواقعية، ولكن عليك تقبل ضريبة هذا العالم حيث لا حميمية فيه، فقط عليك الدخول بيدك اليمنى وضغط زر التشغيل!.

وما يجعلك تحب عالمك الافتراضي في بعض الأحايين هو انتماؤك إلى عالم أنت صنعته بنفسك ولم يفرض عليك، وأحياناً تتمنى لو أن هذا العالم بكل ما فيه من سهولة وقرب هو عالمك الواقعي، وربما معه تصبح الغاية تبرِّر الوسيلة، لأنه في سنوات قليلة أصبحت تلك العوالم الافتراضية أهم محرك متخصص في البحث عن الأصدقاء، معارف وأقرباء من بعيد، إضافة إلى البحث عن عمل جديد أو صديق لم تره منذ مدة وتبدأ بالبحث عنه، مع أن الأجمل من ذلك أن تقضي وقتاً في البحث عن صديق، تتبع أخباره من مكان إلى آخر، في هذه الحالة لن يكون لك إلا بطل واحد في قصتك المثيرة وهو البريد التقليدي، أما الآن بكبسة زر تجده فوراً، طبعاً، لا أخفي بأن التقنية ساعدتنا كثيراً في تسهيل حياتنا اليومية لدرجة البلادة، وبات الإيقاع السريع في حياتنا هو المقياس لكافة الأمور.

في الماضي كان تلقي رسالة ورقية لها رائحة ميناء أو طائرة اخترقت سحباً لتوصل رسائل الأصدقاء، أو عبارة نقلتها مع أغراض أناس آخرين لتصلك إلى صندوق بريدك تذهب إليه بنفسك وتخرج مفتاحه الصغير لتفتش عنها أو تعاود الانتظار مرة أخرى، كل هذه الأحاسيس أصبحت تتلاشى شيئاً فشيئاً، أما اليوم فأنت تبدأ صباحك بفتح صندوق رسائلك الإلكترونية على عجل لترى رسالة فواصلها أكثر من حروفها بالكاد تكتب على عجل مثل(أنا هنا، أو أنا اون لاين، أو اتصل بي) بدلاً من رسالة حقيقية لها معنى تتضمن السؤال عنك وعن أحوالك من دون شعورك بأنك تهدر وقت مرسلها!!

باتت حياتنا سريعة جداً لا نأبه بتفاصيلها التي تنقصها الحميمية مع مكنوناتها، ولو التفتنا قليلاً لهذه التفاصيل عندئذ نستطيع أن نلمس الأشياء ونشعر بها ونتعاطى مع كل ما يصيغ نكهة للحياة، ولكن كل هذه العوامل أصبحت من التراث القديم.

الآن بعد أن أكتب هذه المقالة سأحفظها إلكترونياً وأهرب من غضب الورق الأبيض الذي لم أخط عليه أي حرف، ولكن هذه حياتنا الإلكترونية بأيدينا ابتكرناها ومن قلوبنا ندفع ضريبتها!!

دينا الشهوان



أصل الداء وقهره رأس الدواء..

التوتر النفسي..

في عالمنا المعاصر، وفي حياة مفعمة بصور شتى من الانفعالات والقلق والضغط النفسي، تماماً كما هو الواقع الذي يحياه كثيرون، تبدو أهمية الكشف عما تخلّفه هذه الصور من آثار مدمرة في صحة الجسم الإنساني الذي يدفع ثمن ذلك غالياً، في قائمة طويلة من الأمراض والتبعات.

في هذا المقال، يضعنا د. حذيفة أحمد الخراط أمام حقائق أثبتتْها تقارير العلم الحديث، وتؤكد وجود رابط وثيق، يعكس تفاعلات خفية ذات أبعاد صحية خطرة، تدور رحاها بين أغوار العقل الباطن ومسار النفْس من جهة، وأجهزة الجسم الحيوية من جهة أخرى.

Corbis



يوماً بعد يوم، يزداد النشاط العلميّ في التنقيب عن أسرار جسم الإنسان. ويبذل المهتمون في هذا المجال، كثيراً من الجهود لكشف النقاب عن أسرار الجسم ذي الصنع البديع، وما فيه من الدقة والإتقان من الآيات الكثيرة، التي يصعب إحصاؤها أو حصرها.

ومن الحقائق التي غدت ثوابتَ، أنّ جسم الإنسان ليس كتلة مادية تمثّل جسداً فحسب، بل ثمة نفْس تتّحد به. وينشأ عن هذا الاتحاد، نسيج تنصهر خلاله النفْس بالجسد في بوتقة واحدة. وبات من المسلّمات، أن يؤثر كلّ من هذين العاملين في شقه الآخر. ونشأ نتيجة ذلك لدى العلماء، يقين بأنّ للنفْس أمراضاً تماماً كما للجسد، وأنّ انعكاسات خطرة تظهر لاحقاً في الجسد نتيجة للارتباط الوثيق والوحدة التي لا تنفك، بين النفْس من جهة، والجسد الإنساني من الجهة الأخرى. وعندما عُرف ما للتوتر النفْسي من تأثير في صحة الجسد، صبّ العلماء جلّ اهتمامهم في التحري عن أسراره، وكيفية استجابته للعوامل التي تختبئ خلف ستار التوتر ومساربه المؤرقة.

وكشف الطب الحديث عن جانب كبير من تلك التفاعلات الدقيقة التي تدور بين الجسم من جهة والعقل الباطن (أو النفْس) من جهة مقابلة، وعن دور الضغوط النفْسية في إيجاد بيئة سلبية تتأثر فيها خلايا الجسم وأجهزته المختلفة. ونتيجة لذلك، ظهرتْ لدينا قائمة طويلة ممّا يعرف بالأمراض النفسجدية Psychosomatic disorders، التي تعرّفها كتب طب النفس، بأنها مجموعة من الاضطرابات تظهر أعراضها المرضية في جسم الإنسان، وتنشأ عن عوامل نفسية مختلفة.

وكلّ منا خبر التوتر النفسي في أوقات كثيرة ومحطات عديدة في حياته، إذ ثمة في هذه الحياة من المصادر التي تدعونا إلى ذلك الشيء الكثير. فكلنا يدرك شعوراً كهذا، قبل الامتحان، وحين ترقب النتائج، وأثناء ساعات العمل، وقيادة السيارة في شوارع مزدحمة، وفي غيرها من الظروف. وكثيراً ما نقف حائرين مكتوفي الأيدي إزاء ما نواجهه، وتعذبنا لحظات الانتظار التي تغلفها سحب من الحيرة والترقب.

الاستقرار الداخلي في بيئة الجسم

تخضع بيئة الجسم الداخلية، إلى نظام فسيولوجي دقيق ينتظم خلاله عمل أجهزة الجسم، وفق نسق وتناغم بديعين. ويحمل الجهاز العصبي بأجزائه المختلفة، النصيب الأوفر

Corbis

Corbis

من تلك المسؤولية. وما يهمنا من أجزاء الدماغ الأمامية، ما يعرف بالوطاء hypothalamus الذي يقع أعلى الغدة النخامية، ويحوي كثيراً من المراكز العصبية التي تضبط أنشطة الجسم المختلفة. وهو أيضاً مستودع لأسرار النفْس البشرية، وعوامل التفكير والانفعالات والسلوك والإدراك. وثمة أيضاً جهاز عصبي غير إرادي Autonomic nervous system، يتحكم في نشاط كثير من أجهزة الجسم، فيضبط عملها دون أدنى شعور منا أو إحساس، فينظِّم مثلاً عمل عضلة القلب، وأداء الجهاز الهضمي، وسير عملية التنفس، وغيرها من الأعمال اللاإرادية. كما يسهم من طرف آخر، جهاز الغدد الصماء في تنظيم أنشطة الجسم الداخلية واستقرار نشاطها، وهو بذلك يساعد الجهاز العصبي المذكور، فيغدو جسم الإنسان في أحسن تقويم.

تنصّ مراجع الطب النفسي، على أنّ للتوترات والضغوط النفسية - ولا سيما المزمن منها - إسهاماً واضحاً ودوراً فاعلاً في إحداث جو من الخلل في أنظمة الجسم الداخلية. وهنا نرى أنّ حالات عامة من الفوضى وعدم الاستقرار، ستظهر في نظام الجسم، وسيترافق ذلك مع استثارة الجهاز العصبي، وما يصحبها من توتر جهاز الغدد الصماء، وتنشيط إفراز الهرمونات المختلفة.

ينهش التوتر النفْسي المتواصل أجسامنا بطرق كثيرة، ويكاد يظهر أثره المدمر في صحة معظم أجهزة الجسم، التي تتجرّع تبعات ذاك التوتر. وثبت أنّ لهذا التوتر دوراً في إطالة مدة النوبة الحادة للمرض العضوي، إضافة إلى زيادة حدة هذا المرض. ولإيضاح فداحة الأمر، سنعمد إلى التحري عن ذلك، بذكر ما يظهر من تأثيرات في كلّ جهاز في الجسم على حدة.

الآثار السلبية للتوتر في صحة الجهاز الهضمي

يأتي الجهاز الهضمي في رأس قائمة أجهزة الجسم التي تستهدفها سهام التوترات النفْسية، ويظهر هنا كثير من التأثيرات الضارة التي تمسّ سلامة أداء هذا الجهاز الحيوي، إذ يتوقف السير الطبيعي لعملية الهضم، ويُحدّ بصورة ملحوظة من إفراز اللعاب، وتتوقف تقلصات المعدة، ويقلّ إفراز إنزيماتها الهاضمة، وتتأثر عملية امتصاص الغذاء المهضوم في الأمعاء، ويظهر ذلك كلّه في صورة عسر هضم مزمن.

وتشيع لدى الإنسان الذي يعاني ضروب التوتر والقلق، حالات الإصابة بقرحة المعدة، بحسبما أكدتْ نتائج الأبحاث. ويعود ذلك إلى تآزر عوامل عدة، تعمل على ظهور هذه القرح، إذ يقلّ جريان الدم نحو أنسجة المعدة، وهذا يعني نقص كمية الأكسجين التي تصل إليها، ويصحب ذلك موت بعض خلايا المعدة تدريجياً، الأمر الذي يؤمّن وسطاً مناسباً تنشأ به القروح الهضمية.

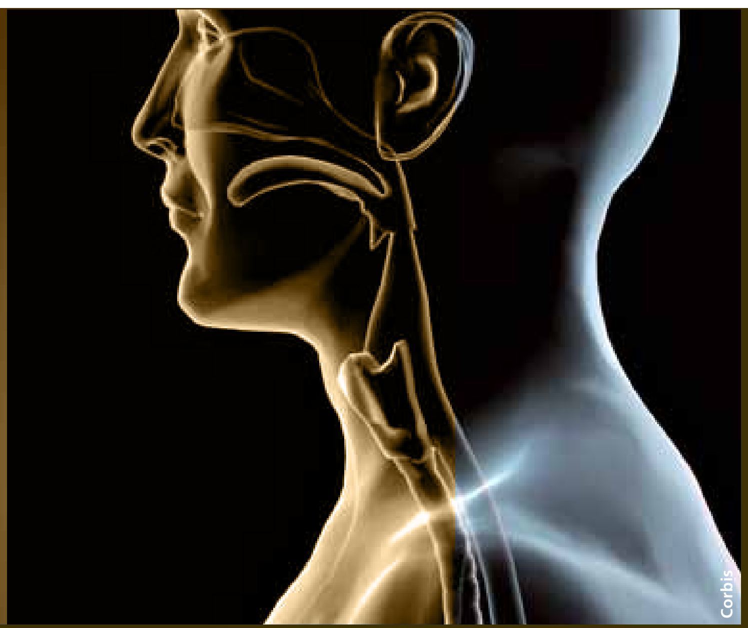
وممّا يفاقم من ظهور القرحة أيضاً، زيادة إفراز حمض المعدة وعصاراتها، وقلّة إفراز المادة المخاطية ومادة البيكربونات، اللتين تحميان المعدة من آثار ما تفرزه من الحمض، كما يرافق انخفاض مناعة الجسم المصاحبة للتوتر، تكاثر بعض أنواع البكتريا، الذي قد ينتج عنه أيضاً ظهور تلك القرحة.

ويكفي أن نضرب هنا مثلاً يدلّ على عظم حجم المشكلة، ما كان في الحرب العالمية الثانية في لندن حيث سجل عدد كبير من حالات القرحة، نتيجة ضغوط نفْسية عاشها السكان هناك أثناء الغارات الجوية. ومن الغريب أنّ عدد حالات الوفاة في تلك الأثناء بسبب الشدة النفسية والتوتر، بلغ مليونين، بينما في ساحة المعركة، قلّ عدد القتلى من الجنود عن ذلك كثيراً، ولم يصل حتى إلى نصف مليون.

ومن شكاوى الجهاز الهضمي أيضاً، كثرة الشعور بالغازات والنفخة وألم البطن. وتُعزى هذه الظاهرة إلى سوء الهضم الذي يصاحب عملية التوتر، إضافة إلى حدوث نوبات من الإسهال الحاد، أو الإمساك المزمن. ويدرج مجمل هذه الأمور تحت ما يُعرف بداء تهيج الأمعاء Irritable bowel syndrome. وينتج في العادة عن حدوث حالة من عدم التناسق بين عمل الأمعاء الدقيقة والغليظة.



Corbis





تأثير التوتر في صحة القلب

يظهر نتيجة للتوترات النفسية، كثير من التأثيرات الضارة التي تحدّ من سلامة أداء جهاز القلب والدورة الدموية. ويصاحب ذلك زيادة مستوى مادة الأدرينالين في جسم الإنسان، ما يسهم في تجمع الصفائح الدموية وتراكمها، الأمر الذي يعني زيادة احتمال تكون الجلطات التي تسد الشرايين.

من جهة أخرى، فإنّ لاستثارة الجهاز العصبي نتيجة القلق، دوراً في زيادة نبض القلب، وبمرور الوقت يبدأ ضغط الدم بالارتفاع بصورة مزمنة. وقد تنشأ عن ذلك مضاعفات خطيرة، كنزيف الدماغ وغيره. وتشهد الأوعية الدموية أيضاً حدوث تصلب في الشرايين Atherosclerosis، وهو داء ذو أبعاد خطرة تترسب خلاله الدهون في جدران الشرايين، ما يعني تضيق قطر هذا الوعاء الدموي، وبالتالي قلة الدم الذي يصل إلى الأنسجة.

وتقترح دراسات حديثة، وجود رابط وثيق بين التوترات النفسية من جهة، وظهور أمراض القلب التاجية Coronary artery diseases من جهة أخرى. وهنا تقلّ كمية الدم التي تغذي عضلة القلب، وتظهر على المريض أعراض الذبحة الصدرية.

وماذا عن جهاز الغدد الصماء؟

تستثير العوامل النفسية المضطربة إفراز غدد الجسم، فيزيد حينئذ نتاج الغدة الكظرية Adrenal، والغدة النخامية Pituitary، والبنكرياس، والغدة الدرقية، ويترتب على ذلك ظهور كثير من التبعات ستدفع فاتورتها صحة الجسم المتدهورة.

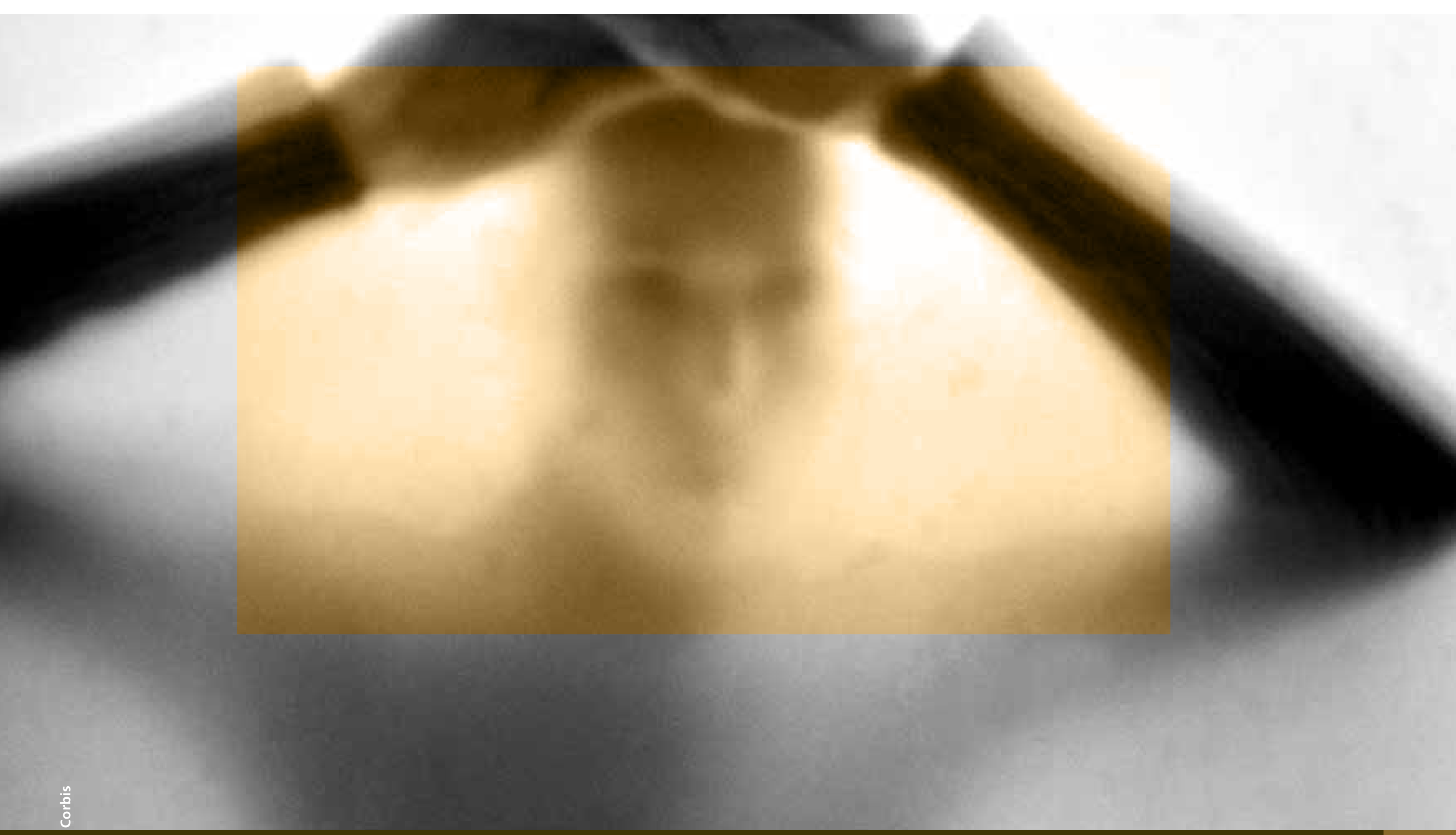
ويأتي داء السكري في رأس قائمة التأثيرات الجانبية للتوتر، وتشير أصابع الاتهام إلى عوامل عدة تكمن وراء ظهور هذا الداء. وتشترك فيها بعض الغدد الصماء، إذ يتمّ ضخّ هرمونات في الدم بنسب تفوق الحد الطبيعي، وتتحرك كميات كبيرة من سكر الجلوكوز نحو مجرى الدم. وما يزيد الطين بلّة أن يتمّ كبح إفراز الإنسولين. وبات معروفاً، أنّ كل هذه التأثيرات تنتج عن خلل الجهاز العصبي، الذي يصاحبه قصور وظيفي في فسيولوجية غدد الجسم.

وكذلك يصيب الاضطراب الغدة الدرقية، فيزداد إفرازها، ليصل الأمر أحياناً إلى ظهور حال تعرف بتسمم الغدة Thyrotoxicosis. وهنا ينشط إفراز الهرمونات بصورة شاذة، ليصل إلى درجة تترك تأثيرات ضارة في كثير من أجهزة الجسم.

تأثير التوتر في العظام والعضلات

وللتوتر النفسي المستمر، تأثيراته المخربة في عظام الجسم وما يتصل بها من العضلات، إذ تعمد الهرمونات المفرَزة أثناء القلق، إلى تخريب عملية نقل معدن الكالسيوم. وهذا يتبعه نقص ترسب هذا المعدن في العظام، وضعف كتلة العظام، وميلها إلى التكسر، فتظهر بذلك أعراض هشاشة العظام، وتتوقف عملية نمو السليم منها، ويزداد الأمر سوءاً عندما تطرح الكلى مزيداً من الكالسيوم عبر سائل البول، ما يسهم في مزيد من نضوب مخزون هذا المعدن في الجسم.

ومن آثار التوتر الأخرى، نرى هنا ما يحدث من استهلاك طاقة الجسم بصورة مستمرة، وفي مستوى عضلاته إذ يؤدي استهلاك الطاقة بصورة كهذه إلى إحداث تلف بالعضلات، وإلى تفكك ما تحويه من البروتين. ولا تجد هذه العضلات وقتاً كافياً لإعادة بناء ما تم تفكيكه وتكسيره



مـن وحـدات البناء، وبخاصــة لو غدا شـأن التوتـر مزمناً وملازماً للمريض، فيحدث بذلك ضـمور عضـلي تدريجي، عقـب كلّ نوبة توتر أو قلق جديدتين. وممّا يرد ذكره أيضـاً من تأثيرات ضـارة في صـحة الجهاز الحركي، هو احتمال زيـادة أعراض روماتيزم المفاصـل، وما يصـحبه من آلام حادة.

الجهاز التنفسي يدفع الثمن أيضاً

يـرد ذكر تدهور الحالة النفسـية ضـمن قائمة أسـباب مثيـرات الحساسـية. وعليه فـإنّ التوتر يزيـد من حدة حالات الربو التي تعرف سـريرياً بضيق النفس، والكحة، نتيجة تضـيق الشـعب الهوائيـة. من جهة أخـرى، تكثر شكوى المريض المرهق نفّسياً، من حدوث بعض حالات التهـاب الأنـف Rhinitis، ومـا يصـحبها مـن أعراض سـيلان الأنف الغزير، والعطـاس، والحكة. وتكثر كذلك الشـكوى من حمى القش Hay fever، وهي صورة أخرى من داء الحساسـية، وتمتـاز بالتهاب بطانة الأنف، الذي يعقبه ظهور أعراض تشـبه سـابقتها. وبعيـداً عن ظهور أشـكال الحساسـية المختلفة، أثبتت دراسات أن ضعف مناعة الجسم الذي يتصاحب مع حالات التوتر النفّسي، يـؤدي إلى زيادة حالات التهاب الجهاز التنفسـي، نتيجة غـزو البكتريا وغيرها مـن الكائنات الحيـة المجهرية، وتكاثرها ضمن أنسجة الرئتين والقصبات الهوائية، وما يعقب ذلك من حدوث الالتهابات.

الجهاز العصبي في ساحة التوتر والقلق

ثمة كثير من تأثيرات الاضـطرابات النفّسـية التي تظهر في سـاحة الجهـاز العصـبي، إذ تكثر هنا الشـكوى من ضـعف الذاكرة، وقلة التركيز الذهني، والميل نحو الخمود والخمول، والشكوى المسـتمرة من الصداع والصـداع النصفي. ويعود ذلـك إلى ضـعف جريـان الـدم، الذي يصـحبه قلة وصـول إمـدادات الغـذاء والأكسـجين نحو الدماغ. وتحـدث كلّ هذه التأثيرات نتيجة اضطرابات الهرمونات آنفة الذكر.

وممـا يُذكر أيضـاً، ضـمور في الخلايـا العصـبية، وتأثير مباشـر فـي سـلامة أحـد أجـزاء الدمـاغ الـذي يعـرف بالحُصـين hippocampus المسـؤول عـن تنظيـم كثيـر مـن مهارات السـلوك الوظيفية، وهو بمنزلـة لوحة مفاتيح الحاسـب الآلـي، إذ يتمّ عن طريقه اسـترداد ما نريده من المعلومات المخزنة في ذاكرة الدماغ.

تأثر جهاز المناعة

يحدّ التوتر المزمن من قدرات الجهاز المناعي، وتظهر في ذلك تأثيرات مباشـرة في عملية إنتـاج الخلايا المناعية.

وأوضحتْ أبحاث حديثة، أنّ القلق يقصر عمر بعض الخلايا المناعية، ويصحب ذلك تعرُّض الجسم لمخاطر الوقوع فريسة كثير من الأمراض. ولوحظ في إحدى التجارب الميدانية، كثرة ظهور حالات الإصابة بالزكام في صفوف طلاب الجامعة أثناء فترة الامتحانات، وعُزي ذلك إلى ضعف أجهزتهم المناعية، نتيجة مرورهم بتلك الظروف المقلقة. إلا أنّ الأمر المخيف هنا، هو ما تؤكده بعض الدراسات الجارية على حيوانات التجارب، أنّ التوتر يزيد من سرعة نمو الأورام السرطانية، نتيجة افتقار أجهزة تلك الحيوانات إلى قدرة مناعية تحدّ من نمو الخلايا الورمية. صحيح أنّ هذا لم يثبت بعد في أجسامنا، إلا أنه قد يحدث ولو بعد حين.

كيف تتأثّر أجهزة الجسم الأخرى؟

لا يقف أثر الاضطراب النفسي في صحة الجسم عند هذا الحد، بل يتخطاه ليصل إلى أجهزة أخرى في الجسم. وتذكر أبحاث علمية قائمةً طويلة من العلل تزداد عناصرها بين حين وآخر. ويبدو أن العامل الرئيس في معظم تلك الشكاوى، هو ضعف تروية الأعضاء بما يلزمها من سائل الدم، تحت التأثير المباشر لهرمونات التوتر النفسي. ومما يُذكر من آثار، تَصاحب التوتر مع تدني مستوى إفراز الخصيتين لهرمونات الذكورة، وما يرافقه من ضعف عملية الانتصاب، والشكوى من الضعف الجنسي. كما تكثر اضطرابات الدورة الشهرية في جسم الأنثى، التي تصل أحياناً إلى حد انقطاع الطمث التام. وتضعف كذلك عملية الإباضة، وتقلّ فرصة تطور نمو الجنين في باطن الرحم، وسُجّل كثير من حالات الإجهاض لدى السيدات الحوامل. أما ما يخصّ الجلد، فنلاحظ كثرة الشكوى من تساقط الشعر، وحالات التهاب الجلد المعروفة بالإكزيما، وزيادة حدة الالتهابات الجلدية نظراً لانخفاض مناعة الجسم، وظهور داء حب الشباب، وداء الصدفية Psoriasis، وغيرها من الأمراض الجلدية.



Corbis

ما الحل إذن؟

عرفنا حتى الآن، أبعاد المشكلة وما يخلّفه التوتر النفسي من آثار تترك بصمات واضحة في صحة أجهزة الجسم المختلفة، فما الحل إذن؟ وكيف لنا أن نتعامل مع الأمر؟ وما هو الدواء الناجع لهذا الداء؟ إن أردنا أن نصدق القول، فإننا سنرى أنفسنا الآن أمام خيارين لا ثالث لهما: إما الاستسلام التام للتوتر النفسي والوقوع تحت رحمته، ليتصرّف بصحة أجسامنا كيفما شاء، وإما التخلّص من قبضة هذا الكابوس والتحرر منها باتجاه أفق جديد خال من التبعات المرهقات.

يقول ذوو الاختصاص: إنّ علاج مشكلة التوتر النفسي قائم على محورين رئيسين: أحدهما دوائي، والآخر سلوكي. ويعتمد الشق الأول، على استشارة طبيب نفسي، وبخاصة في حالات التوتر التي تزيد على الحد المألوف، لتصل إلى درجة تهدد فيها صحة الجسم. وعلينا هنا أن نؤكد أهمية كسر حاجز الخوف والتردد، الذي يمنع كثيرين من زيارة الطبيب النفسي، وعلينا أن نقتنع بأن الاستشارة هنا واجبة، وليست ضرباً من ضياع الوقت أو المال. ويأتي تحت محور العلاج الدوائي أيضاً، التشخيص الباكر لما قد يظهر من أمراض في أجهزة الجسم المختلفة، والمسارعة في تدبيرها قبل حدوث مضاعفات لا تُحمد عقباها.

ولا يقلّ العلاج السلوكي أهمية عن الخط الأول. وما نعنيه هنا، السعي إلى حلّ المشكلة عبر حوار بنّاء ووقفة صريحة مع النفس، يتمّ خلالها توجيه كلمات تحمل إرشادات وعظات صادقة، حول أهمية إعادة التفكير في تنظيم أسلوب الحياة، والدعوة إلى مزيد من الحكمة والبصيرة والقدرة على ضبط النفس، وزيادة أرصدتنا من الخبرات، والتحكم في مشاعر الغضب، وقهر مشاعر الغيظ، ومحاولة تجفيف منابع التوتر قدر المستطاع، والاستسلام التام لما ساقته لنا الأقدار، خيرها وشرها، ومحاولة محو ذكريات الماضي الحزين المترسبة في قاع النفس. ويترتب علينا أيضاً غرس قناعة تامة مفادها أنّ هذا العالم المليء بكثير من مظاهر التوتر ومصادره، والمشبع أيضاً بأمور مروعة ليس بإمكاننا تجنبها، هو في المقابل غني بأمور كثيرة تدعونا إلى التفاؤل، وتنجح في زرع ابتسامة عفوية فوق شفاهنا، إذ ثمة ضحكات بريئة تعلو محيا طفل، وثمة حبيب ينتظر قدومنا في البيت، بعد عناء يوم عمل طويل، وثمة خلّ وفيّ يهتم بأمرنا، ولا يبخل علينا بغالٍ أو نفيس. إذن فلندَع القلق، ولنبدأ الحياة.



الإتيكيت..
من الصروح إلى البيوت

الإتيكيت... مفردة تتكرر كثيراً ويفهم منها أو تدرج تحتها، مبادئ تهذيب النفس، والاعتناء بالمظهر، وحسن الضيافة، وآداب السلوك، واحترام الآخر. فما هو الاتيكيت الذي تُجمع كل العادات والتقاليد عليه رغم اختلافها من منطقة إلى منطقة ومن ثقافة إلى أخرى؟ وما هي قواعده ومصدره؟ وهل هو بروتوكول أو نخبوية، أم يمكن أن يستخدمه الناس العاديون في حياتهم اليومية بين المنازل والمدرسة والمجتمع؟ أريج المحفوظ تقدِّم هنا عرضاً موسعاً لهذا المفهوم وتجلياته في حياتنا، وتستعين بعدد من المصادر، أهمها محاضرة عن الإتيكيت العائلي للأستاذ محمد حسن المرزوقي.

Corbis

الإتيكيت تعريفاً، هو علم آداب السلوك والمعاشرة وفن الحياة الراقية. إنه علم له قواعده وأصوله المكتوبة والمنشورة بكل لغات العالم منذ أقدم العصور. وهو فن ممارسة الحياة اليومية بأفضل السبل وأكثرها جمالاً ورقياً وتهذيباً.

وإذا كان الإتيكيت في نظر بعضهم مرتبطاً بممارسة عادات وتقاليد غربية، فهو في نظر معظم الباحثين والمتخصصين يستند إلى علم خاص يُعنى بطبيعة سلوك الأفراد والجماعات، ويعبّر عن تقاليد مدروسة تتبعها طبقة اجتماعية معينة، أو فئة من الناس تنتمي إلى وظائف محددة.

أصل الكلمة

واختلف الباحثون في تحديد أصل كلمة «إتيكيت» ومعرفة مدلولاتها وهي كثيرة. فردها بعضهم إلى مفردة يونانية قديمة هي «ستيكوس»، ومعناها: نظام الطبقات أو الفئات الاجتماعية. وعزاها آخرون إلى التعبير الألماني «Stechen» ويعني الطابع أو السمة البارزة. ورأى باحثون فرنسيون أن كلمة إتيكيت تعود بجذورها إلى المصطلح الفرنسي «Ticket» الذي يعني بطاقة الدخول إلى المجتمع الراقي. وهذا التفسير هو الأقرب لمدلول «إتيكيت»، إذ كان الملك الفرنسي لويس الرابع عشر حريصاً على جعل بلاطه الملكي قدوة ومثالاً لجميع بلاطات أوروبا.

كان للعرب كتب كثيرة في آداب السلوك، وكانوا ينظرون إلى آداب المعاشرة كدليل على حضارة الشعوب وتمدّنهم

وكذلك عرفت مصر فن المراسيم والبروتوكول والإتيكيت منذ العصر الفرعوني. ويظهر ذلك من خلال النقوش المرسومة على جدران المعابد وفي بعض المخطوطات القديمة، مثل كتاب «الموتى» The book of the Dead، التي تظهر اتباع سلوك بالغ التهذيب في زمن الفراعنة. وينطوي الكتاب على تقاليد وسلوكيات خاصة لا تتبع في حالة الوفاة فحسب، إنما في كل شؤون الحياة الأخرى. وأول مخطوطة تحدثت عن أصول السلوك وآدابه، تعود إلى بتاح حوتب، وزير الفرعون «جد كارع» الذي حكم مصر القديمة ما بين 2414 و2375 ق . م.

دور العرب

وكان للعرب أيضاً، دور مهم وبارز في ازدهار الحضارة العالمية وتقدمها في مختلف ميادين العلم والمعرفة. ويقر الباحثون المنصفون، بأن العرب كانوا سبّاقين إلى حمل راية العلم، فسطعت شموس معارفهم وعلومهم لتنير العقول في الشرق والغرب. وضمن هذا السياق كانت لهم كتب كثيرة تحت عناوين: آداب السلوك، والآداب السلطانية،



Corbis

كان للعرب دور مهم وبارز في ازدهار الحضارة العالمية وتقدمها في مختلف ميادين العلم والمعرفة ومنها فن «الإتيكيت» خاصة في التعامل مع السلاطين والعلماء

وآداب الحوار، وغيرها. وكانوا ينظرون إلى آداب المعاشرة كدليل على حضارة الشعوب وتمدنهم.

ولتوحيد اللغة العالمية الحديثة لفن الإتيكيت والبروتوكول، عقد كثير من المؤتمرات، وجاء أول تدوين لهذه اللغة في عام 1815م، ثم في أعوام 1818 و1961 و1963م في فيينا بالنمسا. وأصبحت تلك القواعد وسيلة متفق عليها لتسهيل ممارسة العمل الدبلوماسي وتهذيب العلاقات الناجحة واللازمة لاستقرار المجتمع الدولي.

واقترن علم الإتيكيت الحديث في شكل وثيق، ولفترة زمنية طويلة، بالنظام الملكي في فرنسا. ففي زمن الحقبة الارستقراطية، شهد فن الإتيكيت أرقى صوره وبلغ عصره الذهبي مع ظهور الارستقراطية الفرنسية وتقاليدها الرائعة. ولم تكن بقية الارستقراطيات الأوروبية في بريطانيا وروسيا والنمسا وإيطاليا وغيرها، أقل أهمية من الارستقراطية الفرنسية. فهي أيضاً كانت لها سماتها الدامغة على سلوكيات الحياة اليومية. لكن أنصار الثورة الفرنسية دعوا إلى الانتقام من الطبقة الارستقراطية عبر تشويه أو إلغاء جميع التقاليد التي كانت سائدة في أوساط تلك الطبقة، واعتبروها معادية لمبادئ الثورة الفرنسية التي كانت تدعو إلى المساواة والإخاء والعدالة.

أما المجتمع البريطاني، فلا يزال يحكمه الإتيكيت والبروتوكول، وتعقد سنوياً ثلاثة اجتماعات لدرس استفسارات الأفراد والمؤسسات والدول، وإصدار توصيات لأنماط السلوكيات الواجب اتباعها.

وهنا يجب التمييز بين الإتيكيت والبروتوكول. فالأول اختياري وهو فن إظهار السلوك البالغ التهذيب والصفات الحسنة بين الأفراد في المجتمعات، أما الثاني فهو بالمعنى نفسه، إنما له شكل إلزامي تفرضه أصول التعامل بين الدول وممثليها وسفرائها في العالم الدبلوماسي.


Corbis

اقترن علم الإتيكيت الحديث في شكل وثيق، ولفترة زمنية طويلة، بالنظام الملكي في فرنسا

وفي الآونة الأخيرة، عاد هذا العلم إلى الصدارة بعدما طغت الممارسات السيئة على سلوك كثير من الأفراد والجماعات. وبدأت مناهج التعليم في البلدان المتطورة، ولأسباب موضوعية مختلفة، تُدرِّس هذه المادة، وتعتبرها ضرورية لا بل إلزامية في كثير من المدارس التي تحتضن طلبة القسم الداخلي، خصوصاً أن من بينهم ستكون نسبة مرتفعة من القادة المستقبليين للمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وهم يمضون قسماً كبيراً من حياتهم المدرسية، ضمن بيئة إدارية تراقب سلوكياتهم وممارساتهم اليومية بدقة.

شهد فن الإتيكيت أرقى صوره وبلغ عصره الذهبي مع ظهور الارستقراطية الفرنسية وتقاليدها

أهمية الإتيكيت

يترافق تعبير الإتيكيت دوماً مع مفهوم الجمال؛ فعلى سبيل المثال يجب على عارضة الأزياء أو ملكة الجمال، أن تتحلى دائماً بهذا النمط الراقي من السلوكيات لأن الجمال لا يكتمل فقط مع الأناقة والرشاقة، بل أيضاً مع التصرف الحسن الراقي.

والإتيكيت هو قاعدة مهمة يجب أن نستخدمها في حياتنا اليومية، فننقلها من خلال الممارسة إلى أولادنا. والالتزام بأصول الإتيكيت في أي ظرف أو مكان، يحمي صاحبه من هفوات وإساءات، خصوصاً أن الإتيكيت يتخذ طابعاً دولياً ويمكن ممارسته في كل الثقافات والمجتمعات.

ومع ذلك، يمكن الخروج في بعض الحالات، عن قواعد الإتيكيت في حال تعارضت مع تعاليم الأديان أو العادات أو التقاليد، أو هددت قواعد الصحة العامة التي تفرضها اتفاقيات دولية. ومن الضروري أيضاً، أن تتوافق التصرفات الشخصية وقواعد الإتيكيت مع الآداب العامة، علماً بأن من أهم السمات المميزة لعلم الإتيكيت، أنه ينظِّم سلوك الأفراد والجماعات في كل الأحوال والمواقف التي تواجههم.

علاقة الإسلام بالإتيكيت

لقد ركَّز الدين الإسلامي الحنيف، على أهمية مكارم الأخلاق، مؤكداً تأثيرها على العلاقات السليمة بين أفراد المجتمع. فالمنظومة التشريعية للرسالة المحمدية، تنظر إلى الفعل الإنساني كمنبع يفيض بمكارم الأخلاق، فهي بمثابة الفسيلة الحية التي تورق وتزدهر وتثمر. والرسول (صلى الله عليه وسلَّم) أرسى صفات حميدة في المجتمعات ضمن منظومة الدين والأخلاق، والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يزخران بكثير من الأدلة على ذلك، ومنها قول الله تعالى عن الرسول (صلى الله عليه وسلَّم): «وإنك لعلى خلق عظيم». وقول الرسول (صلى الله عليه وسلَّم) عن نفسه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وبين مكارم الأخلاق وآداب السلوك المتأتية من الدين الإسلامي، والاتيكيت المقبل من الغرب، قواسم مشتركة كثيرة تقوم على احترام المرء لنفسه ومحيطه بدءاً من منزله. وفيما يلي عرض لبعض قواعد الإتيكيت:

إتيكيت تربية الأولاد

من المهم جداً أن يبدأ الأهل بتعليم أطفالهم فنون الإتيكيت وقواعده في سن مبكرة، من خلال الإرشاد

والتوجيه والممارسة، فيكبرون وقد انغرست هذه المبادئ في نفوسهم، لتنتقل من جيلٍ إلى جيل.

الطلب والشكر

«من فضلك» عند طلب شيء. و«شكراً» عند تلبية الطلب. عبارتان يستحسن غرسهما في نفس الطفل الصغير لكي تصبحا بمثابة عادة ثابتة لديه. فكل شخص يشعر بالفخر والتقدير عند القيام بعمل جيد من أجل الآخرين، حتى ولو كان طفلاً. كلمة «شكراً» هي طريقة رائعة للإعراب عن الامتنان والعرفان. والأفضل منها كلمة «من فضلك» تجنباً لصيغة الأمر في الطلب. وهي تنطوي على معنى الاختيار، حتى أنها تجعل من صيغة الطلب غير المرغوب فيه صيغة جميلة تشجع على الأداء الجيد، خصوصاً عند التوجه للذين يقومون بواجب خدمتنا اليومية.

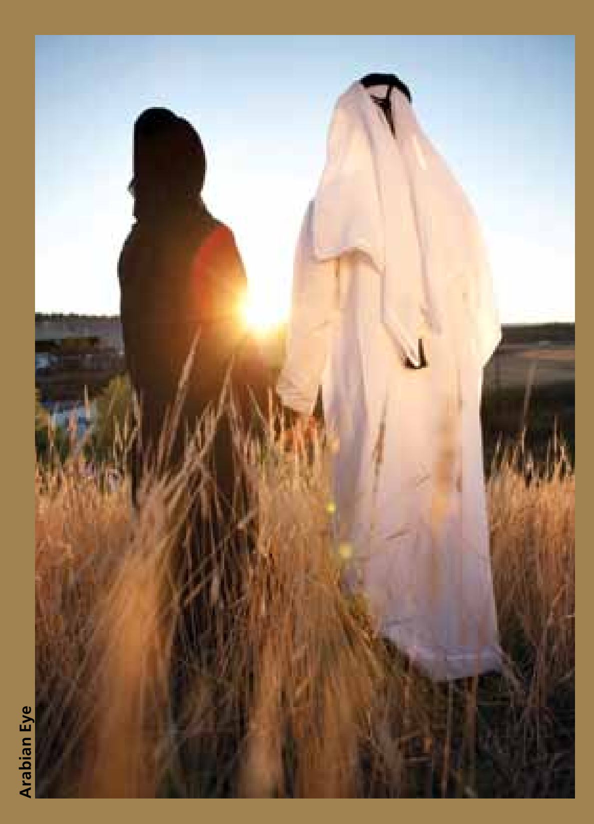
احترام الألقاب

جرت العادة ألاَّ يبالي الطفل بمناداة من هم أكبر منه سناً

إتيكيت التعامل مع شريك الحياة

الاحترام المتبادل بين الزوجين واعتناء كل منهما بالآخر، ليسا مجرد تفاصيل صغيرة يمكن الالتزام بها أو إهمالها وفقاً لظروف الحياة أو الحالة النفسية. فهذان الأمران ضروريان جداً وينبغي أن يكونا جزءاً من طقوس الحياة اليومية لما لهما من تأثير مباشر على العلاقة العاطفية وضمان استمرارها طويلاً واختلاف الظروف. ولبلوغ ذلك ثمة قواعد إتيكيت مهمة أبرزها:

- طرق الباب وأخذ الإذن قبل الدخول إلى غرفة الشريك.
- إلقاء التحية والسلام عند دخول البيت أو الغرفة أو السيارة، و قبل الانصراف سؤال الآخر إن كان يريد شيئاً.
- من غير اللائق قراءة خطاب أو شيك أو ورقة موجودة في غرفة الآخر أو حقيبته.
- عند استعارة شيء يخص الشريك أو نقله، ينبغي إعادته إلى مكانه. وفي حال إتلاف شيء أو إفساده، يفترض شراء بديل له.
- إذا أخطأ أحد الشريكين بحق الآخر، عليه الاعتذار منه. وعلى الآخر أن يقبل اعتذاره وألا يكثر من لومه.
- يفترض أن يكون الحديث بين الشريكين هادئاً ومحترماً، من دون صراخ أو سُباب.
- لا بد من البوح بالحقيقة للآخر بطريقة لطيفة غير جارحة، وتجنب الكذب مهما كان السبب.
- من كان في حاجة إلى نصيحة، على الآخر أن يقدِّمها إليه بحب ومن دون تعالٍ.
- عندما يفرح طرف أو يحزن، على الآخر أن يشاركه أفراحه وأحزانه.
- على الشريك أن يُشارك الآخر في جميع المناسبات السعيدة ومن دون اعتذار.
- احترام هواية الشريك الآخر وتقديرها وكأنها هواية مشتركة.
- التعامل بروية وصبر ومحبة مع انفعالات الآخر، وعدم مبادلته الانفعال بالانفعال.



Arabian Eye

- في حال عجز أحد الشريكين عن القيام بمهمة معينة، على الآخر أن يبادر إلى مساعدته دون تأخر، فتوزيع العمل بين الشريكين أمر مهم لتخفيف الأعباء عنهما.
- من الضروري عدم افتعال مشكلات ونبش الأحداث الماضية لئلا تتجدد الآلام والأحزان، فالتسامح والعفو من شيم الكرام.
- لا يجوز أن يُسفه الشريك كلام شريكه أمام الناس لأي سبب كان، وأن يحب كل شريك للآخر ما يُحبه لنفسه، ويعمل على توفير الراحة له قدر المستطاع.
- أن ينادي كل منهما الآخر بلقب محبب إلى قلبه، وألاَّ يرفع الكلفة في الحوار، أو يكثر من المزاح والتهكم على الآخر.



Arabian Eye

اجتماع الأسرة إلى مائدة الطعام يساعد على تعلُّم الأطفال آدابها منذ الصغر

Arabian Eye

هناك العديد من الخصال الحميدة التي يمكن تعليمها للأطفال خلال مشاركتهم اللعب

بألقاب تسبق أسماءهم من باب اللياقة والاحترام. ولأنه لا يعي ماذا يفعل، فإنه لا يحاسب على ذلك. لكن عندما يصل إلى مرحلة معيَّنة، فينبغي تعليمه أن ينادي الآخرين بألقاب مؤدبة للدلالة على حسن التهذيب والتصرف.

آداب المائدة

تنطبق آداب المائدة الموجهة للكبار على الصغار أيضاً، إضافة إلى أمور بسيطة مثل:

- التزام الصمت على مائدة الطعام، وعدم التحرك كثيراً أو إصدار أصوات عالية، بخاصة إذا استمر تناول الوجبة فترة طويلة، وبدأ الأطفال يتذمرون على طريقتهم الخاصة. ويفضل تقديم الطعام للأطفال قبل بقية أفراد الأسرة ومساعدتهم في تناوله.
- تنبيه الطفل إلى ضرورة عدم وضع مرفقيه على المائدة، وهي حركة شائعة بين الأطفال، أو وضع أصابعه في الطبق أو في داخل فمه.
- عدم التكشير أو القيام بأي حركة معيبة، أو الإكثار من الطلبات، أو قص الحكايات أو المغامرات أو التحدث عن البرامج التلفزيونية أثناء تناول الطعام.

من المفيد جداً أن تجتمع الأسرة بكاملها على مائدة الطعام ولو مرة واحدة في اليوم. فهذا يعزز كثيراً الترابط بين أفرادها، ويسمح للوالدين بتلقين الأطفال آداب المائدة والتصرف بشكل لائق أثناء تناول الطعام. وكذلك يجب عدم زجر الأطفال وتأنيبهم باستمرار أمام الضيوف أو الأقرباء؛ لأن ذلك يسبب لهم إحباطاً، وينبغي عدم الإكثار من الثناء على جمالهم ومدح ذكائهم، بخاصة إذا كان بلا سبب، لئلا يصابوا بالغرور. ومن المهم تعليمهم كيف يحترمون الخدم ويُحسنون معاملتهم حتى لا تنمو في داخلهم نوازع التسلط والتكبر. وتعليمهم أيضاً، حب الجماعة والمشاركة الذي يمنحهم شعوراً جميلاً ويجعلهم أشخاصاً محبوبين ممن حولهم.

الخصوصية

لكي يحترم الأطفال خصوصيات الكبار، لابد أن تُحترم خصوصياتهم:

احترام الحديث الذي يدور بينهم، وعدم التنصت إلى مكالماتهم الهاتفية أو التلصص عليهم، أو التفتيش في أشيائهم الخاصة، أو دخول غرفهم من دون استئذان. والسبب في ذلك، أن الطفل في مراحله العمرية الأولى صفحة بيضاء يمكن أن تكتب عليها ما تشاء، وهو مرآة نقية تعكس تصرفات الوالدين التي يقلدها الأولاد بشكل أعمى.

المقاطعة

تكون لدى الأطفال عادة رغبة جامحة لمقاطعة الحديث الذي يدور بين الكبار، وهذا أمر ينبغي توجيه الأطفال في شأنه دائماً لئلا تصبح المقاطعة عادة مُتأصلة فيهم يصعب التخلص منها لاحقاً.

اللعب

يُنمي السلوك المتبع أثناء لعب الأطفال مع بعضهم بعضاً، سمات تربوية عدة قد لا يشعر بها الأهل، منها: روح التعاون والمشاركة، واحترام الآخرين، والابتعاد عن الأنانية وحب



توجيه الطفل إلى مصافحة من هو أكبر منه سناً هو من آداب السلوك

الذات. ويمكن تعليم الأطفال هذه الخصال الحميدة من خلال مشاركة الأهل لهم في اللعب وتقليد ردود أفعالهم.

المصافحة بالأيدي

لابد من توجيه الطفل إلى مصافحة من هو أكبر منه سناً عند تقديم التحية له، مع ذكر الاسم والنظر إلى عيني من يُصافح. ويستحسن أن يدرب الأهل أطفالهم على المصافحة بصورة مستمرة لتترسخ لديهم هذه العادة.

التكلم على الهاتف

عندما ينطق الطفل كلماته الأولى يشعر الأهل بسعادة بالغة. وتزداد سعادتهم عندما يكبر ويبدأ بالتكلم على الهاتف مع الأقارب والأصدقاء. لكن الأهل قد ينزعجون عندما ينقل الطفل للآخرين كلاماً لا يرغبون بنشره. لذلك لا بد من توجيه الطفل وتعليمه كيفية الرد بطريقة لبقة، وأن لا يُعطي معلومات لمن لا يعرف.

المدرسة

من واجب الأم الاهتمام بصحة أطفالها ونظافتهم ومظهرهم الخارجي.

- إذا مرض الطفل، يجب أن يلزم المنزل حتى يشفى، كي لا يتسبب بنقل العدوى لزملائه. كما يجب على الأهل إبلاغ إدارة المدرسة عن سبب غيابه.
- يجب على الأهل الذهاب للمدرسة من وقت لآخر ومقابلة المدرسين بشرط أن يتم ذلك بناءً على موعد محدد؛ وتهدف هذه الزيارة إلى التعرف للمدرسين ومعرفة رأيهم في سير دراسة ابنهم أو ابنتهم، مع مراعاة عدم إزعاجهم بخصوص أمور تافهة.
- من واجب أولياء الأمور حضور الحفلات التي يقيمها التلاميذ في المدرسة، لأن مشاركتهم تُدخل السعادة إلى قلوب أطفالهم، كما أنها دليل على اهتمامهم بأولادهم.

الزيارة

عند زيارة أحد الأقارب أو الأصدقاء، من الأفضل عدم اصطحاب الأطفال الرضع أو المزعجين. ولضبط سلوك الأطفال عند الزيارة لا بد من توجيه بعض التعليمات إليهم قبل الزيارة كعدم العبث بالستائر وخلع الأحذية قبل الدخول أو محاولة إطعامهم في المنزل قبل الزيارة وغير ذلك مما يراه الأهل ضرورياً لضبط سلوك أطفالهم. وعند الزيارة لا بد من مراقبة سلوكهم كي لا يكونوا مصدراً للإزعاج.

المسؤولية

يجب على الأهل أن يعوّدوا أطفالهم على تحمل المسؤولية ولكن في حدود إمكاناتهم ودرجة نموهم الذهني، كترتيب غرفهم، أو مساعدتهم في بعض الأعمال المنزلية السهلة.

إتيكيت التعامل مع المجتمع

يكمن مقياس رقي مجتمع ومستوى إنسانيته وحضارته، في كيفية التعامل الاجتماعي بين أبنائه. وإذا كانت قواعد السلوك وآدابه تحكم العلاقات فيما بين أفراد المجتمع، فيصنف في مدارج الرقي. كما أن أبناءه الذين يراعون قواعد السلوك الاجتماعي الحسنة، يمتلكون وعياً حضارياً وقدرة على التواصل بفاعلية وشفافية مع المجتمعات الراقية في كثير من دول العالم.

وليس صحيحاً القول أن الضوابط الأخلاقية تقيد حرية الأفراد وتعوق تحركهم في المجتمع أو تتعارض مع حرياتهم الشخصية، لأن الهدف منها ضبط سلوك الأفراد والجماعات للارتقاء بالنزعات العدوانية لديهم إلى المواطنية الصالحة، تماماً كما هو دور شارات المرور التي وضعت لضبط حركة السير، والحد من الحوادث المميتة، والحفاظ على السلامة العامة. فالضوابط الأخلاقية تبعث على الشعور بالأمان والتناغم والمودة بما يشكل تهذيباً لسلوك الأفراد وسعادتهم، وصيانة لأمن المجتمع وديمومة ازدهاره ورقيه.

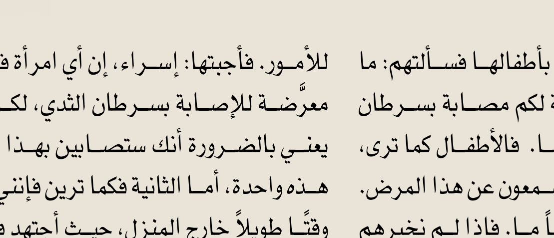
فحسن التعامل واللباقة ودماثة الخُلق باتت اليوم لغة عالمية مشتركة، وتطبيق مبادئ الإتيكيت يقدّم دليلاً قاطعاً على احترام الإنسان لنفسه، وتقديرها.

صورة شخصية



حين علمت الدكتورة سامية العمودي بإصابتها بسرطان الثدي، شعرت أنها قد تفيد بكتابة قصتها مع هذا المرض، لزيادة المعرفة، وكسر حاجز الصمت حوله. كانت عائلتها تنصحها دوماً بألا تبوح بالأمر وأن تبقيه طي الكتمان. لكنها قررت بصفتها امرأة وطبيبة أن تسعى لمساعدة غيرها من النساء لتجنب التجربة التي عاشتها. سارة البسّام، من قسم النشر في أرامكو السعودية، أجرت معها هذا الحوار لمجلة «سعودي أرامكو وورلد»، العدد سبتمبر/أكتوبر 2011م، وروت فيه تجربتها، مع هذا المرض وعملها على زيادة الوعي به.

رسم: المحترف السعودي - عمر صبير



د. سامية العمودي..
الوعي أهم علاج لسرطان الثدي

بدأت الدكتورة سامية بأطفالها فسألتهم: ما الذي يجب على صديقة لكم مصابة بسرطان الثدي أن تقوله لأطفالها. فالأطفال كما ترى، يفهمون ويشعرون بل ويسمعون عن هذا المرض. ويدركون أن ثمة مكروهاً ما. فإذا لم نخبرهم نحن، فربما يكون تأثير ذلك عليهم أشد سوءاً. وإذ يعتقد البعض أن إخبار الأطفال بمرض أمهم قد يعني عدم الاهتمام بمشاعرهم، إلا أن الواقع أنهم يستجيبون استجابة طيبة جداً حين يعلمون من البداية بأمر المرض. كان ابنها عبد الله في عامه الثالث عشر أما إسراء فكانت في التاسعة من عمرها. وقد أعطتهما الخبر كلاً بالجرعة المناسبة لعمره.

رهاب السرطان

تروي الدكتورة العمودي قائلة: «في يوم من الأيام جاءتني إسراء تقول لي: هل تعتقدين أنني عندما أكبر سأصاب بسرطان الثدي؟ كان يتحتم علي أن أكون صادقة من دون مبالغة أو تضخيم للأمور. فأجبتها: إسراء، إن أي امرأة في العالم معرَّضة للإصابة بسرطان الثدي، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنك ستصابين بهذا المرض. هذه واحدة، أما الثانية فكما ترين فإنني أقضي وقتًا طويلاً خارج المنزل، حيث أجتهد في العمل وأحيانًا ينتابني شعور بالقلق لأنني لا أقضي وقتاً كافياً معكِ. لكن أتعرفين لماذا؟ لأنني أريدك أن تقولي أنتِ وصديقاتك في المستقبل: أذكر أنه كان هناك مرض في الماضي يسمى سرطان الثدي، لكن الآن لم يعد له وجود على الإطلاق».

وترى الدكتورة العمودي أن سرطان الثدي هو «مرض العائلة». فهو لا يؤثر فقط في المرأة بل يصيب العائلة كلها بصدمة. وكانت الصدمة قوية في البداية، لكنها استطاعت أن تغيّرها حتى أصبح تأثيرها في أبنائها إيجابياً جداً. فقد بدأت في تغيير الطريقة التي تربي بها ابنها وابنتها، وبدأت تشعر أن عليها أن تعد عبد الله ليكون مستقلاً وقادراً على رعاية نفسه وشقيقته، ليكون مسؤولاً. فهو يعرف كيف يقضي حاجات البيت ويسدد الفواتير. وتقول الدكتورة العمودي في ذلك: لقد أردتهما أن يكونا مستقلين، ليدركا أن هذه هي الحياة، ويجب أن يكونا أقوياء ومؤمنين بالله. فما قدَّر الله أن يكون سيكون لا محالة. وعليهما أن يعرفا كيف يواجهان هذه الأزمات. اليوم السرطان؛ وغداً شيء آخر». وتعرب عن افتخارها بإسراء، فهي لا تعاني رهاب السرطان أو الاعتقاد السائد بأنه يعني الموت المحتم. إسراء وجميع صديقاتها وزميلاتها يعلمن ذلك، إنهن يتحدثن عن سرطان الثدي حتى لا يصبن برهاب منه.

كسر حاجز الصمت

الأمر لم يكن سهلاً، وكان يحتاج إلى اهتمام منهجي بجيل الابنة إسراء. فالمجتمع السعودي كما تقول الدكتورة العمودي، مجتمع محافظ وليس سهلاً الحديث فيه عن القضايا الحساسة، لكن الواجب والمسؤولية يحتمان كسر هذا الحاجز. فعندما بدأت تفكر في التوجه إلى المدارس للحديث مع الطالبات ممن تتراوح أعمارهن بين الثامنة

والثانية عشرة، قوبلت برفض بعض المدارس.
وتروي الدكتورة العمودي تجربتها: «أقول لهن إنكن سفيراتي في بيوتكن، وأقول لهن: إن خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز له سفراء في دول مختلفة، فأنتن سفيراتي لأنكن تحملن رسالتي إلى بيوتكن، وتقلن لأمهاتكن وآبائكن إن المهم أن يعتنوا بأنفسهم ويحافظوا على صحتهم وأن يجروا فحوصاً دورية كل عام».
فهي ترى أن التوعية وسيلة لتمكين المرأة بالمعرفة، ووسيلة للتركيز على الجيل الجديد. فلدى الفتيات تأثير على أمهاتهن أكثر من أي شخص آخر، إذ بوسعهن أن يتحسسن مشاعرهن تحسساً أفضل. فعند التحدث عن اكتشاف المرض المبكر، ولماذا يتحتم على النساء إجراء تصوير الثدي الشعاعي، فإن معرفة الأطفال عن المرض يحفز الأمهات على عدم إهمال الفحص اللازم.

العناية السليمة تبدأ بالذات

وتشرح الدكتورة العمودي المفارقة، في اعتناء الأم بأطفالها، وإهمالها نفسها، فتقول: «إن أي أم تجد طفلها يعاني من حمى بسيطة تهرع به إلى أقرب مستشفى، لكنها لا تذهب إلى المستشفى لو كانت هي المصابة بالحمى. ما يجب على النساء فهمه هو أنني حين أكون مريضة فإنني لن أستطيع أن أعتني بأطفالي. المشكلة التي نواجهها مع النساء هي أنهن ليست لديهن أمثلة حقيقية من واقع الحياة. وكوني طبيبة ومريضة في الوقت نفسه، يجعلهن يشعرن بأنني أدرك مشاعرهن. فأنا أعلم حقيقة عذابهن، وهن يعلمن أنني أقول لهن الحقيقة لأن لي سابقة مع المرض والمعاناة. وقد خضعت للعلاج الكيميائي، وأعرفه جيداً. فالمثال الحي هو أفضل مثال. لكن على الجانب الآخر هناك وسائل الإعلام أيضاً، لأن الكثير من النساء لا يُجدن القراءة أو الكتابة، لكن لدى معظمهن تلفاز. وخلال سردك لقصتك، يكون التأثير كبيراً في النساء».

عيادة متنقلة

وفي هذا الإطار تعد الدكتورة العمودي العدة لعيادة متنقلة في القرى والبلدات. هذا هو المشروع الذي تعتزم القيام به السنة القادمة. ففي عام 2008م، أنشأت الدكتورة العمودي الكرسي العلمي لأبحاث سرطان الثدي. وفي العام 2011م، بدأت العمل في مركز التميز لرعاية سرطان الثدي. والآن في العام 2012م، تأمل أن تكون لديها الأموال الكافية لتوفير هذه السيارة حتى تتمكن من الوصول إلى النساء في المناطق النائية والنساء اللاتي لا يتسنى لهن الحصول على الرعاية الطبية.

... والمرأة الصماء والبكماء

ولا تكتفي العمودي بهذا التوسع في الخدمة، بل تريد إيصال رسالتها إلى النساء الصمّاء والبكماوات. وتقول: «في يوم من الأيام، تلقيت دعوة على الغداء بأحد أندية الصم والبكم. وهناك التقيت صاحبة السمو الملكي الأميرة صيتة بنت عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، وكنا نتناقش حول التجاهل الذي تواجهه هذه الفئة من النساء إذ إنهن لا يتلقين الرعاية الصحية التي يحتجن إليها. وقد شعرت بصدمة بالغة عندما علمت أن هناك أكثر من 750 ألف رجل وامرأة يعانون مشكلات السمع في المملكة. وكان أول ما قمت به هو أنني تعلمت لغة الإشارة حين التحقت بدورة تدريب هنا في المركز مع زملائي في الإدارة. ثم بدأنا تغيير جميع اللافتات في المركز لتكون بلغة الإشارة إلى جانب اللغتين العربية والإنكليزية. وبهذه الطريقة تستطيع أي امرأة صماء تأتي إلى المركز وهي لا تجيد القراءة أن تفهم الإشارة. بعد ذلك ألفت ذلك هذا الكتاب حول سرطان الثدي، وبفضل الله تعالى أصدرناه هذا الشهر بلغة الإشارة أيضا».

خبرة الآخرين

ولا تكتفي الدكتورة العمودي بتوسيع نشاطها في المملكة، بل تقول: «أنا عضو في شراكة الولايات المتحدة والشرق الأوسط، التي أطلقتها عقيلة الرئيس الأمريكي السابق السيدة لورا بوش في أكتوبر 2007م. وهي شراكة بين الولايات المتحدة ومختلف الدول العربية، علاوة على منظمة سوزان جي. كومن الأمريكية وهي منظمة شريكة. وقد استفدنا كثيراً مما يمتلكون من خبرة. السعودية بلد غني، ولدينا أفضل التقنيات وأفضل الأطباء، لكن تنقصنا خبرة هؤلاء الأشخاص. فسوزان جي. كومن هي أكبر مؤسسة توعية وتعليم، وهي تمارس هذا النشاط منذ 25 عاماً. وليس حكيماً أن نعيد ابتكار ما ابتكروه بينما نستطيع أن نتعلم من تجربتهم وأن نكيفها لتناسب ثقافتنا».
وترى ثمة خصوصية ما في مخاطبة النساء السعوديات خارج المملكة «لأننا هنا في مجتمع محافظ وليس سهلاً على النساء أن يأتين للحديث عن أنفسهن، ولا تعترف النساء بأنهن مصابات بسرطان الثدي مخافة أن يحجم الناس عن التقدم لطلب بناتهن للزواج. هناك اعتقاد خاطئ بأن هذا المرض وراثي ويصيب العائلة بأكملها. ولكني أستطيع القول إننا نشهد تغييراً كبيراً في النظرة والموقف والوعي بالمقارنة مع السنوات الثلاث أو الأربع الماضية».

كتاب حقوق المريضة

ثم تتحدث الدكتورة العمودي عن إعدادها كتاباً حول الحقوق الصحية للمرأة السعودية، فتقول إنه في الأساس معني بمريضات سرطان الثدي. وهدفه الأول تمكين المرأة من فهم حقوقها، فهناك اعتقاد خاطئ أن المرأة يجب أن تحصل على إذن ولي أمرها. في الإسلام، وبموجب النظام واللوائح، وحتى في دليل وزارة الصحة نفسه، الشخص البالغ، رجلاً كان أو امرأة ، هو المسؤول عن حالته/حالتها الصحية ورعايته/رعايتها الصحية. ليس ثمة حاجة إلى توقيع ولي الأمر نموذج الموافقة. لكن بعض الأطباء لا يعرفون. لذا، فالأمر لا يعدو كونه عادة وعرفاً ولا علاقة له بالإسلام أو النظام، ويسعى الكتاب إلى مساعدة المرأة ومقدمي الرعاية الصحية من خلال توضيح أن هذه هي الوثائق الرسمية والقواعد المعمول بها في المملكة.
ومع كل هذه الجهود لا ترى الدكتورة العمودي أن الأمر كاف، بل تعتقد أن ثمة جهوداً كثيرة لا بد من بذلها قبل أن يصبح الوضع مرضياً، إذ تقول إن الدراسات أظهرت أن عدد الحالات سيزيد ما لم نستعد جيداً. ولكن مع الوعي، لن يمثل عدد الحالات مشكلة: فالمشكلة تكمن في عدد حالات المراحل المتقدمة. فإذا استطاعت المرأة أن تكتشف سرطان الثدي في وقت مبكر، فبالوسع معالجته، إذ بلغت نسبة النجاح نحو 98%.
وقد تمنت د. سامية العمودي أن يأتي يوم يكون العالم فيه خالياً من سرطان الثدي، وأن ترى مزيداً من التمكين للمرأة، ومزيداً من الاهتمام بالجيل الجديد. وتقول: «ربما لم أستطع أن أفعل الكثير لنفسي، لكنني أحاول عمل الكثير لابنتي، حتى تستطيع العيش في عالم خالٍ من السرطان».
وعندما يتحدث الناس في الوسط الإعلامي عن سرطان الثدي فسيكون هذا هو أكبر دعم للتوعية بهذه القضية المهمة.

فلم «مونوبولي» هو إحدى مفاجآت الإعلام الجديد الباعثة على الدهشة، فقد اكتسح منصة العرض الإلكترونية «يوتيوب»، بعرض مدته 23 دقيقة، من إخراج الشاب بدر الحمود وسيناريو عبدالمجيد الكناني، وتمثيل محمد القحطاني، فيصل الغامدي، نواف الغامدي، خالد الرحيل، عبدالرحمن الطعيمي ومحمد الموسى بمشاركة الكاتب الاقتصادي عصام الزامل، وجميعهم من الشباب الناهض غير المكرّس في الإعلام العام. **خالد ربيع السيد**، يستعرض هنا أهم الرسائل التي يوجهها الفلم إلى جمهور لا يعرف هذا الفن إلا خارج الحدود.

هل يتخلى السعوديون عن المطالبة بإنشاء صالات العرض السينمائي؟

فلم «مونوبولي» على اليوتيوب..



المشهد الأخير من الفلم

بُث الفلم في 13 سبتمبر 2011م، وصادف الأسبوع الثاني بعد عيد الفطر الماضي، وهو توقيت يتصف بهدوء أوجه نشاط المجتمع السعودي في مختلف المدن، مما دعم انتشار الفلم، وحث على مشاهدته التي بلغت في غضون الأسبوعين الأولين مليون مشاهدة، وهنا تكمن الدهشة.

لكن التوقيت ليس وحده السبب في رواج الفلم، بل لأنه تناول مشكلة مُلحّة ومؤرقة وهي مشكلة الإسكان واحتكار الأراضي في السعودية من قبل من يطلق عليهم «الهوامير» الذين يظهرون في مشهد من الفلم وكأنهم (كلاب مسعورة) تنهش أحد أبطال الفلم.



أحد أهم أسباب نجاح الفلم هو ملامسته لهمّ تعاني منه شريحةً كبيرة من المجتمع وخاصة الشباب

تم اقتباس عنوان الفلم من لعبة المونوبولي الورقية الشهيرة التي تُلعب على لوح بقياس 60 سم مربع في الغالب، مرسوم عليه نقطة انطلاق وبيوت واستراحات ومحطات بنزين وأراضٍ وبعض الرموز مثل المصباح الكهربائي الذي يمثل شركة الكهرباء والقطارات السوداء التي تمثل السكك الحديدية، وشركة توزيع المياه، وأراضي، وكل له قيمة شراء وقيمة مرور. وتقوم فكرة تلك اللعبة (الفلم) على تنافس ستة أو ثمانية لاعبين كحد أقصى لمحاولة جمع ثروة عن طريق بيع وشراء العقارات وتأجيرها أثناء تحرك اللاعبين على اللوحة بحسب نتيجة رمي النرد، ويتم في بداية اللعبة توزيع مبالغ من بنك اللعبة نحو 1200 دولار لكل لاعب ليبدأ المتاجرة بها. وكما هو معروف فإن كلمة مونوبولي تعني بالعربية الاحتكار، وهو السلوك الاقتصادي الذي يسيطر فيه بائع ما على سلعة معينة ويتحكم في سعرها، وقد تم تعريب اللعبة تحت مسمى «بنك الحظ» في بداية السبعينيات.

سر نجاح الفلم

أحد أهم أسباب نجاح الفلم هو ملامسته لِهمٍّ تعاني منه شريحة كبيرة من المجتمع وخاصة الشباب، فغلاء أسعار الأراضي والسكن سواء التملك أو الإيجار أصبح يضغط على المواطنين بشكل كبير. ورغم المعاناة التي يشعر بها المواطنون إلا أن بعضهم قد يجهل الأسباب الحقيقية لهذه المعاناة، كما أن البعض الآخر يجهل كيفية الخروج من هذه الأزمة بحلول قابلة للتطبيق ومضمونة النجاح.

وطرح الفلم يرتكز على تسليط الضوء على المشكلة وأسبابها، واقتراح حلول لها بأسلوب مبسط يجمع بين التوثيقية والتمثيل «الديكودراما» من خلال قالب الكوميديا السوداء الذي أهله للوصول لأكبر شريحة ممكنة من المشاهدين.

حكايات شباب

تدور أحداث الفلم حول مجموعة من الشباب تتباين حكاياتهم لكنها تجتمع في همّ واحد وهو العجز عن تأمين السكن اللائق، إذ تختار الشخصية المحورية في الفيلم (محمد القحطاني) السكن في سيارة من نوع«فان»، يتنقل بها بين البحر والأحياء الراقية، ويوفر لنفسه داخلها، سريراً للنوم وبعض مستلزمات الحياة الأساسية، لكنه يكتشف سوء تدبيره بعد أن يقرر الزواج، إذ من الصعب أن يجد شريكة حياته التي يمكن لها أو لعائلتها أن تتقبل المعيشة في سيارة متنقلة.

وبأسلوب ساخر يعرض محمد القحطاني، في أحد المشاهد، على وزارة الإسكان استئجار سيارته الفان لتصبح مقراً للوزارة، التي قال إنه سمع بأنها لم تجد مقراً لها حتى الآن، مشيراً إلى أنها بذلك ستصبح أول وزارة متنقلة في العالم!

يتوجه البطل الثاني للعمل في البرازيل كمدرب لكرة القدم، (قام بالدور مخرج الفلم: بدر الحمود تحت اسم كاتب السيناريو عبدالمجيد الكناني) وهي من الإسقاطات الساخرة التي يتضمنها الفلم حيث يعمل شاب سعودي مدرباً لكرة القدم في البرازيل، مستعيناً بما يملكه من خبرة محلية!..وكان قرار انتقاله مبنياً على فشله في العثور على سكن، وفي البرازيل تمكّن من العيش في بيت عشوائي مجان بكل بساطة ودون مساءلة، وبدأ في تدريب الصبية أصول كرة القدم، وعندما انتهت مدة إقامته في البرازيل قبض عليه وتم ترحيله الى كولومبيا، وهناك



مشاهد ولقطات من الفلم

عمل في ترويج المخدرات على أمل أن يعود إلى بلده في يوم من الأيام.

شاب آخر (نواف الغامدي) اضطر إلى تزوير جنسيته ليصبح لبنانياً ويعمل مندوباً للمبيعات!..وبذات الكيفية تتصارع شخوص الفلم وهم خمسة من الشباب يقطنون في غرفة واحدة، لا يشغلهم سوى حمل أجهزة «اللاب توب» وقضاء الأوقات الطويلة في عزلة إلكترونية، رغم أنهم متعلمون وخريجو جامعات (طبيب ومهندسان وشابان آخران) وفي مقتبل حياتهم العملية، وجميعهم يواجهون المشكلة نفسها التي تتلخص في عدم الاستقرار في سكن خاص، فيحاول كلٌّ واحد منهم على طريقته إيجاد حل جذري لمشكلته، ويفشل الجميع، وبعدما يطردهم صاحب الغرفة لعدم تمكنهم من دفع الإيجار الذي رفعه، يؤول بهم الحال إلى استئجار «الفان» المتنقل للعيش فيه. وهنا يتمثل انتصار ثلاثة من لاعبي المونوبولي وهم التجار، كما ظهروا في أحد المشاهد، ضد خمسة خاسرين وهم الشباب .



تضمَّن الفلم عرض عدد من المشاهد الفنتازية منها وصول مخططات الأراضي إلى البحر وملاحقة الهوامير لأصحابها، فيما يتداخل أثناء مجريات الفلم الكاتب الاقتصادي عصام الزامل، ويوضح للمشاهد بعض الحقائق الاقتصادية. منها أن سلوكيات الاحتكار أسهمت بشكل رئيس في ارتفاع أسعار الأراضي لأرقام غير معقولة، حتى إنه بات من المستحيل للمواطن - صاحب الدخل الأقل من 15 ألف ريال — التفكير في امتلاك أرض، ناهيك عن امتلاك مسكن. وأن 50% من الأراضي داخل النطاق العمراني في مدينة الرياض هي أراضٍ بيضاء غير مُعمَرة.





وفي مداخلاته طالب عصام الزامل بفرض رسوم تصاعدية على الأراضي المحتكرة، وأكد أن ذلك هو الحل لإعادة أسعار الأراضي إلى أوضاعها الافتراضية حتى تكون في متناول معظم المواطنين.



الفلم وما وراء الأكمة

بكل تأكيد، فإن الهمّ الشعبي هو المفتاح الرئيس الذي يقودنا إلى فهم الانتشار الكبير والمبكر للفلم، بعد مضيّ أقل من أسبوع على بثه، فالجمهور متعطش لأي طرح يناقش قضاياه الحقيقية بعيداً عن حواجز الإعلام أو بروتوكولات الصحافة الورقية الرسمية، وهو الأمر الذي يمكن قراءته من ردود الأفعال على الفلم والتي اتسمت في معظمها بالإيجابية والتأييد لفحوى طرح الموضوع دون الدخول في التفاصيل.





المخرج بدر الحمود

- بدر عبدالمجيد الحمود (26 سنة) مخرج سعودي ومصوِّر ومهندس تصميم داخلي، برز في مجال الأفلام السينمائية القصيرة بأصنافها الروائية والوثائقية والإعلانات التلفزيونية وله محاولات في مجال الفديو كليب. أفلامه لا تتعدى الدقائق ولكنها تقول الكثير.
- في 2006م قدَّم فلمه القصير الأول بعنوان «حمامة حرب»، عن حمامة تبحث عن السلام.
- في 2008 حقق فلمه القصير «أبيض وأبيض» المركز الثالث في مهرجان الخليج السينمائي.
- وفي نفس السنة فاز فلمه «بلا غمد» في مهرجان الخليج في دبي وفاز في مسابقة الأفلام السعودية.
- في 2009م قدَّم فلمه القصير «شرود» سيناريو طارق الحسيني وتصوير طراد القحطاني. يحكي قصة رجل تأسره حالة من الشرود.
- وفلم «بالونة» وهو فلم يتحدث بطريقة رمزية عن علاقات الحب العابرة التي تشبه النفخ في البالونة.
- وفلم «كالهواء» عن النشاط التطوعي للشباب، وهو طويل نسبياً 55 دقيقة.
- في 2010م فاز فلمه القصير «داكن» بجائزة اللؤلؤة السوداء لأجمل تصوير لفلم قصير بمسابقة أفلام من الإمارات ضمن مهرجان أبوظبي السينمائي.
- في بداية 2011م قدَّم من خلال اليوتيوب فلم كوميدي ساخر بقالب وثائقي بعنوان «الاتصال الأخير» ينتقد فيه شركات الاتصالات ، من تاليفه بمشاركة عبدالمجيد الكناني.
- شارك في مهرجان أبوظبي السينمائي 2011 بفلم وثائقي قصير جداً بعنوان «طائرة ورقية» صوره في المناطق العشوائية الشهيرة في البرازيل.

وأيضـاً يؤكد التفاعـل الكبير مع الفلم علـى أنه مؤشر على عمق المشكلة واستفحالهـا، وبالتالي ضرورة البدء الفوري في معالجتهـا حتى لا يزداد الوضع سـوءاً ولا تزداد معاناة المواطـن، الأمر الـذي يعطي أملاً في وصـول الرسالة إلى كل من بيده القرار لإصـلاح الوضع. إضافة إلى هذا وذاك يمكن القـول أن قيمة العمل الأساسية تكمن في جرأته على مناقشـة قضيـة عامة فـي قالب فنـي، في محاولـة لرصد المشكلـة الحقيقية وكشف مـا وراء الأكمة ووضعها في دائرة الضوء.

لم يسلم الفلم من سهام النقد التي وصلت في بعض أمثلتها إلى حد السلبية والاتهام بأن هناك مؤامرة وراء إنتاجه لخلق البلبلة وتهييج المجتمع

ومن زاوية أكثر قرباً من محتوى الفلم راحت الآراء الناقـدة تؤكـد أن الفلم تناول مشكلة شائكـة تشتبـك فيها عـدة عناصـر وحمّل القطـاع الخاص المسؤولية شبـه الكاملة، وصور التجار علـى أنهم جشعون «هوامير»، وهذا ما لا يسعفه التحليل المنطقي، بحسب أراء البعـض، فأزمـة الأراضـي البيضـاء غيـر المستصلحـة هي أزمة تشريعية فـي الأساس، كما أن القطـاع العام يتحمل جزءاً كبيراً مـن المسؤولية، هذا عدا ضآلة وجود مراكز أبحاث تقدِّم أرقاماً حقيقية فيما يخص معـدلات النمو وعلاقة ذلك بموضـوع الإسكان، إضافة إلى أزمـة الهجرة إلى المـدن الكبرى والتكدس الشديد الذي تعانـى منه جـراء ذلـك، مما يعني غيـاب مفهـوم التنمية بمعناها الشامل في الأطراف.

وهكذا لم يسلم الفلم من سهام النقد التي وصلت في بعض أمثلتهـا إلى حد السلبيـة والاتهام بأن هنـاك مؤامرة وراء إنتاجه لخلـق البلبلة وتهييج المجتمع، ولكن بين الاحتفائية الشديدة وبين النقد القاسي الذي يتجاوز الفلم إلى محاولة زرع علامات الاستفهام حولـه، يكمن السؤال البديهي: إلى أي مدى يُعد «مونوبولي» عملاً نوعياً كمحتوى وقيمة فنية ؟. وهـل سيستغنـي المجتمع السعودي عـن دور السينما ـ التي طالمـا نـودي بأهمية وجودهـا في المـدن السعودية ـ بقناة اليوتيوب والعرض الإلكتروني؟.

وهنا تقول الآراء إنـه من الناحية الفنية فإن الفلم رغم جودة الأدوات المستخدمـة في صناعته والأفكار المبدعة التي بدت في بعـض تفاصيله على مستوى اللقطة والفكـرة إلا أنه عانى من ارتباك في وحدة الفكرة كما أن كوميدياه التي أريد لها أن تكـون سوداء بدت مفتعلة في بعـض الأحيان وأقرب إلى النقد المباشر، من جهة أخرى فإن المزج بين الوثائقية والتعليق على المقاطـع قد أحدثا ارتباكاً في السيـاق الفني الإيهامي للفلم، وربمـا كان الأجمل في مشاهد الفلم: السفن القديمة الصدئة فـي عرض البحر، ومشهد الأطفال وهم يشاهدون سينما حية في الهواء الطلق مـن خلال شاشة عرض بسيطة وبروجيكتور في تنبيه رمزي إلى قيمة الفن والسينما لدى الأجيال الجديدة التـي باتت أكثر وعياً وتطلعـاً لمستقبل مختلف، وهي في نفس الوقت مطالبة ضمنية بإنشاء صالات عرض سينمائية وإشارة إلى عدم الاستغناء عن وجود هذه الصالات.

قصة لعبة المونوبولي

لعبـة المونوبولـي ابتكرها شـاب أمريكي يدعـى «تشارلز دارو»،عام 1935م، وكان حينئـذ مندوباً للمبيعات لأجهزة السخانـات المنزلية بمدينة نيويورك. تعرَّض للتسريح من العمـل، فوجد الفراغ الذي مكنه من اختراع اللعبة، ثم قام بطباعتهـا ونشرهـا بين أصدقائـه، ولاحظ أنهـم أحبوها وأصبحـوا يتسلـون بها في أوقـات فراغهم، ولـم يستغرق الأمـر مدة طويلة، فقد تطور الأمـر بمساعدة زوجته وابنه وصديقـه فنان الغرافيكس لعمل لوحـة اللعبة ووضع عليها أسماء استعارها من مدينـة «أتلانتيك سيتي» وهي منتجع شهيـر يقع على ساحل نيوجيرسي جنوبي نيويورك، وخلال أشهـر أنتج دارو نحو خمسة آلاف نسخة من اللعبة وباعها، ثـم باع حقوق اللعبـة إلى شركة صناعـة الألعاب «الأخوان باركر»..
وهكـذا جعلـت هـذه اللعبـة دارو مليونيراً وأنقـذت شركة الإخوان باركر من الإفلاس خلال فترة الأزمة الاقتصادية.



والآن وبعـد مرور 75 عامـاً على ابتكارها، مـا زالت اللعبة الأكثر رواجاً في العالم، حيث يتم لعبها في 111 دولة ، وقد صدرت بـ 43 لغة منطلقـة من الولايات المتحدة الأمريكية لتغـزو كافة أنحاء العالـم، وبحسب موسوعـة غينيس فإن ممارسيهـا وصلوا إلـى نحو خمسمائة مليـون شخص منذ انطلاقهـا حتى سنـة 1999م، ومـع ثورة التقنيـة الرقمية حولت شـركات البرمجـة الحاسوبيـة اللعبة إلـى برنامج إلكتروني ليتم لعبها من خلال أجهزة الكمبيوتر.

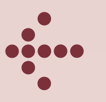
ديوان الأمس

يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.. أو قد تختار القافلة قصيدة لشاعر معاصر.

ديوان اليوم



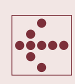
حنينٌ مثل قوس المطر



نستضيف في هذا العدد الشاعر إبراهيم حسين زولي، ليقرأ لنا نماذج من الشعر العربي، يطل من خلالها على إمرئ القيس وغزلياته، وينتهي بأبي تمام ووصفياته، مروراً بأبي نواس وأبي الطيب أبي العلاء. والشاعر زولي من مواليد مدينة ضمد، أصدر عدداً من الأعمال الشعرية، منها: رويداً باتجاه الأرض، 1996م؛ أول الرؤيا، 1999م؛ الأجساد تسقط في البنفسج، 2006م؛ تأخذه من يديه النهارات، 2008م؛ رجال يجوبون أعضاءنا، 2009م؛ قصائد ضالة، 2010م.

الرسوم: المحترف السعودي - عمر صبير

ديوان الشعر ديوان العرب



تقول العرب: أشعر الشعراء إمرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وهو، أعني الأعشى، سُمّي صناجة العرب.

من الأبيات التي تلذّ لي، قوله في معلقته التي مطلعها:

ودِّع هريرة إن الركب مرتحلُ
وهل تطيق وداعاً أيها الرجلُ

لنستمتع معه فيما بعد بتوصيفه النادر لمحبوبته:

غراء فرعاء مصقول عوارضها
تمشي الهوينا كما يمشي الوجى الوحلُ
كأن مشيتها من بيت جارتها
مر السحابة لا ريث ولا عجلُ
تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت
كما استعان بريح عشرق زجلُ
ليست كمن يكره الجيران طلعتها
ولا تراها لسر الجار تختتلُ
يكاد يصرعها لولا تشددها
إذا تقوم إلى جاراتها الكسلُ
إذا تقوم يضوع المسك أصورة
والزنبق الورد من أردانها شملُ
ما روضة من رياض الحزن معشبة
خضراء جاد عليها مسبل هطلُ
يضاحك الشمس منها كوكب شرق
مؤزر بعميم النبت مكتهلُ
يوماً بأطيب منها نشر رائحة
ولا بأحسن منها إذ دنا الأصلُ
علقتها عرضاً وعلقت رجلاً
غيري وعلق أخرى غيرها الرجلُ

إلى أن يقول ذلك البيت الذي يصدق عليه (يتمنَّعن وهن الراغبات)

قالت هريرة لماجئت زائرها
ويلي عليك وويلي منك يارجلُ

ونحن مازلنا في الشعر الجاهلي يطيب لي أن أذكر بيت لبيد بن ربيعة:

ولقد سئمت من الحياة وطولها ...
وسؤال هذا الناس: كيف لبيدُ

ما أدهشني في هذا البيت هو كسر الأنساق النحوية في قوله (هذا الناس) والطبيعي أن يقول هؤلاء الناس. من التأويلات لمثل هذا التعبير هو: مثلما أن السؤال مكرر من الناس وكأنه من رجل واحد فاستحسن أن يضع له كلمة هذا لأنّ السؤال واحد وكأن قائله واحد. إلى غير ذلك من الاعتبارات البلاغية التي ليس هنا محل ذكرها.

كذلك يحضر في ذاكرتي الآن أبو الطيب المتنبي الذي وصل به الاعتداد بالذات ما وصل في هذه الأبيات:

أي مكان أرتقي	أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الله	وما لم يخلق
محتقر في همتي	كشعرة في مفرقي

حتى وهو بين يدي الممدوح لا يفتأ يمدح نفسه من ذلك قوله:

وما الدهر إلا من رواة قلائدي
إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا
وغنى به من لا يغني مغردا
أجزني إذا أنشدت شعرا فإنما
بشعري أتاك المادحون مرددا

لكنه مع هذا الشعور بعظمة النفس له أبيات في وصف المحبّ قمة في الطرْح:

أرقٌ على أرق ومثلي يأرقُ
وجَوىً يزيدُ وعَبرةٌ تترقرقُ
جُهدُ الصَبابة أن تكونَ كما
أرى عَينٌ مُسَهّدةٌ وقَلبٌ يَخْفقُ
ما لاح برقٌ أو تَرَنّم طائرٌ
إلا انْثَنَيتُ ولي فؤادٌ شيِّقُ
جَرَّبتُ مِنْ نارِ الهَوى ما تَنطفي
نارُ الغَضى وتَكِلُّ عَمَّا تُحرِقُ
وعَذَلتُ أهلَ العشقِ حتّى ذقْتُهُ
فعَجِبْتُ كيْفَ يَموتُ مَنْ لا يَعْشَقُ

من الشعراء الفلاسفة أبو العلاء المعري. شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء صاحب الرسالة الأشهر (رسالة الغفران) وصاحب اللزوميات وهو رهين المحبسين، البيت والعمى. له أبيات في مساءلة الوجود، والحياة قلّ مثيلها في قديم الشعر العربي:

رَغِبْنا في الحياة لفرط جهل
وفقدُ حياتنا حظٌّ رغيبُ
شكا خُزَز حوادثها، ولَيثٌ
فما رُحمَ الزَئيرُ، ولا الضغيبُ
شَهِدْتُ، فلم أُشاهد غيرَ نُكر
وغيّبني المنى، فمتى أغيبُ؟

وقصيدته الأشهر التي مطلعها:

غير مجد في ملتي واعتقادي
نوح باك ولا ترنم شادي

ومنها:

تعب كلها الحياة فما أعجب
إلا من راغب في ازدياد



وفي هذا الصدد لابدّ من الوقوف على نماذج لشاعر مهمّ في المدونة الشعرية العربية وهو أبو نواس. هذا الشاعر الذي تمرد على السائد والمألوف لغة وواقعاً. وهو لم يكن منبتاً من جذوره كما يعتقد فقد ذكرت الأقوال أنه حفظ الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وحفظ ألف أرجوزة من شعر العرب. ثمّ فتح آفاقاً جديدة في سياق الشعر العربي بعد ذاك. يقول:

دَعْ عَنْكَ لَوْمي فإنّ اللَّوْمَ إغْراءُ
ودَاوني بالّتي كانَتْ هيَ الدّاءُ
صَفراءُ لا تَنْزلُ الأحزانُ سَاحَتها
لَوْ مَسّها حَجَرٌ مَسّتْهُ سَرّاءُ
قامْت بِإبْريقها، والليلُ مُعْتَكِرٌ
فَلاحَ مِنْ وَجْهها في البَيتِ لألاءُ
فأرْسلَتْ مِنْ فَمِ الإبْريقِ صافيَةً
كأنّما أخذَها بالعينِ إغفاءُ

إلى أن يقول في آخر النصّ:

فقلْ لمنْ يدّعي في العلم فلسفةً
حفظْتَ شيئًا، وغابَتْ عنك أشياءُ

ويقول في قصيدة أخرى:

عَيْني! ألومُك لا ألومُ القلبَ، لا ذنبٌ لقلبي
أنْت التي قد سمْته ببَليّةٍ وضَنىً وكرْب
وسقيْتِه منْ دَمْعك السَّفّاك سَكْباً بعدَ سَكْبِ
فنما الهوى فيه وشبَّ، وصار مألفَ كلّ حبِّ
ويْلي على الرّيم الغَرير الشّادن الأحْوَى الأقَبِّ
تتْرى لديَّ ذنوبهُ ، ويجلّ في عينَيْه ذَنْبي
إن زار رَحّبْنا ، وإن زُرْناهُ لم نَحْلُلْ برَحْبِ
وإذا كتبتُ إليه أشْكو لم يَجُدْ بجوابِ كتْبي

وله:

حامِلُ الهَوى تَعِبُ	يَستَخِفُّهُ الطَرَبُ
إن بَكى يُحَقُّ لَهُ	لَيسَ ما بِهِ لَعِبُ
تَضحَكينَ لاهِيَةً	وَالمُحِبُّ يَنتَحِبُ
تَعجَبينَ من سَقَمي	صِحَّتي هِيَ العَجَبُ
كُلَّما انقَضى سَبَبٌ	مِنكِ عادَ لي سَبَبُ

وهناك أبو تمام ذو التجربة المدهشة، والتراكيب الجديدة في عصره، والسياقات التي لم يكن لها وجود قبله، له بيتان لهما فرادة على الأقلّ في ذاكرتي.

مطرٌ يذوب الصحو منه وبعده
صحو يكاد من النضارة يمطر
غيثان: فالأنواء غيث ظاهر
لك وجهه والصحو غيث مضمر

لا تعليق على هذه الأبيات!! فالصورة هي التي تتحدّث، والكلام عنها قتل لها.

فقلْ لمنْ يدّعي في العلم فلسفةً
حفظْتَ شيئًا، وغابَتْ عنك أشياء

قصائد

شِعر: إبراهيم حسين زولي



تطلّ عليه شياطينه

عاد سرب العذارى
أعدُّ الحقيبة كنت
أزيّنها بالأغاني
لقد بشّرتني الطيور
بهذا الحنين الذي
مثل قوس المطرْ

***

كان يصحو على
معصم الورد
متّقداً بالرماد
يمدّ له العمر خنجره
مترعاً بالجهات
يغني على
ظله ويعيد
يلوّن بالغيم
أجنحة للحمامْ

***

غاب سرب العذارى
تذكّر يوم
استبحْنَ براءته
كان يمشي
على الدرب
مستهدياً بالربيع
تطلُّ عليه
شياطينه ثمّ
يغمض عينيه
في فرح
ليس يعرفُ
من سترافقه
في المنامْ؟

قلق يستعيد السكينة

تطلّ عليّ القصائد
في آخر السنوات
أرى
ظلمة
الأرض
تغرق في
الجسد الرحب
تطفئُ مصابحها
قمماً من خرائب
مأهولة بالجنون
فما عاد في الشعر
شعر لننشدهُ..

***

فوق أيّ الدروب
ستنصب جثتنا؟
قلقٌ قاحلٌ
يستعيد السكينة
تلك طرائده
دونما بطلٍ
يتسلّل بين السطور
يلوّن زنزانة المفردات
كأنك تنكرني
آخر العمر
هل ستودّع
نجمة خيباتهم؟
ثمّ تجلس منتصراً
في ضباب الطريق

***

عليّ الجهات
أبعثرها في المرايا
لئلاّ يداهمها
فيلق النزوات
متى يفق العابرون
ولا تتوارى
الحياة عن الناس
مطرودة مثل
ذئب جريح
كأنك للتوّ تخرج
من شبق الأولين
كأغنية تتحسّ
شهقتها في الوجوهْ.

مطر لا حدود له

أيها المتألق كالنهر
هل تستعيد



البهاء الذي
في الملامح,
أنشودة
لاقتياد
النداءْ
لاتقل إنه البرد
في هودج الشعراء
الكلام يبدّل وحشته
ويعيد إلى
الناس أسماءهم

***

أيها المتآكل
وقت الحداد قريب
أصابعك السمر
ظمأى إلى مطرٍ
لاحدود له
المدى فيك
معتصم بالضياءْ
أنت لا تشبه الآخرين
تبوّأت فيء الخصوبة
هذا دم يرشق الشمس
يصقل حافّتها
أنجبتك القصائد ثانية
من رماد أليفٍ..

***

كمن يتمدّد
في شجرٍ يتوالد
كالكبرياء
تعود إلى البدء
مفتتحا
صفحة
من
هباء.



فيكتور هيجو..
حياته وآراؤه الغريبة

المحترف السعودي - عمر صبير



كان هيجو مولعاً بالفخامة والمبالغة، بينما كان ايمرسون ووايتمان يريان نفسيهما إلهين أو أدنى من ذلك بقليل. أما شارلز ديكنز فلا يرى نفسه أكثر من مجرد كاتب، وإنه سيف الطفولة في وجه عالم الكبار القاسي، بينما يرى بلزاك نفسه مسجلاً لتاريخ المجتمع الفرنسي. فيان الخفاجي تقرأ لنا سيرة فيكتور هيجو وكيف كان متفوقاً بإمكاناته العقلية الفذة وقدرته على الإحساس بالأشياء من حوله، مما جعل الناس يلقبونه بالرجل الخارق «السوبرمان».

هيجو: الشاعر والرسام

امتلك فيكتور هيجو ذاكرة صورية طويلة الأمد، ظلت قوية حتى بعد أن طعن في السن، فكان لا يروي القصة نفسها للشخص مرتين، وكانت حاسة السمع لديه خارقة بحق تمكّنه من تمييز أدق الأصوات حتى تلك التي يصدرها النمل والحشرات المختلفة تحت سطح الأرض بل ويحدد مكانها أيضاً.

أما نظره فيقوم مقام الكاميرا أو التلسكوب، إذ كان بإمكانه أن يرصد أبعد المناطق والأبنية التي يقع نظره عليها. وربما الفصل الشهير من روايته الأكثر شهرة «كاتدرائية باريس» هو أوضح مثال على حاسة البصر الهائلة التي يمتلكها، فقد كان ينظر وهو واقف في أحد أبراج الكاتدرائية الضخمة إلى الأسفل ليصف أدق تفاصيل المنظر الذي تحته: شوارع باريس المزدحمة بالناس من كافة الأشكال والطبقات إبان القرون الوسطى، وكأن عينيه جهاز كاميرا رقمية مثبتة على قنبلة من تلك التي يسمونها اليوم بالقنابل الذكية.

كان يستطيع أن يدخل النوافذ البعيدة، بعينيه المجردتين، مصوراً كل ما يحصل في داخلها. وقد دفعته مهارته البصرية الهائلة إلى احتراف التخطيط والرسم. أكثر من ثلاثة آلاف تخطيط ثبتت نسبتها لهيجو، ناهيك عن اللوحات التي يوصف بعضها بأنه أكثر من جيد جداً. كان هيجو يوقِّع لوحاته بالحرفين الأولين من اسمه V.H وأعتاد أن يزخرفهما بشكل فخم وبارز وبضربات قوية بفرشاة الرسم. لقد أدخل هيجو في رواياته بعضاً من هذه الرسوم والتخطيطات مثل العفريت الصغير جافروش في روايته البؤساء.

الجانب المظلم في حياة هيجو

عُرف هيجو في شبابه بالتزامه الأخلاقي. وانعكس ذلك على دواوينه الشعرية المسماة بـ «الشرقيات». كان يستنكر الحريم في قصور السلاطين العثمانيين الذين وصفهم بالبرابرة، وكان يتجوَّل في أروقة تلك القصور بعينيه المصورتين وكأنه عاش هناك فعلاً. أما على مستوى حياته الشخصية، فقد أضاف إلى زوجته الرسمية «أديل» زوجة أخرى غير رسمية وهي «جولييت درووي» (التي كانت متفانية له بشكل موجع وظلت معه إلى آخر يوم في حياتها، تنسخ له مخطوطاته وكتاباته، وتحمَّلت المهانة كونها المرأة الأخرى في حياته) ولم يكن يمانع من إبقائها في منزل أصغر وأكثر تواضعاً وفقراً بالقرب من زوجته الأولى، وظل يخون الاثنتين مع أي امرأة أخرى تركع أمام إغراء سيد فرنسا العظيم للكوبليهات المقفاة!

ولم يغيّر هيجو طبعه هذا حتى وهو في السبعينيات من عمره، فكان ولعه هذا مثار سخط أسرته التي عجزت عن إيجاد طرق جديدة كل يوم لمنع هذا الشاعر الطاعن في السن من الهرب إلى الشوارع بحثاً عن مغامرات غرامية في طرقات فرنسا الأكثر ظلمة وبؤساً. إلا أن هذا الولع الكبير بالمغامرات العاطفية لم يكن مجرد رغبة فقط، بل إن هيجو عبّر عنه في الشعر بالتورية المرحة وبالجناس،



Corbis

فيكتور هيجو في منزله في جزيرة جيرنزي في القنال الإنجليزي



Corbis

جنازة فيكتور هيجو

ولكن بشكل مؤدب ومتحفظ، يدفعه في ذلك إعجابه بنفسه ورضاه عنها، معبراً في الوقت نفسه عن تعاطفه مع قعر المجتمع وروح التمرد التي تكمن فيه.

التنوع الأدبي

تميّز هيجو بقدرته الهائلة على الكتابة بأكثر من أسلوب وجنس أدبي واحد، وهي قدرة فذة قلما يمتلكها الكتَّاب والأدباء. سخّر هيجو أعظم طاقاته الإبداعية في مجال الشعر، فكان يؤلف مجلداً ضخماً تلو الآخر يزخر بالكثير من الأناشيد الريفية والملاحم واللعنات والتورية والمناظرات والمجادلات والأغاني والصلوات وقصص من الخيال العلمي، وأراد بذلك أن يعكس للعالم الشوارع في القرون الوسطى التي وصفها بأنها مليئة بالصخب وبالأشياء الغريبة التي تقع على الطرف المناقض لكل قوانين الذوق العام. كان شِعره شعر رسام من دون أي شك.

مراحل الإبداع

عاش هيجو بخياله الخصب فترة استشراق وفترة القرون الوسطى وفترة إسبانية وإنجليزية وألمانية، بل وحتى فترة الثورة الحمراء، وفترة الأجداد والأحفاد، وفترة تصوف واضحة انغمس فيها بالروحانيات. وكانت كل مرحلة تكشف أكثر المناطق عمقاً وتأملاً في معتقدات هيجو وآرائه الكثيرة. والمتتبع لأعماله يجدها تاريخية بحتة، تبدأ من عصر الجهل والظلام إلى عصور الحرية والتنوير، تحقيق التطور الإنساني بالأعمال الصالحة والإيمان بإنجازات الأنبياء والأبطال الذين وضعوا اللبنات الأساسية للديانات العظيمة التي أصبحت في عصرنا الحديث أساس وجوهر عبقرية الأدب. هيجو يؤمن بأن التقدم والنور في الأدب يسيران جنباً إلى جنب مع حرية الإنسان وإن التطور في الفن هو تطور أخلاقي بالدرجة الأولى.

نشأته الأولى

لم ينشأ هيجو في بيئة أدبية. كان والده جنرالاً في جيش نابليون – وهو آخر قادة نابليون الذين أوقفوا إطلاق النار عقب كارثة واترلوو عام 1815 وكان هيجو في الثالثة عشرة من عمره آنذاك. هجرت والدته أباه بعد تفاقم الخلافات في الرأي بينهما. فالأب جمهوري حد النخاع والأم موالية للملكية وأصبحت بعدها عشيقة لواحد من ألد الأعداء الذين تآمروا على نابليون في باريس. وربما كان لها ضلع في هذه المؤامرات هي الأخرى. في خضم هذه البيئة المليئة بالحروب والتحولات السياسية الصاخبة وسفر الأب المتواصل مع الجيش الإمبراطوري، كانت قريحة الفتى الشعرية قد بدأت تتفتح شيئاً فشيئاً، أبياتاً مقفاة مبنية بإحكام بدأت تأخذ شكلها وتفاصيلها في ذهنه الذي بدأ أول الأمر غير راغب أو غير مكترث بها. كان الشعر يغزو عقله في النوم وفي الصحو أيضاً.

هيجو ضحية مرض فريد

كان هيجو ضحية مرض فريد من نوعه يصيب العقل، عُرف في القرن التاسع عشر باسم ميترومانيا. هذا المرض يجعل الدماغ ينتفض ويرتعش بقوة مثل العضلة مفرزاً شفهياً

أثناء ذلك قوافي وأوزاناً شعرية بسرعة لا يمكن السيطرة عليها. في سن الخامسة عشرة، دخل هيجو مسابقة للشعر كانت ترعاها الأكاديمية الفرنسية. وكان قاب قوسين أو أدنى من الفوز لولا أنه ذكر عمره الحقيقي مما جعل الحكام يشكُّون في أنه من نظم الشعر المقدم أمامهم. وقبل بلوغه العشرين، قاد ثورة في الشعر ناصره في ذلك جيل كامل من الكتَّاب الشباب- رغم أن جيل الشباب هذا مؤلف كله من هيجو وهيجو فقط! كان يكتب تحت أحد عشر اسماً مستعاراً في مجلة يصدرها شقيقه الأكبر. أثارت تحولاته المثيرة شكاوى النقاد المحافظين الذين كانوا يرون بأن هذه الأفكار الجديدة قد منحت هيجو فرصة ذهبية لأن يرتكب المحظورات وهذا ما أكده هيجو بلسانه عندما أعلن:

أجل هذا صحيح. هذه بعض جرائمي
لقد احتللت باستيل القوافي والأوزان
وحطمته!

حاسة سمعه خارقة، يستطيع أن يميز دبيب الحشرات، أما عيناه فكانتا بمثابة كاميرا فيديوية رقمية معقدة

الحكمة في كتاباته

واحد من أروع كتبه هو «الشرقيات» الذي ألفه في باريس وهو في العشرينيات من عمره، احتوى هذا الكتاب على الكثير من الحروب الخيالية عن الأتراك واليهود والرومان والعرب والإسبان وهو ممتلئ بالعنف والتوتر والمرح والإساءة لهذه الجنسيات أيضاً. ولكن قطعته الأدبية الأكثر روعة هي «أساطير السيسيل»، التي تحكي تاريخ الكون ولكن على شكل أساطير، والتي سرعان ما تلاها كتابان ملحقان لم يكملهما، هما «نهاية الشيطان» و«الله» (Dieu).

كل تلك التأملات الغنائية المفعمة بالعواطف والأفكار، التي وصفت بأنها مثيرة للمشاعر وملطخة بالدم كانت تشير في الواقع إلى فكرة واحدة أوسع بكثير من أن نتصورها- ألا وهي تطور أفكار الحرية السياسية والعلوم والشعر. يُقال إن هيجو عندما ألف كتابه هذا كان واقفاً عند مكتبه ورافعاً يده الممسكة بالقلم في الهواء ينتظر القافية التالية الكاملة التي ستجد مكانها الصحيح دون أدنى جهد. لا بد أنه كان يستشعر وخزات كهربائية خفيفة في جسمه بينما قلمه يرتفع ثم يهبط ثانية على الورق دافعاً مسيرة الإنسانية إلى الأمام إلى الحد الذي يصل فيه كاتبنا إلى كوبليه (مقطع شعري مكون من بيتين) متكامل تماماً. لقد أصبح هيجو رجلاً خارقاً بحق لأن مبادئه في التاريخ والفن جعلته كذلك ولأن حيويته المفرطة وقدراته المتدفقة التي لا تعرف الحدود في مجالات الأدب العديدة قد أقنعته بأنه يمتلك بالفعل صفات الرجل الخارق. وهذا مقطع من تلك القصص الملحمية بعنوان «نهاية أبليس» أقدمها لكم وعذراً لترجمتي غير المقفاة:

لأكثر من أربعة آلاف عام، كان يهبط في اللّج
لم يستطع أن يجد تلة يتشبث بها
أو حتى أن يرفع جبينه المغمور الواسع اللامحدود إلى السماء
كان يغرق في الظلام والضباب
تقتله الحيرة والإرباك
كان وحيداً وخلفه في ليالي عالم الخلود
كان ريش جناحيه يسقط.. يسقط ببطء
لفه الصمت والحزن وصدمة اقتراب النهاية
غارق في الكرب، فاغرٌ فاه وساقاه مرفوعتان صوب السماء
وصدمة نهايته مطبوعة على وجهه الحي
صاح: «الموت!» ورفع ذراعيه وسط الظلام
هذه الكلمة أصبحت بعدها هي الإنسان وهي اسمه..
إنها: قابيل.

هيجو البطل السياسي

بالإضافة إلى التأليف والرسم والتخطيط وملاحقة النساء، استطاع أن يضطلع بدور القائد السياسي الجاد. أولاً عندما كان موالياً للملكية والرجعية، وثانياً عندما أصبح جمهورياً واشتراكياً، ولكن دون عقائد محددة. في



عـام 1851م عندما شن لويس-نابليـون انقلاباً سياسياً علـى خاله نابليـون بونابرت، انطلق هيجـو الذي كان في التاسعـة والأربعين من بيته إلى الشوارع صارخاً بالناس: «أيُّهـا المواطنـون! لديكـم ذراعـان. لتمسـك إحداهما بحقوقكـم الشرعيـة والأخـرى بالبندقيـة، وهاجمـوا بونابـرت!». وعندمـا لم تحصل ثورة تذكـر، هرب هيجو إلـى بلجيكا، ثم إلى جـزر القنال البريطانيـة ومنها إلى ساحل النورماندي التي عاش فيها العقدين التاليين في عزلة تامـة وكان يشن هجماتـه وحملاته السياسية ضد دكتاتوريـة لويس-نابليون، مسخـراً قدراتـه الأدبية الفـذة في تشويه سمعـة الرجـل بعـد أن ناصره فـي بداية الأمر.

بفضل غريزته المسرحية التي لا تخطئ وصف حتى تفاصيل جنازته وصفاً دقيقاً

هيجـو: أول حالة تمـرد في الأدب الأوروبي

يُعـد هيجو أول حالة انقـلاب أو تمرد فـي الأدب الأوروبي. وكانـت احتجاجاته السياسيـة والاجتماعية في كتبه تتدفق منه كما تتدفـق الحمم من البراكين خـلال تلك السنوات: البؤسـاء مثـلاً، سرعان ما دخـل نشرها إلـى لائحة الأدب المحظور التـي تصدرها الكنيسة الكاثوليكيـة. وشأن هذه الروايـة شأن الطبعة الأولى من «أساطيـر السيسل» وبعض المقـالات الصحافية ومجلد ضخم ضم ذماً وهجاءً وسمي بـ«الهجائيات» الـذي يضم لعنات غاضبـة وقدحاً وذماً في هيئة شعر. وبهذه الطريقة استطاعت كتبه أن تطير زرافات مـن جزر القنـال البريطانيـة إلى داخل فرنسـا وأن تصب جـام حنقها واستيائها على كل القـوى التي تؤيد ابن أخت نابليون بونابرت.

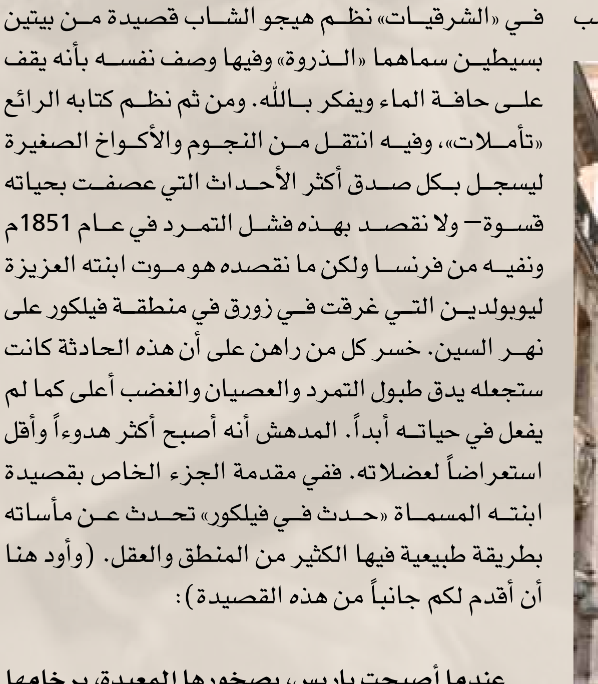


تمثال لفكتور هيجو موجود في ساحة جامعة السوربون

Corbis

وبعد انهيار الدكتاتورية وبعد أن عمّت الحروب والمذابح شـوارع فرنسا، تحوّلـت روحه المتمـردة والمتوثبة إلى روح رجـل لطيـف ووقـور وملتح ليكـون رمـزاً للفضيلة الوطنيـة والمُثـل الجمهوريـة، إذ أُعيـد انتخابه مرات عدة في مجلس العموم ثم التحق بمجلس الشيوخ. وقيل إنـه قـد رُشـح للرئاسة أيضـاً. ولكن حقيقـة الأمر هي أنـه لم يكن حاذقاً فـي الحيل السياسيـة وصنع القرار وعقـد الصفقات وربما لم تكن له الرغبة في أن يصبح سياسياً بالمعنى العام والمعروف للكلمة.

في عيد مولـده التاسع والسبعين في عام 1881م عزف أكثر من خمسة آلاف موسيقي نشيد المارسليز احتفاءً بعيد مولده حتى أن الشارع الذي يقطن فيه سُمي باسمه أي شـارع فيكتور هيجو. وعندما توفي، بعد سنوات أربع من ذلـك التاريخ رافق جمـع غفير من سـكان باريس، العربـة المتواضعة التي حملت نعشـه وطافت به أرجاء المدينـة حتـى وصلوا إلـى مقبـرة بانثيـون حيث دفن هنــاك. (جديـر بالملاحظة أن هيجـو وبفضل غريزته المسرحيـة التـي لا تخطـئ قـد وصـف حتـى تفاصيل جنازته وصفاً دقيقاً).



تأملات هيجو

فـي «الشرقيـات» نظـم هيجو الشـاب قصيدة مـن بيتين بسيطيـن سماهما «الـذروة» وفيها وصف نفسـه بأنه يقف علـى حافـة الماء ويفكر بـالله. ومن ثم نظـم كتابه الرائع «تأمـلات»، وفيـه انتقـل مـن النجـوم والأكـواخ الصغيرة ليسجـل بـكل صـدق أكثر الأحـداث التي عصفـت بحياته قسـوة- ولا نقصـد بهـذه فشل التمـرد في عـام 1851م ونفيـه من فرنسـا ولكن ما نقصده هو مـوت ابنته العزيزة ليوبولديـن التـي غرقت فـي زورق في منطقـة فيلكور على نهـر السين. خسر كل من راهن على أن هذه الحادثة كانت ستجعله يدق طبول التمرد والعصيان والغضب أعلى كما لم يفعل في حياتـه أبداً. المدهش أنه أصبح أكثر هدوءاً وأقل استعراضاً لعضلاته. ففي مقدمة الجزء الخاص بقصيدة ابنتـه المسمـاة «حـدث فـي فيلكور» تحـدث عـن مأساته بطريقة طبيعية فيها الكثير من المنطق والعقل. (وأود هنا أن أقدم لكم جانباً من هذه القصيدة):

عندما أصبحت باريس، بصخورها المعبدة، برخامها
وبضبابها وسطوحها
بعيدة عن عيني،


هيجو مع حفيديه اللذين ألهماه تأليف ديوان الشعر «فنُ أن تكون جدّاً»

Corbis

من فلم «البؤساء» المستوحى من قصته التي تحمل نفس الاسم

عندما صرتُ تحت أغصان الأشجار
أحلمُ بجمال الجنة

عندما خرجتُ من ذلك العزاء الذي جثم على روحي
شاحباً ولكن منتصراً، شاعراً بطمأنينة الطبيعة
التي دخلتْ إلى قلبي

عندما استطعتُ، وأنا جالس عند حافة الأمواج
يحركني ذلك الأفق الساكن الرائع،
أن أستذكر الحقائق العميقة في داخلي
وأنا أنظر إلى الزهور التي تتخلل الأعشاب،

الآن، آه يا إلهي! عندما منيتُ نفسي بجأش قاسٍ
لأتقدم به إلى الأمام
لأرى بعيني تلك الصخرة وظلها العزيز الذي أعرفه
والذي ترقد تحته إلى الأبد،

عندما خففتُ من حزني تلك المناظر الإلهية،
السهول، الغابات، الصخور، الوديان، المياه الفضية
ورأيت كم أنا قزم أمام عجائبك وكل هذه الروعة
استعدتُ رشدي..

جئت لأمثل بين يديكَ، يا مولاي، الذي يجب أن أؤمن به
ووضعتُ بين يديكَ، بكل هدوئي ورباطة جأشي
قطعة من هذا القلب، المفعم بمجدك
الذي لم يكسره أحد سواك

جئتُ إليك يا مولاي، مُقراً بأنكَ الطيب، الرحمن، الرحيم، الغفور
آه، يا الله يا أيها الحي!

هذه الترنيمة لشخص تجيش جوانحه بهدوء بإيقاع واحد، ودمه يجري بغضب وبحزن غامر بإيقاع ثانٍ. هو رجل يحاول أن يقنعنا بإيقاع آخر مختلف أن جانحيه لا يجيشان بالحزن ودمه لا يتدفق بسرعة. هي قصيدة تتحول من إخلاص مطلق إلى حزن مطلق. إنها تبيّن لنا الكوزمولوجي (علم الكونيات) الذي أذهل هيجو ونظرته الخاصة إلى تاريخ البشر ونلاحظ بأنه لم يتبق لديه من الحِكم ما يسبغه على الإنسانية. لم يتبق له الطموح الكافي ليصبح قائداً لفرنسا ولا الصبر وطول الأناة لمباهج الحياة والغرور والتظاهر. إنه يبين لنا أنه مجرد أبٍ يغمره الحزن والكرب. هنا يظهر لنا هذا الـ(هيجو) الضخم، الساخر، المتمرد، إنساناً في منتهى الضعف الإنساني، ذا قلب مرهف وحزن غارق في التأمل والصوفية.

وفي النهاية يبقى أن نقول إنه شاعر رائع، شأنه دائماً، وشاعر عظيم في بعض الأحيان خاصة عندما تعترض الحياة طريقه. ولا يكون لديه الوقت ليفكر بعظمته ومجده. لقد استحق بكل جدارة أن يُلقب بـ «صاحب أقوى ذاكرة في الحركة الرومانسية» و بـ «شاعر البلاط الملكي»، و«نبيل فرنسا» في عام 1845.

عندما سُئل أندريه جييد عن مَنْ يعتبره أعظم شاعر فرنسي، أجاب: «يا إلهي... إنه فيكتور هيجو، ومن غيره!».

قول آخر

كيف تتحدث عن كتب لم تقرأها؟

هل يمكن أن تتحدث (أو تكتب) عن كتب لم تقرأها من قبل؟ من المرجح أن يسارع معظم القرَّاء إلى الإجابة بالنفي، غير أن بيير بيارد، أستاذ الأدب الفرنسي في جامعة باريس الثامنة، والمحلل النفسي لديه وجهة نظر أخرى قد تبدو صادمة للبعض، خصوصاً حين نأخذ بالاعتبار وظيفته التي تحتم عليه قراءة عدد كبير من الكتب، أو هكذا نفترض. وسيكون من السهل التعرف إلى وجهة النظر تلك من مجرد قراءة عنوان كتابه الذي يبين فيه نظريته وهو «كيف تتحدث عن كتب لم تقرأها من قبل» الذي نشره باللغة الفرنسية سنة 2007م وتمت ترجمته إلى العديد من اللغات، وأصبح من أكثر الكتب مبيعاً في أكثر من بلد أوروبي، بما فيها فرنسا بالطبع.

يتحدث بيارد عما يسميه «اللاقراءة»، وهو مفهوم يقر بصعوبة توضيح ما يقصد منه على وجه التحديد، ويؤكد في نفس الوقت على ضرورة التمييز ما بينه وبين الامتناع عن القراءة بشكل مطلق. كما يشير إلى أن «القراءة» نفسها ليست بالمصطلح الذي يمكن معرفة المقصود منه بدقة لأنه يحيل إلى عدد من النشاط والمعاني المختلفة.

ويقسم بيارد اللاقراءة ضمن أربعة أصناف من الكتب هي: الكتب التي ليست لديك معرفة بها، والكتب التي تصفحتها والكتب التي سمعت عنها والكتب التي نسيتها. في القسم الأول من الكتاب يشرح المؤلف كيف أن القارئ أو اللاقارئ بالأحرى، يمكنه أن يتحدث عن كل صنف من أصناف الكتب الأربعة هذه، ويستعين لتعزيز رأيه ودعم حجته باقتباسات مطولة أحياناً من كتب معروفة أو شبه مغمورة أحياناً، وكذلك بشخصيات أدبية مشهورة مثل مونتين الذي طالما شكا من ضعف ذاكرته، وبول فاليري الذي يقول إن مجرد تصفحك لكتاب ما يكفي ليمكنك من الكتابة أو الحديث عنه، وأوسكار وايلد الذي يقول إن المدة المثلى لقراءة كتاب ما هي عشر دقائق، وأنك إذا ما تجاوزت ذلك فستجازف بنسيان أن قراءتك لذلك الكتاب ليست سوى «ذريعة لكتابة سيرتك الذاتية».

على وجه العموم فإن الكتاب لا يخلو من الطرافة والعمق واستقصاء الفكرة في آنٍ معاً. ومما لا ريب فيه أن المؤلف الذي تطرق بشجاعة لهذا «الموضوع المحرم» كما يسميه، لم يكتب هذا الكتاب لينفِّر القراء الجادين من القراءة ويصرفهم عنها إلى ما سواها، ولكنه أراد أن يتطرق وأن ينظر لموضوع موجود فعلاً، وإن لم يشأ أحد الاعتراف أو الإقرار به، خصوصاً ممن يدخلون في دائرة المثقفين والأدباء الذين لا يريدون ولا يحبون أن يوصموا بجهل ما يفترض فيهم معرفته والإلمام به.

ومن البديهي القول إن الكم الهائل من الكتب التي أنتجتها الثقافات البشرية على اختلافها، والتي ما زالت تنتجها دون توقف يجعل من المستحيل على القارئ مهما كانت درجة نهمه المعرفي وشغفه الوجداني بالكتب أن يتابعها ويستقصيها كلها، أو حتى شريحة كبيرة منها، خصوصاً في ظل ما نتمتع به في عصرنا الحاضر من وسائل ترفيه وتسلية تستهلك قدراً كبيراً من أوقاتنا.

غير أن ما يؤخذ على هذا الكتاب هو أنه يتحدث عن «الحديث عن الكتب» باعتباره الهدف الأول والأخير من القراءة، وكأن القارئ لا يقرأ كتاباً ما إلا بغرض الحديث أو الكتابة عنه، وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه، فالكثير من القرَّاء -وأنا واحد منهم- يُقبلون على القراءة لمحض المتعة التي تهبها لهم.

عبد الوهاب أبو زيد



حين يحكي الحجر ملاحم

الحجارة في شبه الجزيرة العربية تروي الكثير، حين تتحدث. فهذه البقعة من الكرة الأرضية، كانت ولا تزال موقع نشاط بشري أثر في تاريخ البشرية، منذ قرون طويلة.

بعض هذه الحجارة يروي عن تاريخ سبق يومنا هذا بمليون عام. وبعضها يروي عن عصور كثيرة متعاقبة، تقترب شيئاً فشيئاً لتكتمل القصة.

ريتشارد كوفنقتون كاتب مقيم في باريس، يكتب في الثقافة والتاريخ لمتحف سمشونيان (واشنطن)، وصحف عديدة، كتب هذه المقالة عن الطرق في شبه الجزيرة العربية، ونشرتها مجلة (سعودي أرامكو وورلد)، العدد مارس/أبريل 2011م.

عبدالرحمن الفتوح



قبل نحو 13 عاماً وتحت حرارة شمس الصيف، كان علماء الآثار يعملون داخل أحد الخنادق التي حُفرت في تلة على أطراف بلدة ثاج القديمة في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية. آنذاك لم يكونوا قد اكتشفوا سوى بعض قطع الفخار والرماد. وقد بدا المشهد قاتماً والاحتمالات ضئيلة. فجأة، ومع استمرار الحفر بالمجرفة، ظهر ثقب أطل منه عبد الحميد الحشاش والطاقم المعاون من متحف الدمام، ليكتشفوا وجود مقبرة أثرية.

قناع أجاممنون، 1876

الهيئة العامة للسياحة والآثار



Roads of Arabia Book

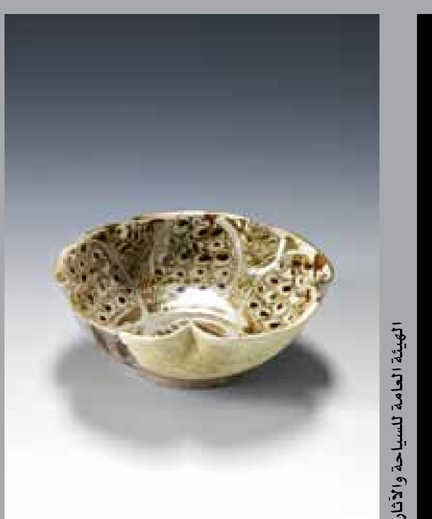
مــرت بضعة أيام، فعثروا على أدوات جنائزية تشمل قناعاً صغيراً وقفازاً وحزاماً وعدداً من القلادات، جميعها من الذهب الخالص، مـع مجموعة من الجواهر الرائعة، كانت تزيـن بقايا جثمان طفلة في السادســة من عمرهــا على ما يبدو، دُفنت هنــا قبل نحو ألفي سنة.

وعلــى الفور، أعاد «قناع ثاج» البارز المصــنوع بمهارة لإظهار الفم الصــغير والأنف الطويل والعينين الصغيرتين، للذاكرة ما يســمى قنــاع أجاممنون، الذي اكتُشــف في عــام 1876م وهــو قناع من أنفس بقايا الألفيــة الثانية قبل الميلاد، التي اكتُشفت بمدينة مسّينا.

لــم يكن قنــاع ثــاج ومــا كان معه مــن أدوات، ســوى قليل من المعروضات الرائعة التي قُدمت فــي معرض «طرق الجزيــرة العربية» في متحف اللوفــر فــي مدينــة باريس مــن تموز/يوليــو حتى أيلول/سبتمبر العام الماضي.

لكن ربمــا كان أروع مــا في القصــة أن معرض «طرق الجزيــرة العربيــة: آثــار وتاريــخ المملكــة العربيــة الســعودية» هــذا، كان المعرض الدولي الشــامل الأول مــن نوعه للتحــف التاريخية في المملكة. ضــم المعرض 320 قطعة أثريــة مضــى على بعضــها أكثر مــن مليون ســنة، وصــولاً إلى بدء العصــر الحجري القديم وحتى نشــأة المملكة العربية السعودية في العــام 1932م، فتحــول إلى اســتعراض فعلي لكنوز مجهولة، تشــكل كل قطعة منه فصــلاً من قصة الحضــارات، التي نَسجت على مدى ألوف السنين فنونها وسيّرت تجارتها على نحو يتجاوز بكثير ما كان يعتقده علماء الآثار في السابق.




الهيئة العامة للسياحة والآثار

google

معرض في متحف اللوفر

لقد أخرجت هذه المجموعة التاريخية، التي عُرضت أيضاً في مدينة برشلونة في شهر شباط/فبراير، وستزور كلاً من سانت بطرسبورغ وبرلين وشيكاغو خلال العام 2013، شبه الجزيرة العربية من هامش العالم القديم، ووضعته في قلب شبكة تاريخية مترامية الأطراف من طرق التجارة والحج تربط الهند والصين بالبحر الأبيض المتوسط ومصر واليمن وشرق إفريقيا، حتى سوريا وإيران وبلاد ما بين النهرين.

ويتضح من هذه الشبكة أن العرب الأوائل، فيما كانوا يتأثرون بسطوة الإمبراطوريات والممالك المجاورة ونفوذها، إنما صنعوا أعمالهم الخاصة، المتميزة إقليمياً، من الخزف (السيراميك) والجواهر والرسوم والمنحوتات. فإلى جانب الأعمال الذهبية في ثاج، شملت مجموعة التحف الأثرية، أعمالاً أكثر جاذبية وقيمة من الناحية الثقافية، بينها ثلاثة تماثيل لرجال، يزيد حجم كل منها على الحجم الطبيعي بقليل، ويعود تاريخها إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد، وترمز هذه التماثيل إلى ملوك في شمال مملكة لحيان العربية التي لم تكن معروفة حتى أمد قريب. وضم المعرض أيضاً مجموعة من الجداريات المحفوظة حفظاً جيداً، ورؤوساً مضيئة من المرمر ومقتنيات برونزية إغريقية من قرية الفاو الواقعة على أطراف الرُّبع الخالي.


متحف اللوفر

google


الفن الإسلامي في متحف اللوفر

google

صورة أغنى لتاريخنا

وقد تمكنت مجهودات التنقيب الأثرية من إغناء صورة ماضي المملكة إغناء قل مثيله، فقد عُثر على سفن مصنوعة من الحجر الأملس شرق جزيرة العرب، في جزيرة تاروت، تحمل رسوماً لثعابين متشابكة وأشخاص. وكانت من أبرز موجودات المعرض. وثمة معالم حجرية عليها كتابات باللغة الآرامية ولغة جنوب الجزيرة والعربية وشمالها في أول استخدام معروف لهذه اللغة.

أما أكثر الكتابات أناقة فتظهر قرب نهاية المعرض، وتأتي من مكة المكرمة، وهي منحوتة على سلسلة مثيرة للذكريات من شواهد القبور التي تحمل نقوشاً عن حياة الحجاج من جميع أنحاء العالم الإسلامي في فترة ما بين القرنين التاسع والسادس عشر الميلاديين.

ويضم معرض «طرق الجزيرة العربية» القائم في الأساس على مقتنيات مأخوذة من المتحف الوطني بمدينة الرياض، قطعاً مهمة من متاحف المملكة الإقليمية أو الجامعية والمكتبات والمؤسسات. وثمة أيضاً منسوجات مأخوذة من متحف الفنون الزخرفية في باريس، ولوحات السيراميك التي تصور مكة المكرمة والمدينة المنورة من متحف اللوفر، ونقوش من القرن الثامن عشر للحرمين الشريفين من مكتبة فرنسا الوطنية في باريس.

ويضم المعرض كذلك خريطة نادرة لسكة حديد الحجاز التي بناها الأتراك العثمانيون، مطلع القرن العشرين، مستعارة من الجمعية الجغرافية الملكية في لندن.

أين الأحبة والجيران؟

هناك شاهد ربما يكون الأكثر روعة وجمالاً، يعود للقرن الثاني عشر، يحيي ذكرى أب وابنته توفيا أثناء الحج. وبحسب جوفين يُحتمل أن يكونا من المغرب. وهناك بعض الشواهد التي أعيد استخدامها، منها مرثية حزينة لشاب أندلسي يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر أيضاً، عليها نقوش «لصانع عطور محترف اسمه علي» على أحد جانبيها، أما الجانب الآخر فنقشٌ بدا على شكل محراب. وقد حزن عليه أبواه واقتبسا أبياتاً من قصيدة لشاعر أندلسي في القرن العاشر، هو ابن أبي زمنين الصوفي:

الموتُ في كلّ حين ينشرُ الكفَنا ... ونحنُ في غفلة عما يُرادُ بنا
أين الأحبةُ والجيرانُ؟ ما فعلوا؟ ... أينَ الذين هُمُ كانوا لنا سَكَنا
سقاهمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ ... فصيَّرَتهم لأطباقِ الثرى رُهُنا

تاروت عاصمة دلمون؟

بحلول منتصف الألفية الثالثة قبل الميلاد، أي قبل نحو 4500 سنة، ظهرت التجارة في منطقة الخليج مع اشتداد الحرارة وجفاف المناخ في شبه الجزيرة العربية.

يقدِّم المعرض تشكيلة كبيرة من مقتنيات هذه الفترة التي اكتُشفت في جزيرة تاروت عام 1966م، على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة، إبان تشييد الجسر الذي يربط اليوم جزيرة تاروت باليابسة. ويضم الكنز جراراً من الحجر الأملس رمادية وسوداء، وعدداً من الأواني والقطع، وقد نُقش على العديد منها صور ثعابين وقطط تشبه النمور، ونسور لها رأس أسد وأشياء أسطورية أخرى.

وفي مقال نُشر في الكتاب المصور، يرى عالم الآثار بوتس أن تاروت كانت المرفأ الأساسي، وربما كانت عاصمة حضارة دِلمون الأولى، وقد انتقلت دِلمون في وقت لاحق، عام 2200 قبل الميلاد تقريباً، إلى الجنوب والشرق باتجاه الجزيرة المعروفة اليوم باسم البحرين. وفي إطار ما يسميه علماء الآثار نمط الثقافات البينية، كانت هناك سفن مماثلة مصنوعة من الحجر الأملس متداولة على نطاق واسع في حركة التجارة من المشرق العربي إلى آسيا الوسطى، ثم تتحوَّل إلى سوريا وبلاد ما بين النهرين وإيران. وكانت خطوط التجارة تصل إلى الشرق الأقصى وإلى وادي فرغانة المعروف اليوم باسم أوزبكستان.

وعلى الرغم من اعتقاد الغبان بأن مقتنيات المعرض قد صنعت باستخدام الحجر المحلي في جزيرة تاروت، يميل غيره من العلماء، بمن فيهم بوتس وأندريه سالفيني، إلى أن أصولها تعود إلى جنوب شرق إيران. إلا أنه لا خلاف على أن تمثال الرجل المصنوع من الحجر الجيري، الذي يظهر وهو يصلي على الأرجح، قد نحت في تاروت. ويشبه هذا الرجل ذو اليدين المتشابكتين والرأس المستدير والعينين الجاحظتين وهو يرتدي نطاقاً ثلاثياً، السومريين الذين عاشوا في الحقبة نفسها، نحو العام 2500 قبل الميلاد. إلا أن ساقيه المربعتين وركبتيه اللتين تظهر عليها بروز كثيرة تجعلانه يشبه كذلك دمى وادي السند.

ولعل أكثر ما يثير الدهشة بحسب أندريه أن التمثال الذي لا يتعدى طوله متراً واحداً (39 بوصة) يُعد أكبر تمثال على غرار تماثيل بلاد ما بين النهرين يُكتشَف حتى الآن، وهو أكبر بكثير من أي تمثال آخر اكتُشف في منطقة دجلة والفرات نفسها.

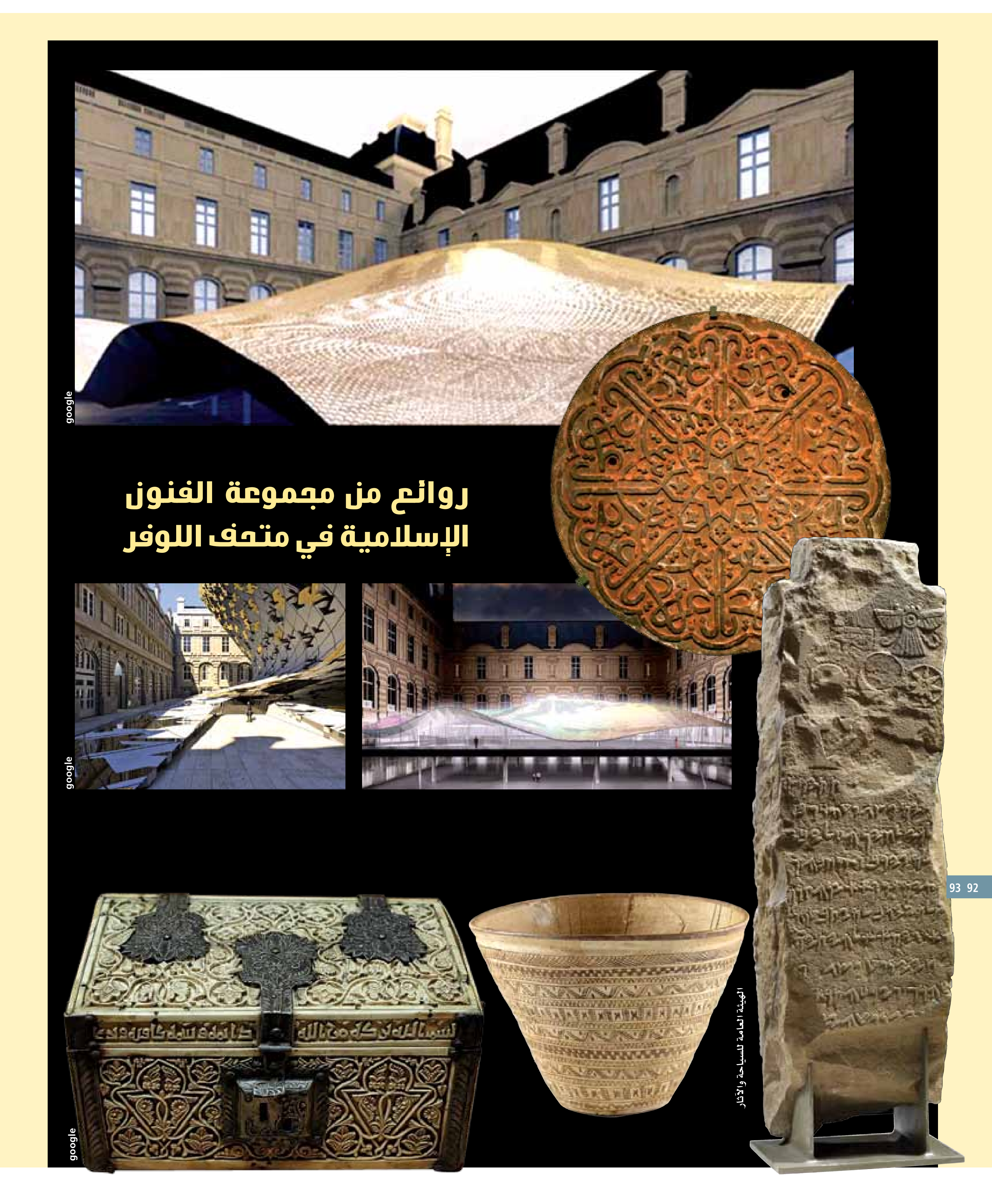
وتقول أندريه سالفيني: «لقد استقى النحات على ما يبدو بعض السمات من النماذج الموجودة في بلاد ما بين النهرين ووادي السند ليضفي مسحة من الجمال الخاصة به.







الهيئة العامة للسياحة والآثار


روائع من مجموعة الفنون
الإسلامية في متحف اللوفر
google
google
google
الهيئة العامة للسياحة والآثار



نقّاد وخبراء مبهورون

وقد أعرب النقاد عن شدة انبهارهم بالمعرض. فقد تحدث إريك بيتري ريفيير في صحيفة «لو فيجارو» اليومية الباريسية عن دهشته باكتشاف «ماضينا الرائع والمزدهر الذي يكاد يكون غير معروف بالمرة». وفي صحيفة «إنترناشونال هيرالد تريبيون» أشار الناقد الفني سورين ميليكيان إلى أن «ما كشفته مئات القطع الأثرية التي لم تسبق رؤيتها خارج المملكة العربية السعودية يُعد أمراً مذهلاً». وكان الخبراء هم أيضاً منبهرين بالمعرض أيما انبهار. فها دانيال بوتس، أستاذ علم آثار الشرق الأوسط بجامعة سيدني، يعقب بقوله: «يا له من أمر رائع أن نظهر للعالم ثروة الكنوز الأثرية الموجودة في المملكة». وكان بوتس واحداً من أكثر من ستة وثلاثين عالماً أسهموا بمقالات ضمن كتاب المعرض المصور المكون من 600 صفحة.

استطرد بوتس قائلاً: «تظل المملكة العربية السعودية بالتأكيد الجزء الأقل حظوة بجهود الاستكشاف، والأكبر مساحة من لغز جزيرة العرب، وعلى هذا المعرض أن يفعل الكثير لحث العلماء على النظر إلى المنطقة بقدر أكبر من الجد».

مرحلة جديدة لتنظيم المتاحف

ويعود تاريخ هذا التطور الكبير في التنظيم السعودي للمتاحف وإدارتها، إلى شهر نيسان/أبريل 2004م، عندما أبرمت الهيئة العامة للسياحة والآثار اتفاق تعاون مع متحف اللوفر. فكانت باكورة ثمار هذا التعاون معرض المسوح الذي ضم 150 قطعة، تحت عنوان «روائع من مجموعة الفنون الإسلامية في متحف اللوفر» الذي افتتح في المتحف الوطني السعودي في ربيع عام 2006. (وفي مشروع منفصل، وبتمويل من جهات متعددة الجنسيات، يعتزم متحف اللوفر بناء جناح جديد مخصص للفن الإسلامي، مقرر افتتاحه في عام 2012).

من جانبه، أوضح علي الغبان، نائب رئيس الهيئة العامة للسياحة والآثار لشؤون الآثار والمتاحف، المنسق المشارك بمعرض «طرق الجزيرة العربية»، أن تبادل المعارض يمثل «جزءاً من استراتيجيتنا البعيدة الأمد للاستفادة من الآثار في تعزيز مكانة البلاد وبناء السياحة، وهو يساعد كذلك السعوديين كي يفخروا بتراثهم». وتابع قائلاً: «لقد نُشر الكتاب المصوَّر الخاص بالمعرض باللغات الفرنسية والإنجليزية والعربية»، فأكد أنه ليس مجرد كتاب مصوَّر لمعرض، بل إنه وثيقة علمية تشرح تفصيلاً كيف أسهم العديد من الحضارات في تاريخ المملكة العربية السعودية».

والدكتور الغبان عالم آثار مرموق وهو أستاذ بجامعة الملك سعود في الرياض، وقد حصل على شهادة الدكتوراة من جامعة إيكس أون بروفانس الفرنسية، وهو أحد المخضرمين في المسوح الأثرية والتنقيب منذ أكثر من ثلاثة عقود.

جولة وحديث مع الغبان

وخلال أحد الأيام في متحف اللوفر، استقطع الدكتور الغبان من وقته ليقودني في جولة عبر المعرض، وتباحثنا الأمر في وقت لاحق ونحن نتناول الكسكسي المغربي بالسمك في قاعة الطعام المجاورة للمتحف. قال مبتسماً: «يعتقد معظم الغربيين أن السعودية ليست سوى أرض صحراوية بها آبار نفط، فهم لا يعرفون أن المملكة كانت جسراً بين الشرق والغرب، وقد اضطلعنا بهذا الدور في الألفية الرابعة قبل الميلاد وسنواصل لعب هذا الدور في المستقبل، كذلك يتحتم علينا على المستوى الخارجي أن نصحح الصورة الخاطئة عن بلادنا. وفي الداخل، علينا أن نعرّف الشعب بتراثه. نود أن نوضح للجميع، أجانب وسعوديين، كيف أننا شاركنا في صنع تاريخ البشرية، لم نفعل ذلك في الحقبة الإسلامية فقط، بل قبل الإسلام أيضاً».

وفي متحف اللوفر، تقول بياتريس أندريه سالفيني، المنسقة المشاركة للمعرض بالتعاون مع الغبان، وهي مديرة قسم الآثار الشرقية في اللوفر: «لقد سلط معرض «طرق الجزيرة العربية» الضوء على مسيرتي المهنية، فتجميع عناصر المعرض برمتها، كانت أمراً محبباً للغاية بالنسبة لي». ومع الغبان وغيره، سعى المنسقون إلى موازنة رؤية الجمال بعيون حديثة عند مشاهدة «قطع أثرية تمثل نقطة تحوّل».

ولأن العديد من الغربيين يتصورون أن شبه الجزيرة العربية لا تحوي أكثر من رمال لا نهاية لها، يؤكد المعرض التنوع الجغرافي في الجزيرة العربية، عبر صور بانورامية باللونين الأسود والأبيض بحجم الحائط التقطها المصور البرازيلي همبيرتو دا سيلفيرا، الذي قضى سنوات في المملكة.

بلاد لقاء الحضارات واستيعابها

ويقول المنسقون: «أردنا أن يعي الزوار أمام كل قسم أن هناك أشخاصاً يعيشون في الواحات والمناطق الجبلية، وأن ثمة مراكز حضارية مهمة كانت هناك، لقد أردنا تغيير المفاهيم المأخوذة عن المملكة».

وعلى الرغم من كونها خبيرة، تعترف أندريه سالفيني بدهشتها البالغة من تنوع المكتشفات وثرائها.

وتقول معقبة: «إن تاريخ المملكة العربية السعودية صنعه التواصل مع الحضارات المحيطة بها، لكن على الرغم من هذه المؤثرات الخارجية، فقد استوعِب كل ما هو آت من الخارج وأعيد تفسيره على نحو أصيل لا يحتمل الخطأ. ويبدو الأصيل واضحاً تماماً في صالة العرض الأولى، حيث يلتقي القديم بالحداثة: إذ هناك ثلاثة مجسمات مهيبة لمقابر صنعت من الحجر الرملي، تبدو كما لو كانت من صنع نحات تجريدي من القرن العشرين، على الرغم من مرور أكثر من 5000 سنة عليها».

ظهور قوافل الجمال

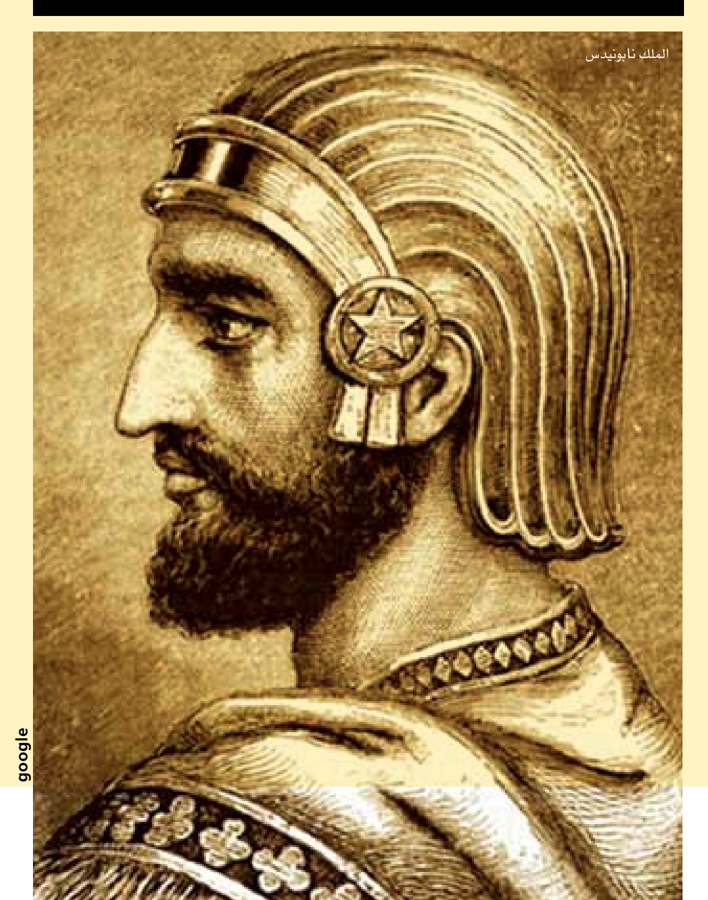
وفي الفترة من عام 1200 حتى 1000 قبل الميلاد، أحدث ظهور النقل بالجِمال ثورة في حركة التجارة العربية. ومع ظهور نُزُل القوافل المترامية الأطراف، تحوَّلت واحة تيماء في شمال غرب المملكة إلى مفترق طرق بدائي وحيوي على طريق اللُّبان والبخور الممتدة من اليمن شمالاً إلى بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام. وقد توافد ألوف التجار، الذين انضموا إلى تلك القوافل، ومعهم نسّاخ وحراس مسلحون، على بستان النخيل الشاسع هذا، الذي أحيط في بعض أجزائه بحائط يصل ارتفاعه إلى ستة أمتار (19 قدماً).

وبشكل عام، حققت جزيرة تاروت ثراءً بفضل هذه التجارة. ويقول الغبان مازحاً: «كل محطة على طريق القوافل هي بمثابة بئر زيت الوقت الحاضر، ويشير إلى أن التجار كانوا يدفعون بسخاء لأصحاب النزل من أجل توافر الإقامة والطعام والكلأ لأنعامهم علاوة على الأمن.

وتجدر الإشارة إلى أن كلا من تيماء وددان (المعروفة اليوم باسم العلا، قد ورد ذكرهما مراراً في كتاب العهد القديم. وقد لفت ازدهار تيماء أعين الحكام البابليين الطامعين.

ثقافة حرة

يقول الغبان: «كانت هناك حرية كبيرة في الثقافة تستمد التأثر من كل مكان، وكما يبرهن المعرض، فإن انفتاح العرب يُعد أمراً جديداً، وهو في حقيقته أمر وجد منذ قرون وقرون».



الملك نابونيدس

google

ففـي القرن السـادس قبل الميلاد، خرج الملك نابونيدس من عاصمة بلاده، بابل، لاحتلال تيماء والسيطرة على تجارة البخور والمر والتوابل والمعـادن والأحجار الكريمة، وأحضـر معه آلهته: شـاهد مسـفوع من الحجـر الرملـي يظهر رسـوماً باهتـة للملك والآلهـة البابلية ونقوشـاً مسمارية تصوّر التفاني في خدمة المعبد.

وهناك نحت آخر يسـمى بـ «مكعب الحمرا»، على اسـم المحراب الذي عثـر عليـه، ونُحت بعد مرور نحـو قرن على رحيـل نابونيدس في القرن الخامـس أو الرابع قبل الميلاد، يلخص بوضـوح أكثر، مزيج الثقافات المماثلة في تيماء.

وقـد وشـعت أندريه سـالفيني علامات علـى العناصـر التوفيقية لهذا النحـت: «كاهن بابلي يقف أمـام ثور أبيس الإله المصـري وتظهر في الخلفية صـورة رموز مجنّحة ونجمة ذات ثمانية رؤوس مأخوذة على ما يبدو من حضارة الأناضول. وتقول: «على الرغم من استعارة التخيلات مـن ثقافات أخـرى، إلا أنه فن فريـد بكل ما تحمله الكلمـة من معانٍ، فهو يمتلك هوية عربية أصـيلة تختلف عن بلاد ما بين النهرين ومصـر وسـوريا».

لحيان: حضارة أخرى من البوائد

وإبان الفترة نفسـها تقريباً التـي كان يحتل فيها نابونيدس تيماء، كانت ددان تنمـو وتزدهـر فـي وادي العلا الخصـب حيـث بسـاتين الفاكهة والمحاصـيل المرويـة والمراعي باعتبارها عاصـمة لواحـدة من أقدم القوى الكبرى في شبه الجزيرة الأقل شهرة: لحيان.

وعلـى الرغم من الكشـف الجزئي عن الآثار التي كانـت تحويها أطلال المدينـة أوائل القرن العشـرين على يد الفرنسـيين أنطونين جوسـين ورفاييل سافينياك، استطاع مجموعة من علماء الآثار في جامعة الملك سـعود منذ سـتة أعوام فقط كشـف المسـاحة الكاملة لموقع يبلغ طوله نحـو 300 متـر (960 قدمـاً) وعرضـه 200 متر (640 قدمـاً) عبر سهل صـخري، حسبما أفاد سعيد السـعيد، عميد كلية السياحة والآثار بالجامعة.

ويقـول الغبان «كانت لحيـان لا تختلف عن المملكـة النبطية لاحقاً من حيث كبر المساحة والأهمية، على الرغم من أننا لا نعرف عنها الكثير». وقد أشـار المـؤرخ الروماني بليني الكبيـر في القرن الأول باقتضـاب إليها عندما أطلق على خليج العقبة اسم «خليج لحيان». وقد غطت لحيان المسـاحة نفسها من الأرض التي حكمها في وقت لاحـق الأنبـاط، كما ألمـح الغبان، من العقبـة جنوباً الـى المدينة المنورة في الوقت الحاضر.

وخلال نحو 400 سـنة، وحتى غزو الأنباط لمنطقتهم في القرن الثاني قبل الميلاد، سـيطر اللحيانيون على طرق التجارة من الصـين والهند واليمن وصولاً إلى بلاد ما بين النهرين وسوريا ومصـر.

ومـن المكتشـفات المذهلة التي توصـل لها فريق جامعة الملك سـعود حـول اللحيانييـن ثلاثة تماثيل ضـخمة مـن الحجر الرملـي الأحمر، اكتشفت في عام 2007م بالقرب من محراب معبد الكريبة شمال العلا.

ويزيد طول كل تمثال من التماثيل الثلاثة التي تصور الملوك في معرض «طرق الجزيرة العربية» على مترين (6 أقدام وخمس بوصات). وتقف التماثيـل وأيديهـا مرسـلة إلـى جنبيها، في صـورة تذكرنـا بالنماذج المصرية. إلا أن التصوير الطبيعي لجذوعهم العضلية يشير إلى تأثير اليونانيين.

وبينمـا كان النحاتـون اللحيانيـون يرسـمون معالم مدرسـتهم الفنية الهجينـة، كان أسـلافهم مـن المصـريين واليونانييـن هـم مصـدر إلهامهم. وبحلول القرن الأول الميلادي، أصـبحت مدائن صالح، التي تبعد 22 كيلومتراً (35 ميلاً) شـمال العـلا، المحطة الجنوبية لمملكة الأنباط للسـيطرة على طرق القوافل العربية.
وواصل المعرض تقديم صور مفصلة للمقابر النبطية محفورة في جروف صخرية.

آثار الحقبة الرومانية

وتظهر واجهات المقابر مزيجاً انتقائيـاً مـن الأفاريـز المصـرية والمتاريـس الآشـورية ذات البـروز البسيطة وزخارف المداخل اليونانية والرومانية الثلاثيـة الشـكل. وقد احتل الرومـان المنطقة أوائـل القرن الثانـي، وهناك لوحـة حجرية، اكتشـفها عالم الآثار ضـيف الله الطلحي في عام 2003م، توثق ترميم أسوار المدينة إبان عهـد الإمبراطـور الرومانـي ماركوس أوريليوس. ومن بين النقوش اللاتينيـة النـادرة التـي عُثـر عليهـا في شـبه الجزيـرة العربيـة، نـص يأمـر المواطنيـن المحليين بدفع أموال لفيلق المحاربين الرومـان لتنفيـذ أعمـال البناء.

ماركوس أوريليوس

google





الهيئة العامة للسياحة والآثار

الكلمة المكتوبة

تدل الأسئلة العلمية الكثيرة التي أثارتها أخيراً على نحو جزئي، المعروضات التي ضمها معرض «طرق الجزيرة العربية» على تطور اللغات والكتابة.

إن ما يطلق عليه الخبراء اسم «الأدلة النقشية» (أي الكتابة بالنقش على الحجر والبرونز ونادراً على الخشب) يكون حاضراً على الدوام لغرض عملي هو حماية مقبرة، وتكريم الآلهة والحكام، ووصف الطقوس أو كتابة العقود. وفي كتاب المعرض المصوَّر، يوضح كريستيان روبين المتخصص في دراسة النقوش والمؤرخ في المركز الوطني الفرنسي للأبحاث بقوله: «فيما نعرف الكثير من نتف الشعر الجاهلي في القرن السادس، لم تبق قصص ولا أساطير أو وثائق تتحدث عن الزراعة وإدارة المياه وغيرها من الأعمال الفنية الأخرى. فمعرفة هذه الأمور متروكة بلا مصادر». ويضيف قائلاً: «في الواقع، يبقى السؤال هل كان لهذه المصادر وجود أصلاً. ومع ذلك، تكشف الدراسات اللغوية التعقيد المتعاظم للتاريخ الثقافي في جزيرة العرب».

رجل عمره 5500 سنة

وضمت المعروضات، تمثالاً جذعياً لإنسان ضئيل بعيون كئيبة، وقد عقدت يده على قلبه في مشهد يبرز روعة التعبير، تعززه الخطوط الرفيعة المحفورة ببراعة حول عظم الترقوة واليدين والذراعين علاوة على الثغر الساخر والأذنين الغريبتين على شكل مقبض. وتقول أندريه سالفيني ضاحكة متلعثمة: «لقد سميته «رجل المعاناة». وسرعان ما أصبحت الشخصية الغامضة نجم المعرض وخُصت بلقب «صبي الملصقات» لهذا المعرض، وبات لها حضور في كل مكان إذ وُضعت على اللافتات داخل المتحف، وعلى غلاف طبعة الكتاب المصور الفرنسية.

وبحسب أندريه سالفيني وُضع التمثال، الذي عُثر عليه في مدينة حائل شمال المنطقة الوسطى في المملكة، في هيكل في الهواء الطلق.

واستناداً إلى أوجه الشبه مع اللوحات الأخرى المحفورة في اليمن مع بقايا عظمية بشرية يعود تاريخها إلى الفترة بين 3500 و3100 قبل الميلاد، تقول أندريه سالفيني: لقد صُنع «رجل المعاناة» في الحقبة نفسها.

Album de l'exposition Routes d'Arabie ARCHÉOLOGIE ET HISTOIRE DU ROYAUME D'ARABIE SAOUDITE

الهيئة العامة للسياحة والآثار

تمثال رجل المعاناة

قرية الفاو عند طرف الربع الخالي

على بعد نحو 1000 كلم (620 ميلاً) جنوب مدائن صالح، على الطرف الغربي من صحراء الربع الخالي، ظهرت قرية الفاو، أحد المراكز التجارية التي ظلت مزدهرة أكثر من 600 سنة، من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الرابع بعد الميلاد، وهي واحة قصور مبنية من الطين الأحمر والمعابد والأسواق، وكانت كذلك بمثابة مقبرة كبيرة، وهي تضم أيضاً ما لا يقل عن 120 بئراً.

كانت مدينة للمزارعين ورعاة الماشية والأغنام والإبل، وباتت «محطة للتجار والمسافرين والحجاج من الممالك المختلفة في جزيرة العرب» حسبما قال عبد الرحمن الأنصاري، عالم الآثار المخضرم الذي كان مسؤولاً عن أعمال التنقيب هناك من 1971 حتى 1995م، وكتب في الكتاب المصوّر الخاص بالمعرض عن قرية الفاو، قائلاً: بصفتها عاصمة مملكة كندة، كانت قرية الفاو «مركزاً دينياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً في قلب شبه الجزيرة». وأقيم السوق المركزي في قرية الفاو، التي يعني اسمها «قرية الفجوة»، باستخدام كتل من الحجر الجيري والطوب، وكان السوق من ثلاثة طوابق تحيط به سبعة أبراج للتخزين. وهناك ثلاثة معابد وهيكل كنسي منفصل من الحجر الجيري، يدلّ على تنوع الحياة الدينية آنذاك في قرية الفاو.

وشيدت المنازل من طابقين بفضل الجدران الحجرية التي يبلغ سمكها نحو مترين (6 أقدام) وكان أصحابها يتفاخرون بوجود شبكات إمداد للمياه والمراحيض في الطابق الثاني.

ومن الأشياء اللافتة هناك جدارية تصوِّر منزلاً متعدد الطوابق وقد رسمت على نوافذه أشكال مختلفة، وهو يشبه في تصميمه المساكن التقليدية الموجودة الآن في اليمن وجنوب غرب المملكة العربية السعودية.

وضم المعرض أشكالاً للبخور من اليمن، وتماثيل برونزية للإله حربوقراطيس الإغريقي جُلبت من مصر (حيث كان يعبد في فترة من الفترات على أنه حورس)، بالإضافة إلى لوحات على الطراز الروماني وسيراميك الأنباط وجميعها توضح إيضاحاً رائعاً اتساع رقعة شبكة التجارة التي كان ملتقاها قرية الفاو.

كانت قرية الفاو «مركزاً دينياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً في قلب شبه الجزيرة

الهيئة العامة للسياحة والآثار


الهيئة العامة للسياحة والآثار

«كان واضحاً» من الكتابات أن ديدن لم تكن فقط عاصمة مملكة لحيان، بل كانت أيضاً موقعاً للحج ومركزاً للقضاء»

لغات متعاقبة قبل لغة القرآن

تعود أقدم الكتابات في شبه الجزيرة العربية إلى مخطوطة سينائية من عام 2000 إلى 1500 قبل الميلاد. وبحلول العام 1000 قبل الميلاد، كانت هناك مجموعتان لغويتان هما لغة شمال الجزيرة القديمة ولغة جنوب الجزيرة القديمة.

بدأت اللغة السابقة للغة العربية الفصحى، السابقة للغة القرآن الكريم، التي أصبحت في النهاية اللغة العربية الحديثة، في التطور في القرن الأول قبل الميلاد تقريباً. وقدَّم معرض «طرق الجزيرة العربية» شاهداً من واحة تيماء، يعود تاريخه إلى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، عليه حروف مسمارية تشير إلى أنها نقشت على الأرجح بناءً على أوامر من نابونيدس، الملك البابلي الذي احتل الواحة في ذلك الوقت.

وبحسب روبين، اعتمد البابليون أيضاً الآرامية التي كانت سائدة في جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم. أما في المنطقة، فيمكن أن نراها

على نصب حجري يعود للقرن الرابع قبل الميلاد، يُعرف باسم «الشاهد الأحمر»، نسبة إلى أحد الملاذات في تيماء حيث عثر عليها.

وفي العلا (ددان القديمة)، يجد المرء نقوشاً بلغة اليمن «الجنوب» أو بلغة شمال الجزيرة القديمة التي تطوّرت في عهد اللحيانيين. ومن طلاسم هذه اللغة، تمكَّن علماء النقوش من فك رموز سجلات العشور السنوية التي كان يدفعها عبدة الآلهة المحلية، لقاء عقوبات الجرائم وترسيم حدود المملكة الجغرافية.

ويشير سعيد السعيد، عميد كلية السياحة والآثار في جامعة الملك سعود في الرياض، إلى أنه «كان واضحاً» من الكتابات أن ديدن لم تكن فقط عاصمة مملكة لحيان، بل كانت أيضاً موقعاً للحج ومركزاً للقضاء».

وعرض في معرض «طرق» أحد الشواهد الحجرية من قرية الفاو يعود تاريخه إلى القرن الأول قبل الميلاد، وهو أقدم نص معروف باللغة العربية، على الرغم من أنها كُتبت في الواقع باللهجة التي تسبق اللغة الفصحى التي تستخدم حروف اللغة الجنوبية القديمة.


الهيئة العامة للسياحة والآثار

وهناك لوحة برونزية من القرن الأول قبل الميلاد أيضاً مكتوبة بلغة الجنوب تروي رحلة تجارية إلى سلوقية بالقرب من بغداد. كذلك عُثر على نقوش لحيانية ونبطية في قرية الفاو، تشير إلى أنها لم تكن مركزاً للتجارة فقط بل كانت أيضاً موطناً لأناس أصولهم من مناطق تبعد 1000 كيلومتر (620 ميلاً) إلى الشمال. ووفقاً لروبين، استخدمت الأبجدية العربية، المأخوذة من الكتابات النبطية والآرامية أول مرة في أوائل القرن السادس الميلادي. فالنص الذي يسميه عالم النقوش الفرنسي «شهادة ميلاد» اللغة العربية، هو عبارة عن نص من ثلاث لغات، الآرامية واليونانية والعربية، يعلن تشييد هيكل مسيحي بالقرب من حلب عام 512. وقد أعلنت هذه الحروف الأبجدية العربية الجديدة انفصالاً واضحاً عن اللغتين العربية الأولى والآرامية، وفيما يزيد قليلاً على 100 سنة، أصبحت هي لغة الإسلام.

ولمسات شخصية أيضاً

وفي جدارية يعود تاريخها إلى القرن الأول أو الثاني الميلاديين، يظهر رجل، هو صاحب الجدارية الثري على الأرجح، يشبه ديونيسوس من المنطقة العربية الجنوبية، بشعره الأسود الكثيف الجعد وشاربه المتدلي النحيل جداً وعينيه الواسعتين.

وقد صور الرجل وهو واقف بجوار خادم يرتدي سترة وسط لوالب الكرم وعناقيد العنب في مشهد يبدو أنه داخل فيلا رومانية أو بطلمية مطلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط. كذلك، كان هناك رأس بالحجم الطبيعي مصنوع من البرونز، تكسوه قصة الشعر الجعد نفسها التي كانت دُرجة رومانية اتبعها شخص مجهول من وجهاء العرب.

لكن وفقاً لأندريه سالفيني، صنع هذه القطعة في الواقع أحد الحرفيين في قرية الفاو، حيث كانت صناعة البرونز أكثر تطوراً منها في روما أو اليونان في ذلك الوقت. وفي ورشة عمل محلية أيضاً، كانت هناك مغرفة فائقة الجمال طويلة مصنوعة ببراعة متقنة من الفضة ومطلية بالذهب يعلوها رأس وعل. وهناك أوان أخرى كانت عبارة عن مزيج من الأدوات المنزلية صُنعت باليد في محترفات الزجاج وأفران السيراميك، والقطع المستوردة الفارهة، من إيطاليا، كالوعاء المضلع ذي اللونين الأزرق والأبيض والكأس التي تحمل نقوشاً مماثلة.

ربما تكون قرية الفاو قد نشأت عند أطراف واحدة من أكثر الصحاري وحشة في العالم، إلا أن النخبة فيها قد انغمسوا في اعتناق الأذواق الرفيعة وانغمسوا في حياة على الطراز الإغريقي واستوعبوا أنماطاً مرهفة.

مملكة الجرهاء: سادة النقل

في الفترة نفسها التي ازدهرت فيها قرية الفاو في الغرب، كانت مملكة الجرهاء في الشرق قد أحرزت ثروة كبيرة من خلال التجارة البحرية وتجارة القوافل في البخور والعطور واللؤلؤ والتوابل والعاج والحرير الصيني. يقول عوض بن علي السبالي الزهراني مدير

«كان أهالي الجرهاء هم سادة النقل البري والبحري ويعزى هذا إلى مهارتهم في بناء السفن ومعرفتهم بالرياح الموسمية»

الهيئة العامة للسياحة والآثار

المتاحف العام في المملكة العربية السعودية: «كان أهالي الجرهاء هم سادة النقل البري والبحري ويعزى هذا إلى مهارتهم في بناء السفن ومعرفتهم بالرياح الموسمية».

ويضيف في مقالته التي تحدث فيها عن المملكة في الكتاب المصور: «لقد جنوا كذلك ثمار المكاسب الكبيرة من صيد اللؤلؤ في منطقة الخليج العربي، والرسوم الجمركية المفروضة على البضائع التي تمر عبر بلدهم». وكما هو معروف في شتى أنحاء العالم القديم، أقام شعب الجرهاء في مساكن كبيرة مزخرفة بالعاج واللؤلؤ والأحجار الكريمة، وكانوا يتناولون الطعام في آنية من الذهب والفضة وينامون على أسرة مطلية بالذهب، حسب روايات القرن الأول التي سردها بليني الكبير والجغرافي اليوناني سترابو.

ثاج: عاصمة الجرهاء؟

لكن على الرغم من تاريخها الممتد أكثر من 600 سنة، تقريباً من عام 300 قبل الميلاد إلى عام 300م، اختفت الجرهاء بعد ذلك ولم يبق لها أثر وباتت درباً من أطلس الرمال، فأرهقت محاولة الاهتداء إلى موقعهم علماء الآثار وأصابتهم بالإحباط سنوات، وبحسب الزهراني دام هذا الشعور على الأرجح إلى أن اكتُشف القناع الذهبي والقلائد الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة والياقوت واللؤلؤ والفيروز ورقائق الذهب الممهورة بصور إلهَيّ الإغريق زيوس وأرتميس في مدينة ثاج عام 1998م.

ومنذ ذلك الحين، اكتُشفت قصور ومنازل ومبانٍ عامة بمحاذاة جدار بابلي عظيم طوله 335 متراً (1100 قدم) وعرضه نحو خمسة أمتار (16 قدماً). وأضاف الزهراني استناداً إلى أكوام الرماد والأنقاض الضخمة التي اكتشفت، أن علماء الآثار خلصوا إلى أن ثاج كانت مركزاً رئيساً لصناعة الفخار وتماثيل الخزف والمباخر. كذلك تشير العملات المعدنية إلى احتمال وجود معابد لم تُكشف مواقعها حتى الآن.

وتقود الأدلة العلماء، بمن فيهم الزهراني والغبان، إلى الاعتقاد بأن هذا الموقع كان عاصمة مملكة الجرهاء.

العصر الإسلامي تحت شمس التاريخ

جدير بالذكر أن أكثر من ثلث المعرض قد خُصِّص للعصر الإسلامي الذي بدأ في أوائل القرن السابع الميلادي، ويبرز المعرض الطرق التي سلكها الحجاج من مكة المكرمة والمدينة المنورة وإليهما منذ نحو 13 قرناً. وخلال هذه الفترة التاريخية الأكثر حداثة والمعروفة جيداً، وكأنها تحت أشعة الشمس التاريخية، احتوى معرض «طرق» على الكثير من المفاجآت: على سبيل المثال، اكتشف الغبان على طريق الحج الآتية من مصر عتبة بدائية يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر عند ميناء الحوراء المطل على البحر الأحمر، عليها نقوش من الزهور وأجزاء من آية الكرسي باللغة العربية وأحرف جميلة مزينة بسعف النخيل أو رسوم البجع.

كانت الطريق المؤدية إلى المدن المقدسة من العراق معروفة من القرن الثامن بأنها درب زبيدة، وذلك تكريماً لزبيدة امرأة الخليفة العباسي هارون الرشيد لتحسينها الطريق في أعمال مولتها بنفسها.

وعلى بعد نحو 200 كيلومتر (125 ميلاً) شمال شرق المدينة المنورة، كانت مدينة الربذة تمثل محطة أساسية بمحاذاة درب زبيدة. وأصبحت المدينة، التي تحولت إلى مركز للتعليم الديني مجهزة بمساجد وقصور والعديد من الآبار والمروج المترامية الأطراف لرعي الإبل والخيول، فأصبحت المكان المفضل لاستراحة الحجيج، بدءاً من العوام وحتى الخلفاء، ومنهم الخلفاء المنصور والمهدي والرشيد (الذي مر فيها تسع مرات). ومثلما اختفت مملكة الجرهاء، اختفت معالم الربذة تماماً تقريباً، عندما تحوَّلت طريق الحج في القرن العاشر، ولم يتسن التحقق من موقعها إلا من خلال أعمال الحفر التي بدأت في العام 1979م.

التعليم بالمجرفة

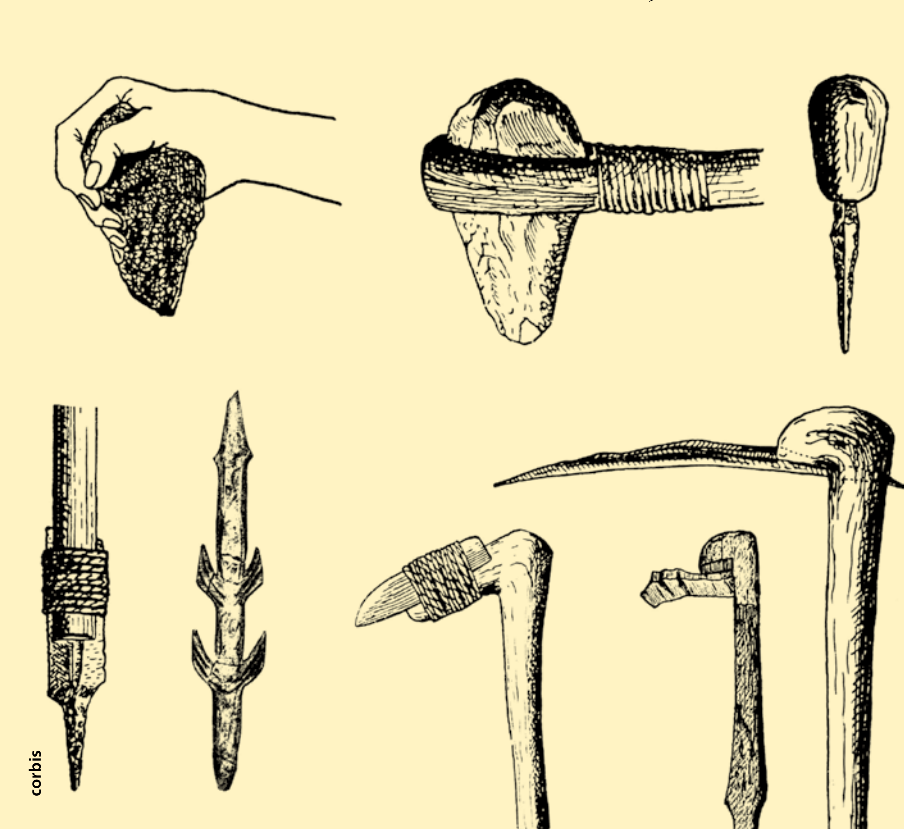
أحياناً يحالف الحظ علماء الآثار. ففي أوائل عام 2010م، شرع مالك عقار في مدينة الظهران في حفر الأساس لإقامة منزل له، لكنه لاحظ وجود بعض قطع الخزف مطمورة، فبادر إلى إبلاغ سلطات

الهيئة العامة للسياحة والآثار

الآثار. وعندما توجه فريق من مدينة الدمام إلى الموقع، أدهشهم ما شاهدوا. يقول علي الغبان، نائب رئيس الآثار والمتاحف في الهيئة العامة للسياحة والآثار: «إنه موقع رائع، واستطعنا على عمق 12 متراً أن نكشف ثلاث طبقات منفصلة من الإشغال يعود تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد، علاوة على أكثر من 80 قطعة أثرية».

إلا أن الأروع كان منزلا كاملاً يعود تاريخه للقرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد، كان مزوداً غرفَ تخزين الحبوب.

وأضاف الغبان يقول: «بعد تحليل المواد ستتكون لدينا صورة أدق بكثير عن مدينة الظهران القديمة، إلا أن هذا الاكتشاف العارض أظهر لنا أن مجرد تحديد موقع محتمل، يحتم علينا أن نتحرك بأقصى سرعة، وإلا واجهنا خطر فقدانه».



الأدوات المستخدمة في علم الآثار

ووفقاً لضيف الله الطلحي، الرئيس السابق لقسم البحوث في الهيئة العامة للسياحة والآثار، يوجد في المملكة العربية السعودية نحو 4000 موقع أثري معروف، بالإضافة إلى الألوف من نماذج الفن الصخري، ويشير إلى أن الهيئة العامة للسياحة والآثار والسلطات الإقليمية تطلق حملات في جميع أنحاء البلاد لزيادة الوعي بالتراث الأثري الغني الذي تحتويه المملكة.

تثقيف المواطن وتدريب الطلاب

ويؤكد الغبان أن «حماية المواقع بالقوانين لا تُعد كافية»، إذ علينا أن نشجع كل مواطن ليكون حامياً لثقافته، ويلفت النظر إلى أن وزارة التربية والتعليم تعكف الآن على تثقيف طلابها بشأن الموارد الأثرية، بينما يجري تطوير المتاحف المحلية والمعالم الأثرية من أجل السياحة الثقافية.

وبالفعل هناك سبعة متاحف إقليمية جديدة تحت الإنشاء. كما يجري الآن ترميم المواقع المركزية وتجديدها، مثل مقابر الجروف الصخرية الموجودة في مدائن صالح، التي أدرجت ضمن قائمة منظمة اليونسكو لمواقع التراث العالمي في عام 2008م، ومدينة الدرعيّة المبنية من الطوب اللبن والتي كانت عاصمة الدولة السعودية الأولى، لتصبح وجهات سياحية.

ويعاد الآن تأهيل القرى القديمة للسماح للزوار بالإقامة في المنازل التقليدية المزودة بوسائل الراحة الحديثة. وأوضح الغبان «إننا ننظر إلى الآثار بصفتها قطاعاً للتنمية».

فريق دولي ودعم رسمي

وفي هذا المجال، يتعاون علماء الآثار السعوديون الآن مع 14 فريقاً دولياً من الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا وأستراليا للتنقيب عن الآثار في جميع أنحاء البلاد.

وتجدر الإشارة إلى أن تدريبات علم الآثار تسهم في زيادة عدد الطلاب السعوديين المقبلين على القطاع. وبحسب الغبان، تتعاون الهيئة العامة للسياحة والآثار مع أرامكو السعودية لإعداد قائمة مفصلة بأصول المملكة الأثرية والتاريخية.



الهيئة العامة للسياحة والآثار

كذلك يعاد الآن تصميم موقع الهيئة، التي لا تزال تنشر «الأطلال»، وهي مجلة علمية توثق المكتشفات في مختلف أنحاء البلاد.

وتشيد بياتريس أندريه سالفيني، المنسقة المشاركة لمعرض «طرق الجزيرة العربية» ومديرة قسم الآثار الشرقية في متحف اللوفر، بجريدة «الأطلال»، وتشير إلى أن «المملكة من الدول القليلة التي توفر هذه البحوث والتراجم بالمجان، وفي الوقت نفسه تغري الفرق الأجنبية لمساعدتها، وهذه سياسة شجاعة للغاية».

حصيلة آثار رائعة

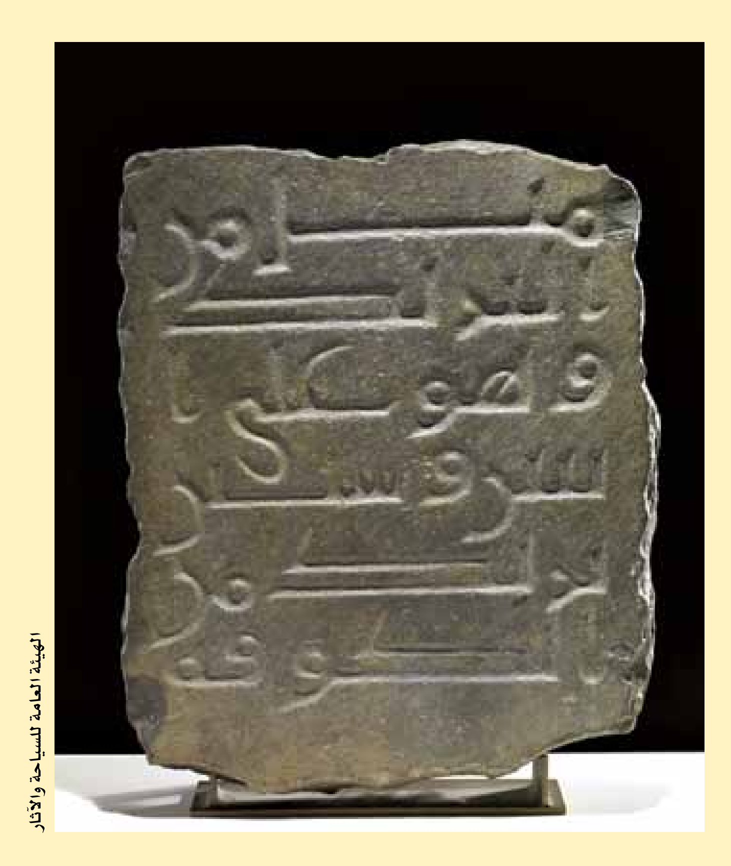
كتبت كارين جوفين، أمينة متحف اللوفر المستشارة العلمية لدى إدارة المتحف الإسلامي: «إن من أروع ما استُخرج من قرية الربذة زهرية عراقية كبيرة خضراء اللون عليها زخارف محفوظة حفظاً جيداً. وثمة نماذج لمجموعة من أواني الخزف الرائعة القادمة من العراق أيضاً. وهناك جزء من جدار يعود تاريخه إلى القرن التاسع، يحمل نقشاً بالخط الكوفي الأسود على خلفية من تراب صلصالي حمراء وصفراء، تشبه جداريات مماثلة في العراق.

إلا أن الأثر الأكثر إثارة في القسم الإسلامي بمعرض «طرق» هو في القاعة ذات الضوء الخافت التي تضم اللوحات الجنائزية، حيث يوجد صف من الأحجار البازلتية ذات اللون الأحمر والأرجواني والرمادي مضاءة بأنوار خافتة، ويرجع تاريخها إلى ما بين القرنين التاسع والسادس عشر، مستخرجة من مقبرة المعلاة في مكة المكرمة، منقوشة عليها أسماء أشخاص وقبائل، وأصول الموتى وأحياناً مهنهم، وقد تحمل استثناءً أسماء الفنانين الذي نحتوها.

وتوضح جوفين أن «هناك وثائق تاريخية واجتماعية تعكس صورة المجتمع المكي، بالإضافة إلى آل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، والنصب التذكارية التي تخلد ذكر الحجيج من جميع أنحاء العالم الإسلامي، بدءاً من الأندلس إلى إيران والعراق وسوريا وآسيا الوسطى والهند». وبغض النظر عن أن هناك أكثر من 600 من تلك الأحجار، التي ينتمي معظمها إلى المتحف الوطني في الرياض أو متحف قصر خزام في جدة، لم ينشر أول كتاب مصور عنها إلا في العام 2004م، وكان باللغة العربية.

آثار من عصور متعاقبة

وقد نقبت جوفين في المجلد الموسوعي لجميع النقوش الـ 600 لاختيار الأحجار الثمانية عشر المعروضة. ولتتبع تطور الأنماط الزخرفية والخاصة بالخطوط. تقول جوفين إنها اختارت نماذج من العصور المتعاقبة. وتشير إلى أن الآثار الأولى نقشت بالخط الكوفي الواضح، لكن بحلول القرن الثاني عشر ساد نمط كتابة أكثر مرونة وهو أحرف النسخ المتصلة. وبالتمعن في النقوش، حصلت جوفين على كنز من المعلومات عن الشخصيات الغنية والفقيرة والشهيرة وحجاج مجهولين



الهيئة العامة للسياحة والآثار

من بلاد بعيدة. ومن بين الأحجار كان هناك شاهد يعود للقرن العاشر يسرد الأنساب العريقة لتسعة أجيال مضت.

وكان هناك شاهد من القرن التاسع حيث تكرم إحدى الإماء على أنها أم لابن سيدها. وكان هناك نصب على شكل هرم، منقوش عليه صورة قنديل مسجد يتدلى أسفل القبة، مقام على قبر إمام من القرن الثاني عشر من مدينة مكناس المغربية.

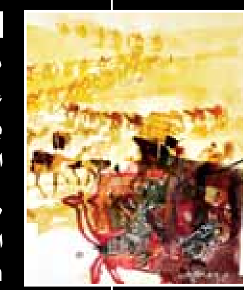
وهناك نقش دائري غير تقليدي يخلد ذكرى أحد قضاة منطقة بحر قزوين في طبرستان، إذ هاجر هذا القاضي إلى مكة المكرمة في سبعينيّات القرن الثاني عشر وأسس أسرة من مشاهير القضاة.

أما صالتا العرض الأخيرتان فتحويان مقتنيات أخاذة: قماش من الحرير اللامع ذي اللونين الأحمر والقرمزي وباب ضخم مصفح مطلي بالذهب والفضة وكلاهما برع فيهما السلاطين العثمانيون لتزيين الكعبة المشرّفة، بالإضافة إلى لوحات خزفية للمدينتين المقدستين، وصورة للملك عبد العزيز آل سعود، مؤسس المملكة العربية السعودية، وبجواره سيفه وعباءته.

لكن الشواهد الجنائزية كانت أكثر الأشياء تعلقاً بذاكرتي على نحو عميق. فعلى الرغم من أنها كانت تحدد نهاية الطريق لمن تخلد ذكراهم، فقد تجاوزت نصوصها وبراعتها الفنية الغرض الأصلي منها، فأصبحت معالم مؤثرة تمتد على طول شبكة الطرق الأعظم بكثير، التي لم تربط فقط أراضي عالم قديم مفعم بالحركة، بل ربطت عالم ذلك الزمن بعالمنا.



لوحة: عمر صبير - المحترف السعودي



القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يناير - فبراير 2012
المجلد 61 العدد 1

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com